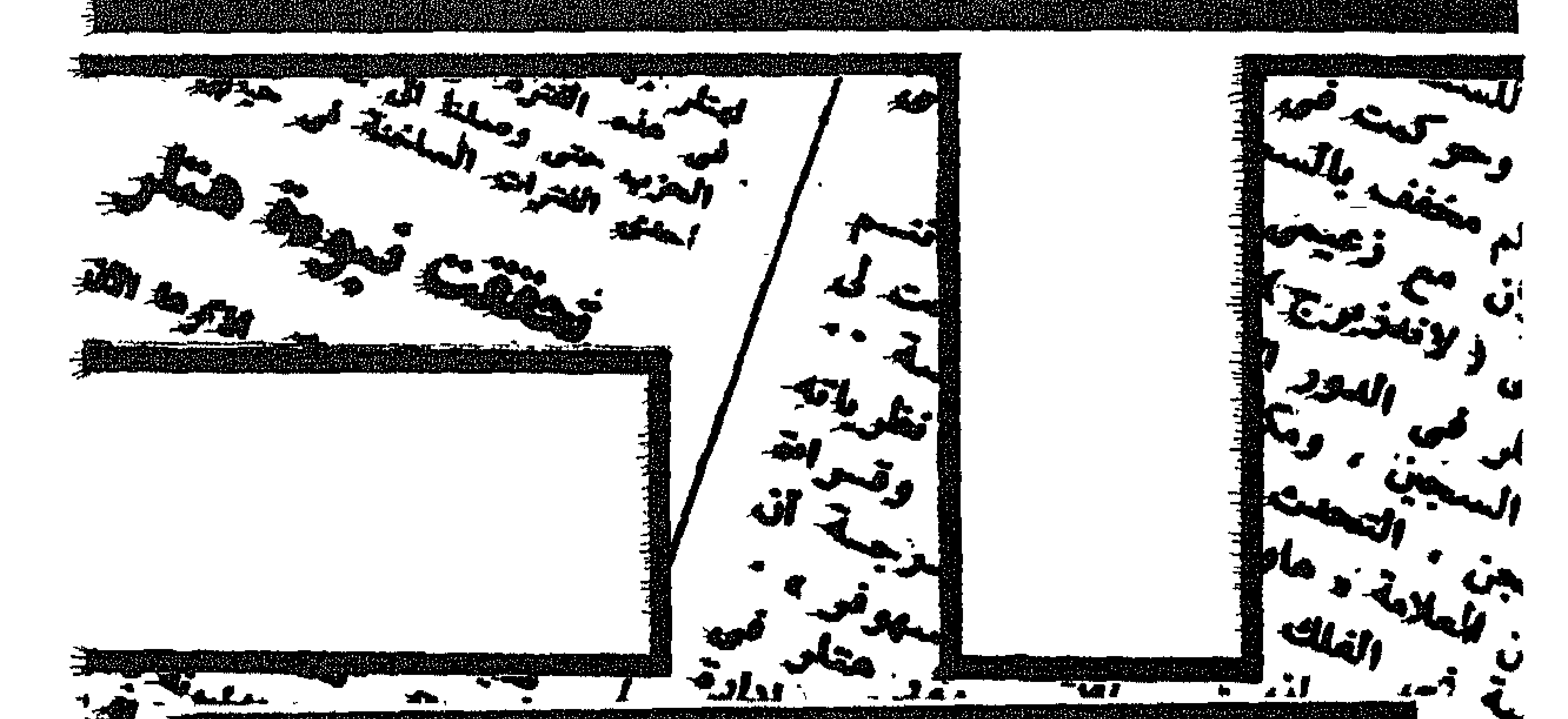


أغلى سجين فى العالم

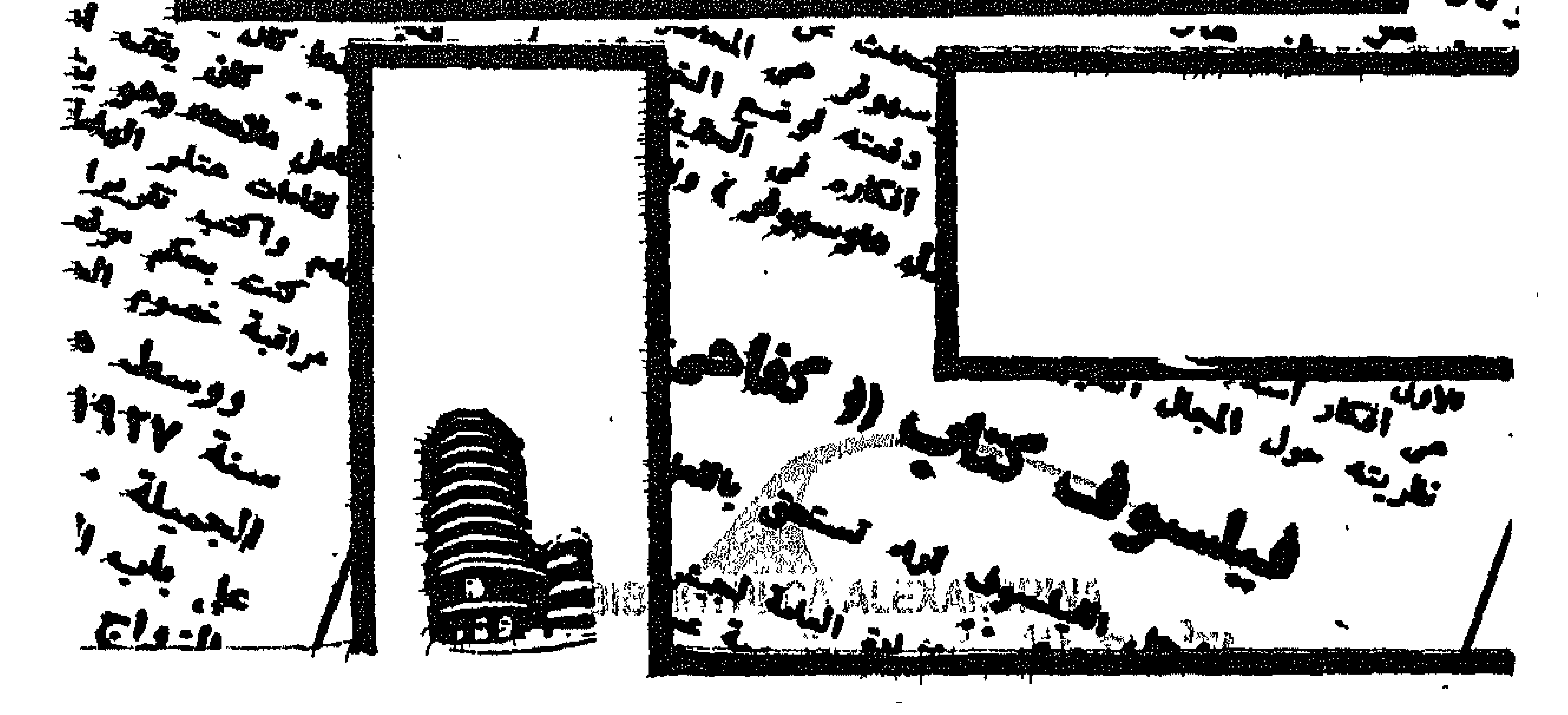
محمد فهمى

محمد فهمى

أغلى سجين في العالم ..



England - Nürnberg - Spandau



● المقــــدمة ●

عجــوز تحت عيــون روسيــا وأمريكا وانجلترا وفرنسا !



فى الزنزانة رقم ١٧ يرقد السجين رقم ٧ . . البالغ من العمر ٨٩ سنة تحت حراسة ضباط وجنود الدول الأربع الكبرى : روسيا وأمريكا وبريطانيا وفرنسا .

يرقد على سرير طبى أبيض اللون . . يرتدى بنطلونا رماديا وقميصا أبيض اللون بياقة عصرية .

قاعدة السرير من النوع المتحرك الذى يستخدم ، عادة ، فى المستشفيات . . يرفعه الأطباء صباح كل يوم ليعتدل السجين فى رقدته . . وفى صباح كل يوم يحصلون على عينات فمن فضلاته . . ويذهبون بها للتحليل بالمستشفى العسكرى البريطانى فى قلب برلين . . وفى صباح كل يوم يقيسون له ضغط الدم ، ودرجة الحرارة ويسجلونها فى دفاترهم .

إنه في سجن انفرادي منذ أكتوبر ١٩٦٦ في قلعة شبانداو ، أثر الافراج عن آخر المساجين العظام . . وكانا البيرت شبير وزير التسليح النازي ، وشيراك مسئول الشباب الهتلري .

★★★

لقد بنيت قلعة شبانداو منذ ٧٥٠ سنة . . وعلى وجه التحديد في ٧ مارس ١٢٣٣ لتشغلها فرقة عسكرية مكونة من ٦٠٠ شخص . . أما الآن فيقيم بها عجوز واحد وسط حراسة لا تفارقه ليل نهار . . تحرسه بريطانيا شهور يناير ومايو وسبتمبر ، وتحرسه فرنسا شهور فبراير ويونيو وأكتوبر ، ويحرسه الاتحاد السوفيتي شهور مارس ويوليو ونوفمبر ، وتحرسه أمريكا شهور أبريل وأغسطس وديسمبر .

مساحة السجن عشرة أفدنة . محاط بأسوار عالية من الطوب الأحمر ، فوقها سور آخر مكهرب قوته أربعة آلاف فولت تصعق الانسان فور الاقتراب منه ، علاوة على عدد من كلاب الحراسة المدربة ، وكتيبة من الجنود والضباط منتشرين في نقاط حراسة مزودة بأنوار كاشفة تتحرك على قواعد دائرية تستطيع أن تكشف كل شبر على السور .

مساحة الزنزانة ٧ × ١٠ أقدام .

بجانب السرير مائدة متحركة عليها براد شاى . . ويمد الرجل العجوز يده داخل دولاب صغير ليخرج بضع قطع من الخبز . . استعدادا لتناول طعام الافطار .

وكما يحدث كل يوم . . يفتح أحد الحراس باب الزنزانة ليضع بجانب أقدم سجين في العالم . . صحف الصباح .

لقد وافق الحلفاء على أن يقرأ هيس أربع صحف هي (نوى دويتشلاند) و (دى فيلت) و (تاجسشبيجل) و (فرانكفورتر الجمانيه) .

تصله صباح كل يوم بعد أن تمر على رقابة السجن ، فتقص منها ، بدقة شديدة ، وبعناية بعض المقالات او التعليقات التى لا يجوز له أن يطلع عليها .

وقارىء الزنزانة رقم ١٧ يعرف جيدا معنى الفجوات التى في الصحف . . فهو يعرف أن في هذا المكان مقالا عن النازية أو عن الرايخ الثالث . .

إنهم لا يريدون إطلاع « هيس » على ما حدث في عصره ، ويخفون عنه كل ما يتعلق بالحقبة النازية . . فهى بالنسبة له من المحرمات ، ولم يختلف الحلفاء على ذلك .

لقد وافقت القوى العظمى على أن هيس لا يقرا ما يكتب اليوم عن النازية .

★ ★ ★

ورودلف هيس الذى ولد بحى الابراهيمية في الاسكندرية في ٢٦ أبريل سنة ١٨٩٤ ، والتحق بمدرستها حتى بلغ من العمر ١٢ سنة . . هو النازى الوحيد الذى لم يتنصل من فترة الرايخ الثالث ، ولم يهاجم هتلر على الاطلاق . . بل إنه عندما « أصدرت عليه محكمة »

نورمبرج سنة ١٩٤٦ حكمها بالسجن مدى الحياة بتهمة اشتراكه فى الاعداد للحرب قال أمام المحكمة :

— « أننى سعيد لأنى أعرف أننى قد أديت واجبى تجاه شعبى . . واجبى كألمانى ، وكوطنى اشتراكى ، وكمطيع لقائدى . . إننى لست نادما على أى شىء ، وإذا عادت الساعات إلى الخلف فسوف أتصرف تماما كما تصرفت ، حتى وأنا أعرف أن نهايتى هى الاكتواء بالنيران حتى الموت » .

وطوال السنوات العديدة التى عاشها رودلف هيس فى شبانداو لم ينطق بكلمة واحدة ينتقد بها هتلر . . فهو يعرب عن إخلاصه بالصمت ، ولم يحدث على الاطلاق أنه باح بسر إئتمنه عليه هتلر . .

فهو لم يدفع أى ثمن فى مقابل التخفيف من ذنوبه ، وتحمل كل تبعات مسئوليته كنائب لهتلر ، ودفع لذلك أغلى ثمن .

حتى رحلته الغامضة لبريطانيا أثناء الحرب ، لم يكشف سرها حتى اليوم وتحمل وحده مسئوليتها . .

ألغاز عديدة تحيط بهذه الرحلة . . فهتلر أعلن أن هيس مجنون . . وتشرشل ألقى به فى السجن ، والتحقيقات التى أجريت معه فى انجلترا لم تسفر عن كشف علاقة هتلر بمخطط هذه الرحلة وأهدافها . . وكانت كل أقوال هيس تتلخص فى أنه قام بها على مسئوليته .

وأثناء محاكمة نورمبرج . . وبعد خمس سنوات من الرحلة ، ظل هيس على موقفه ، وأصر على كل كلمة قالها فى أول تحقيق أجرى معه . . لم يزد عنها كلمة واحدة ، رغم أن الحرب كانت قد انتهت ، ورغم أن هتلر كان قد انتحر ، ورغم أن معظم الذين كانوا حوله ألقوا كل ذنوبهم عليه لتخفيف العقوبة عن أنفسهم ، إلا هو ، فقد ظل على ولائه حتى هذه اللحظة ، ولم يشرك هتلر فى الفشل الذى منيت به رحلته ، واحتفظ بكل الفشل لنفسه ، بينما كانت رحلته فى حقيقتها هى رحلة من أجل السلام . .

★ ★ ★

وعندما فاز المستشار الألمانى الأسبق فيلى برانت بجائزة نوبل للسلام سنة ١٩٧١ ، قال هيس للدكتور إيجون بيرو المدير الامريكى الأسبق للسجن : « لنتصور أن مهمتى كانت قد نجحت بعد وصولى إلى سكوتلندا . . ربما حصلت على نفس التقدير الذى حظى به فيلى برانت اليوم ، لقد كانت لى كل المواصفات لنيل جائزة نوبل للسلام » .

وحتى هذه اللحظة لم يكشف النقاب تماما عن رحلة هيس . . وعما إذا كان قد حمل معه مقترحات المانية محددة كأساس لمفاوضات السلام مع انجلترا . . أم أن ما حمله كان مجرد أفكاره الشخصية لوقف الحرب مع انجلترا تمهيدا لهجوم ألمانى بريطانى مشترك على روسيا .

وإلى اليوم لم يعرف العالم ما إذا كان هيس قد قام بمغامرته وحده . . أم بتفويض من هتلر ؟ .

لقد أعلن هتلر سنة ١٩٤١ رسميا أن نائبه مجنون . . وتمسك أغلب المؤرخين بهذه الشهادة حتى اليوم ، واعتمدوا عليها فى تفسيرهم للأحداث . . على أساس أن هيس قام بمغامرته وحده ، وان هتلر لم يشترك فى محاولة إنهاء الحرب مع انجلترا . .

هذا التفسير الذى انتشر بعد الحرب ، بصفة خاصة ، ساعد أولئك الذين حاولوا تشويه صورة هتلر ، وإظهاره بمظهر مجرد الحرب . .

ساعدهم فى إذلال الشعب الألمانى وابتزازه للحصول على مكاسب مادية وسياسية .

ساعدهم على شل الدور الألمانى على مسرح بعض الأحداث الكبرى .

ساعدهم على استثمار عقدة الذنب .

وبقيت صورة هتلر . . رجل الحرب . . هى الصورة المفضلة لتعامل الدول الكبرى مع ألمانيا ، بل ومن الدول الصغيرة الواقعة فى الشرق الأوسط . .

ويكفى أن نذكر أنه عندما رفض المستشار السابق هيلموت شميت الخضوع التام لرئيس وزراء إسرائيل مناحم بيجن . . كان الهجوم على شميت يدور حول محور واحد ، هو أنه كان جنديا فى الجيش الهتلرى .

★ ★ ★

وهنا يكمن السر وراء شراسة الهجوم على مذكرات هتلر المزورة التى كانت مجلة شيترن قد بدأت نشرها .

لم يكن الهجوم فى حقيقته بسبب كون المذكرات مزورة . . بل لأنها كانت محاولة لاظهار هتلر بصورة أفضل مما رسمها له خصومه . .

فلم تكن مذكرات هتلر هى أول تزوير ينشر عن كبار النازيين ولن يكون آخرها . . وعندما صدرت الطبعة الأولى من مذكرات إيفا براون عشيقة هتلر . . وهى مذكرات مزورة . . لم يتحرك أحد . . لماذا ؟

لأن المذكرات ساهمت فى تشويه صورة هتلر إلى أبعد الحدود ، ووصل الأمر إلى حد أنه كان يقيم حفلات رقص . . جميع روادها من العراه ! ويأتى هذا (التخريف) على لسان إيفا براون . . التى عاشت معه . . وانتحرت معه !

وكان الهجوم على مذكرات هتلر المزورة منصبا على رحلة هيس . . لأنها أشارت إلى أن رحلة هيس جاءت بتخطيط وموافقة ومباركة هتلر . . أى أن هتلر كان رجل سلام ، وأنه سعى لايقاف مجزرة الحرب . . ولكن تشرشل هو الذى رفض العرض الألمانى ، وبالتالى فهو مجرم الحرب الحقيقى.

★ ★ ★

ففى دوسيه كامل سجلت المذكرات المزورة أخطر تفسير لرحلة هيس .
على غلاف الدوسيه لصقت ورقة بتوقيع بورمان (سكرتير هتلر) تقول :
« سرى جدا . . خاصة بالزعيم . . تظل مغلقة دائما » .
على الورقة الأولى فى الدوسيه كتب هتلر بالحبر الأسود « موضوع هيس » . . وكان ذلك بتاريخ ١٦ مايو ١٩٤١ . . أى بعد ستة أيام من الرحلة الغامضة . . وكان ذلك أول دليل على أن هتلر وهيس خططا لرحلة انجلترا معاً .
لقد بدأ هتلر ملف هيس بثلاث كلمات هى « الذى حدث أن » وبدأ يسرد أسباب الرحلة وملابساتها ، واعترف بأن هيس اتفق معه على كافة التفاصيل قبل ١٠ مايو ١٩٤١ ، وعن إعداده لطائرة من طراز (مسر شميت) ، وأعدا معاً احتمالات الفشل واتفقا على البيان الذى سيعلن حال فشل مهمة السلام .
فتحت عنوان « الخطة » جاء فى المذكرات المزورة :
١ ــ إذا نجحت مهمة هيس ، فسأعلن أن مفاوضاته تتم بموافقتى .
٢ ــ إذا قبض عليه فى انجلترا واعتبر جاسوسا ، فسيتم الاعلان بانه عرض على خطته للتفاوض ولكننى رفضتها .
٣ ــ إذا فشلت المهمة فشلا تاما . . فقد اتفقت مع هيس على الاعلان بانه مجنون وأنه مختل عقليا . . ولذلك فعندما فشلت مهمة هيس اتخذ هتلر الاختيار رقم (٣) ، وقام بنفسه باعداد مسودة البيان الحزبى الذى أذيع على العالم كله وجاء فى نصه :
« الرفيق هيس الذى منعته منعا باتا من الطيران بسبب الاضطرابات العقلية التى اصيب بها منذ سنوات طويلة . . قام مخالفا لكل هذه الأوامر بالحصول فى الأونة الأخيرة على طائرة »
وكان هتلر على ثقة تامة بأن السجين القابع فى انجلترا لن يبوح بالسر باى حال ، وأن الحقيقة ستظل سرا بينهما فقط . . فالعلاقة بين هيس وهتلر ترجع إلى ٢٠ سنة مضت ، وربطت بينهما خلالها روابط وطيدة وأسرارا مشتركة . . وثقة من نوع خاص .
كانت رحلة هيس لانجلترا تستهدف فى رأيه إحباط مؤامرة اليهود ضد ألمانيا . . على أساس يقضى أن تغلغل اليهود فى القيادة البريطانية سيحول دون إنهاء الحرب . . ولذلك فقد نادى هيس بفكرة إحباط مؤامرة اليهود ضد ألمانيا بسحق الشبكة التى تربطهم عن طريق تكثيف العلاقات مع انجلترا ذوى النوايا الطيبة ، ودعوتهم لفتح أعينهم على النشاط اليهودى الذى يجرى وراء الكواليس فى انجلترا ، ويستهدف تدمير العلاقات بين لندن ، وبرلين وضرب أى محاولة لانهاء الحرب .
وبدأ هيس يتفحص موضوع العلاقات البريطانية ، ويجرى الحوار مع أغلب الساسة الانجليز ورجال البرلمان ، ويدعوهم لكشف خيوط المؤامرة التى تنسج فى لندن لإثارة العداء

ضد هتلر . . وكان يركز دائما على روابط النقاء الجنسى التى تربط بين الجنسين الآرى (الألمانى) والسكسونى (الانجليزى) وأنه لا يجوز أن يتصارع الجنسان وتراق الدماء على الجانبين ، إذ سيكون المستفيد الوحيد هو « اليهود . . واليهودية العالمية » .

★ ★ ★

وكتب هتلر فى مذكراته فى ٢٥ يونيو ١٩٣٩ :

« لقد أرسل لى هيس اليوم مذكرة شخصية حول موضوع بريطانيا بريطانيا . . لم أكن أعتقد أن هيس يستطيع التفكير بهذا العمق . . فهذه المذكرة هامة جدا . . بل هى بالغة الأهمية .

وفى ٢٧ يونيو كتب :

« لقد أمضيت الليل كله أفكر فيما كتب هيس . . ينبغى ، بكل تأكيد ، أن أتحدث معه شخصيا بشأنها » .

وفى ٢٨ يونيو كتب :

« قرأت مذكرة هيس مرة أخرى . . إنها رائعة ، وهى مع ذلك بالغة البساطة » .

وفى يوم الجمعة ٣٠ يونيو ١٩٣٩ سافر هتلر مع سكرتيره ماتيه بورمان إلى ميونيخ حيث مستعمرة هيس فى بولاخ (هى الآن مقر المخابرات الألمانية) وأجرى معه حوارا شارك فيه رؤساء الأقسام فى الحزب النازى .

وبعد ذلك اجتمع الرجلان على انفراد ، وكما يقول هتلر فى مذكراته ، إنه تحدث إلى هيس لأول مرة حول خطته لكشف النفوذ الخفى لليهود . . وتأثيرهم على صناعة القرار فى بريطانيا ، وسعيهم لاثارة العداء بين لندن وبرلين .

وعندما استقل هتلر طائرته الجديدة ذات الأربعة محركات من طراز « كوندور » فى طريقه من برلين إلى ميونيخ لحضور مؤتمر الحزب . . كانت تسيطر عليه أفكار هيس الرامية للتقارب مع بريطانيا ، ولذلك فلم يكن غريبا أن ينعقد مؤتمر الحزب سنة ١٩٣٩ وهو يحمل شعار « مؤتمر الحزب من أجل السلام » فى الوقت الذى كان فيه هتلر يستعد لشن هجوم على بولندا . . أى أن هتلر كان يحلم بالسلام مع انجلترا ، فى الوقت الذى يستولى فيه على بولندا .

★ ★ ★

على أية حال . . لقد ألقت مذكرات هتلر المزورة ، والضجة « الهائلة » التى أثيرت حولها ، أضواء جديدة حول مهمة هيس أقدمها لكم فى هذا الكتاب .

● محمد فهمى

حياتى بدأت .. فى الابراهيمية

حياتى بدأت فى حى الابراهيمية فى ٢٦ أبريل سنة ١٩٨٤ . . فأنا من مواليد برج الحمل !

الفصل الأول

كان أبى فريدريك هيس قد هاجر من بافاريا . بالجنوب الألمانى . . وجاء إلى مصر ليعمل بتجارة الجملة . . كانت بصحبته فى ذلك الوقت عروسه الجميلة كلارا مونش ، ابنة أحد رجال الصناعة المشهورين فى بافاريا . . أمى !

جاء إلى الابراهيمية حيث استأجر فيلا ، ذات حديقة واسعة . . وفى هذه الفيلا ولدت أنا وبعدى بثلاثة أعوام جاء شقيقى الفريد الذى عمل مع أبى بالتجارة . . ثم مضت ١٥ سنة لترزق الأسرة بشقيقتى « مارجريت » التى ولدت سنة ١٩٠٨ وأصبحت هى بذلك . . آخر العنقود !

وأذكر أيام طفولتى فى الابراهيمية تماما . . كنت قد التحقت فى ذلك الوقت بالمدرسة الألمانية . . وكان بيتنا أشبه بالمعسكر الذى تحكمه قواعد الضبط والربط الصارمة . . كانت الوجبات تقدم لنا فى مواعيد ثابتة . . أصناف الطعام التى تقدم هى الأنواع التى يحبها أبونا . . فى أحدى المرات أبديت ملاحظة عابرة وهم يقدمون لى السلطة الخضراء . . فحرمت منها للأبد . . كنا لا نتكلم إلا إذا سمح لنا الكبار بذلك . . مواعيد النوم أكثر من دقة مواعيد قيام الطائرات . .

ماذا أقول لك . . ؟

أذكر حياتنا فى الابراهيمية تماما . . أذكر حديقة منزلنا بزهورها ، وعبقها . . أذكر رياح الخماسين الساخنة ، ونسيم البحر الباردة بمذاقه المالح . . أذكر رياح الشتاء ، وأمواج البحر تتلاطم عند الأفق . . فتبدو أشبه بقطع الثلج البيضاء وسط زرقة الماء الداكنة . .

كنا ونحن أطفال ننام على صوت البحر . . وكان هذا الصوت أشبه بالأغنية التي ترددها الأم لطفلها حتى يغلبه النعاس . . كان صوت بحر الاسكندرية هو أمنا . . وعلى هديره المنتظم كنا ننام !

أذكر سماء مصر بنجومها اللامعة . . وكثيرا ما كانت أمي تجلس في الحديقة ونحن حولها في إحدى أمسيات الصيف نتطلع إلى السماء وإلى النجوم المنتشرة في ربوعها . . وتحكى لنا اسم كل نجم . . وحكايته . . كانت حديقة بيتنا أشبه بالجنة ، وما زلت أذكر هوايتي وأنا طفل صغير عندما أقطف الياسمين برائحته الشذية التى لا يمكن للانسان أن ينساها . . أذكر أيضا باقات الفل الأبيض . . التى كنت ألهو بها . .

كنت كثيرا ما أقف وحدى أتأمل البحر . . وهو يتحدى الشاطىء ويضرب صخوره بقسوة بالغة . . ومرت الأيام كموسيقى حالمة وجاءت سنة ١٩٠٠ عندما اشترى أبى بيتا فى بافاريا كنا نمضى فيه أجازتنا السنوية وفى سنة ١٩٠٨ قررت الأسرة أن أواصل تعليمي بالمدرسة الايفانجيلية ببادجوسبيرج إحدى ضواحى بون . .

علي الباخرة وقفنا نتطلع على الاسكندرية . . والشاطىء يختفى تدريجا ولم تعد تظهر سوى أشجار النخيل العالية ثم اختفى كل شىء لم نعد نرى إلا مياه البحر . . تحوطنا من كل جانب .

أذكر يومها عندما اتجه أبى نحوى وهو يقول « أنظر جيدا إلى هذا البلد . . ربما تمر سنوات طويلة قبل أن تراه مرة أخرى » .

وهكذا غادرت أرض مصر . . ولم يكن يحلم أحد كم من السنوات سوف تمر . . ولم أعد إليها طوال حياتى كلها . . وربما عاد جثمانى ليدفن فى أرضها مرة أخرى . . من يدرى ؟ !

التحقت بالمدرسة فى بادجودسبيرج . وكنت أواجه بعض المشاكل من زملائى التلاميذ . . الذين كانوا يعتبروننى أجنبيا ، ولكننى وجدت متعة بالغة فى دراسة التاريخ . . وترك مدرس التاريخ فى هذه الفترة انطباعات عميقة فى نفس . .

أنهيت المرحلة الدراسية الأولى فى بادجوسبيرج . . كانت رغبتى فى دراسة التاريخ قد تأصلت فى أعماقى ، إلا أن أبى كان له رأى آخر . . ورأى أبى كان دائما هو الأول والأخير . . كان رأيه إعدادى لأساعده فى نشاطه التجارى . . وبالفعل التحقت بالمدرسة التجارية فى نيوشاتيل بسويسرا ثم تدربت على أعمال التصوير فى هامبورج بعد أن وعدنى أبى بالسماح لى بالدراسة فى جامعة أكسفورد . . كانت التجارة شيئا ثقيلا على قلبى وكنت أمضى أغلب الوقت فى هامبورج أقرأ كتب التاريخ وعلى وجه التحديد تاريخ البحرية الألمانية .

قامت الحرب العالمية الأولى وتجمع شمل الأسرة فى بيتنا فى بافاريا . . ووجدت فرصتى للهروب من التجارة بحساباتها وأرقامها ، وميزانياتها من كشوف الأرباح والخسائر . . إلى حياة أخرى جديدة . . مثيرة .

كنت من أوائل المتطوعين فى الحرب . . والتحقت وأنا فى سن العشرين بكتيبة المشاه البافارية الأولى . . وفى ديسمبر سنة ١٩١٦ أصبت أثناء المعارك ، وبعدها بعام واحد أصبت مرة أخرى . . وكانت الاصابة هذه المرة فى صدرى . . فى الرئة ! !

خرجت من المستشفى أحمل على كتفى رتبة ملازم ، والتحقت بكتيبة أخرى ، كان يطلق عليها « كتيبة شهداء المعركة » تخليدا لأولئك المثقفين الذين قتلوا أثناء سنوات الحرب . . وهى الكتيبة التى كان يعمل بها هتلر . . كجندى عامل . . كنت أنا بالطبع كما قلت لك جنديا متطوعا ! !

فى هذه الفترة لم أتعرف على هتلر . . كنت أراه ولكن لم يحدث بيننا أى لقاء أو تعارف على الاطلاق . .

وفى سنة ١٩١٨ التحقت بقوات الطيران الملكية وأنهيت تدريبى لأصبح ضابطا طيارا ، واشتركت فى الحرب كطيار لمدة عشرة أيام فقط . . لأن الحرب انتهت . . وقام الجيش بتسريحى من الخدمة فى ١٣ ديسمبر ١٩١٨ .

كنت فى ذلك الوقت قد بلغت الثالثة والعشرين ، وقررت بالفعل أن أهجر التجارة . . ألا أعود إليها مرة أخرى !

ساعدنى على هذه الخطوة انكماش أعمال العائلة فى الاسكندرية ،

وأصبحت أنشطتها المالية محدودة . . وبدأت وقتها أعمل فى التمرين على ديكور المبانى فى إحدى شركات الاسكان فى ميونيخ . وأقضى وقت فراغى كله فى قراءة كتب التاريخ .

كانت الفترة التى تلت الحرب العالمية الأولى قد ألقت بظلال كئيبة على نفسى ، كما أثرت بالطبع على الضباط الذين ساهموا فى هذه الحرب مثل هتلر وجورنج وغيرهما . . كنا نشعر أن قيادتنا قد تهاونت فى حق الشعب الألمانى . . بل ولم ترحم الجيش . كان المدنيون فى الشوارع ينظرون باحتقار إلى كل من يرتدى الملابس العسكرية .

كانت الحرب العالمية الأولى قد انتهت ، بدخول الولايات المتحدة الحرب ضد ألمانيا ، واضطرار الحكومة لقبول اتفاق الهدنة فى ١١ نوفمبر سنة ١٩١٨ ثم قبول اتفاقية فرساى فى ٢٨ يونيو سنة ١٩١٩ التى مزقت أوصال بلادى . . أجزاء كبيرة فى الغرب والشرق من الرايخ الألمانى ضمت إلى دول أخرى . .

لقد فقدنا نتيجة اتفاق فرساى نحو ٨٠ ألف كيلو متر مربع من الأرض تضم أكثر من سبعة ملايين نسمة . . وفقدنا الأرض التى تضم ٧٥ ٪ من مناجم الحديد الخام و ٢٨ ٪ من الفحم وسدس محصول البلاد من الغلال

اتفاقية مهينة . . وهزيمة تهز الكبرياء . . بل أكثر من هذا . . أن بعض ولايات ألمانيا بدأت تستقطب الأفكار الشيوعية ، كرد فعل للثورة البلشفية التى قامت فى روسيا بالفعل . . بل أصبحت هناك نغمة تتردد علنا حول الثورة الاشتراكية فى العديد من المدن الألمانية . . بما فيها برلين .

لم يكن من الممكن أن يستكين الشباب لهذه الموجة الشيوعية ، وقرر بعض الضباط تكوين « الفصائل الحرة » .

وانضم إليهم عدد كبير من المدنيين . . بهدف مقاومة أى نشاط أو تطورات شيوعية فى المدن الألمانية .

وظلت الفصائل الحرة تلعب دورا قياديا فى توازن القوى السياسية فى ألمانيا حتى سن ١٩٢١ عندما قرر الحلفاء نزع سلاح هذه الفصائل .

كنت فى البداية أتمنى أن أعمل كطيار ، ولكن خبرتى فى هذا المجال . . علاوة على أن الفرص المتاحة كانت قليلة . . تماما كما حدث بالنسبة لجوبيلز الرجل المسكين الذى درس الطبيعة وحال تفلطح قدميه من الالتحاق

بالجيش . . وهيملر قائد الجستابو الذى ما كان ينتهى من تدريبه كضابط محترف حتى انتهت الحرب .

كان جوبيلز فى هذه الفترة طالبا بالجامعة . . بينما التحق هيملر سنة ١٩١٩ بالمعهد العالى الزراعى فى ميونيخ . بينما التحقت أنا سنة ١٩٢٠ بجامعة ميونيخ لدراسة التاريخ والاقتصاد والجغرافيا السياسية . . ووقتها تأثرت تماما بأفكار وشخصية أستاذى كارل هاوسهوفر الذى انضم لهيئة التدريس سنة ١٩٢١ ، والذى سترى فيما بعد كيف لعبت أفكاره دورا هائلا فى تاريخ ألمانيا المعاصر .

فى ربيع سنة ١٩١٩ وصلت إلى قمة السلطة فى بافاريا حكومة شيوعية . . وبدأنا نفكر فى الاطاحة بها . . وبالفعل اشتركت فى القتال الذى دار فى شوارع ميونيخ حتى سقطت الحكومة . . ونقلت أنا إلى المستشفى بكسر مزدوج فى ساقى فى أول مايو من نفس العام . .

خرجت من المستشفى لأنضم مباشرة إلى جماعة وطنية لمقاومة الأفكار السامية . . وأصبحت أنا قائد الاجتماعات العلنية ، والمتحدث باسم الجماعة فى الشوارع . . كانت هذه الفترة . . فترة اضطراب سياسية ، واشتباكات فى الشوارع وبدأ المارك الألمانى يتدهور ووصلت قمة المأساة الاقتصادية بين عامى ٢١ ـ ١٩٢٣ . . فالدولار الأمريكى الذى كانت قيمته سنة ١٩١٨ تساوى أربعة ماركات أصبح سنة ١٩٢٢ يساوى ١٨٦ ماركا وأصبح الدولار الواحد سنة ١٩٢٣ يساوى سبعة آلاف ومائتين وستين ماركا ! !

هبوط شنيع بأرقام فلكية . . وكان السبب الأساسى هو المقاومة التى أبدتها ولايات ألمانيا عديدة ضد الحكومات الشيوعية التى باتت تقترب أو تسيطر على السلطة فيها .

وربما تسألنى الآن . . أين كان هتلر . . ماذا كان يعمل ؟ أقول لك أننى لم أكن قد تعرفت بهتلر بعد . . وأن كنت قد عرفت بعد ذلك أنه كان يرى فى أحداث سنة ١٩١٨ الشعبية « هبة من عند الله » . . كان يرى أنها ضرورة مصير . . لأنها كانت بمثابة المتاريس التى حالت دون اشتعال الثورة الوطنية الاشتراكية . . فى ألمانيا .

. جورنج : عاد من منفاه الاختيارى فى السويد بعد أن استمع إلى هتلر انضم إلى الحزب



. . هيملر : قائد الجستابو الشهير . . لم ينضم إلى حزب هتلر . . !!

عاش هتلر فى ميونيخ ابتداء من سنة ١٩١٩ . . وكان يعمل بوظيفة مشرف سياسى بالجيش . وأصبحت ميونيخ محور النشاط السياسى فى ميونيخ أكثر من أى مدينة ألمانية أخرى بما فيها برلين . . العاصمة !

كانت حكومة (فايمار) المركزية فى برلين من الضعف إلى الدرجة التى لا يمكنها من فرض سيطرتها على النشاط السياسى للحكومة المحلية وبصفة خاصة فى بافاريا . التى كان لها وضعها التاريخى الخاص . . وأصبحت حكومة ميونيخ بمرور الوقت تخضع بشكل متزايد لارهاب الوطنيين اليمينيين الذين كانوا يعارضون الدستور الجمهورى الذى صدر فى الشمال .

فى هذه الفترة وجدت الفصائل الحرة مكانها الطبيعى فى ميونيخ . . الفراش الدافىء للمتطرفين . . الذين يعشقون ارتداء الأزياء الموحدة ويضعون على أذرعتهم وأكتافهم الشعارات .

فى أبريل سنة ١٩٢٠ . . : استقال هتلر من الجيش وقرر التفرغ للعمل السياسى فأنشأ فى فبراير من نفس العام حزب العمال الوطنى الاشتراكى . . وبدأ ينشر أفكار الحزب ويدعم قواعده بخطب ولقاءات جماهيرية .

وبدأنا فى هذه الفترة نرى الحزب يشب على الطوق ، كما يقولون ، وينضم إليه أعضاء من مختلف الطبقات . . انضم إلينا إيرنست روم قائد الجيش فى المنطقة . . انضممت أنا أيضا وكان رقم عضويتى « ١٦ » .

عاد إلينا جورنج من منفاه الاختيارى فى السويد ، وبعد أن استمع إلى هتلر يتكلم انضم إلينا على الفور فى خريف سنة ١٩٢٢ ، وكان رقم عضويته ٢٩ . . ولم ينضم هيملر إلى الحزب إلا فى أغسطس سنة ١٩٢٣ .

كانت كلمات هتلر تلمس كل قطرة دم فى عروقنا . . كان يتحدث فى يوم الاثنين من كل أسبوع ، ولم يكن يستمع إليه أحد إلا وينبهر بحديثه . .

كان هتلر يتحدث عن هزيمة وطننا فى الحرب العالمية الأولى . . كان يتحدث عن رفضه لاتفاقية فيرساى ، التى كرست الهزيمة . . وكان يقول أننا لا نستطيع أن نرفض الاستسلام للهزيمة فى فرساى إلا إذا كنا أقوياء . . قوتنا وحدها هى التى تعطى لرفضنا الفعالية . . وما دامت ألمانيا ضعيفة فإن رفضها للهزيمة يصبح بلا أى دلالة . . قوتنا هى التى تضع الحق كله إلى جانبنا !

كانت كل كلمة يقولها هتلر تحمل من الصدق والاقناع . . ما يجمع حولها الجماهير وكان الحل كما رآه هتلر هو تعبئة الشعب كله حول هذه الأفكار التى لن ترى النور إلا بوحدة الشعب الألمانى ، ولا سيما طبقته العاملة . . ولكى تنجذب الطبقة العاملة للحزب النازى فلابد من العودة إلى « القومية » واستقطاب التيارات الشيوعية بالميل نحو الاشتراكية . . وبالفعل حققت هذه الخطة أهدافها وألقى هتلر خطبة طالب فيها بحل الخلافات الحزبية الضيقة . . وقال كلمته المشهورة لأول مرة وهى « ألمانيا فوق الجميع » . . « ألمانيا فوق كل الأحزاب » .

يومها انضم إلينا ألفان من الشيوعيين السابقين ، وانتشرت أفكار الحزب بشكل مثير ، وزاد عدد المؤيدين . . وبدأ تشكيل قوات العاصفة التى كان يرمزها لها بحرف S . A . وكانت تعتبر الذراع القوى للحزب ، ويتولى أفرادها حماية المتحدثين باسم الحزب فى الاجتماعات والمؤتمرات والندوات الحزبية .

كانت مهمة شباب العاصفة ، حماية النظام أثناء الاجتماعات التى كانت كثيرا ما تنتهى بمشاجرات تستخدم فيها أرجل الكراسى كهراوات ويتم التراشق خلالها بزجاجات ، وأكواب البيرة الفارغة علاوة على الصراخ والمواء أثناء الخطب .

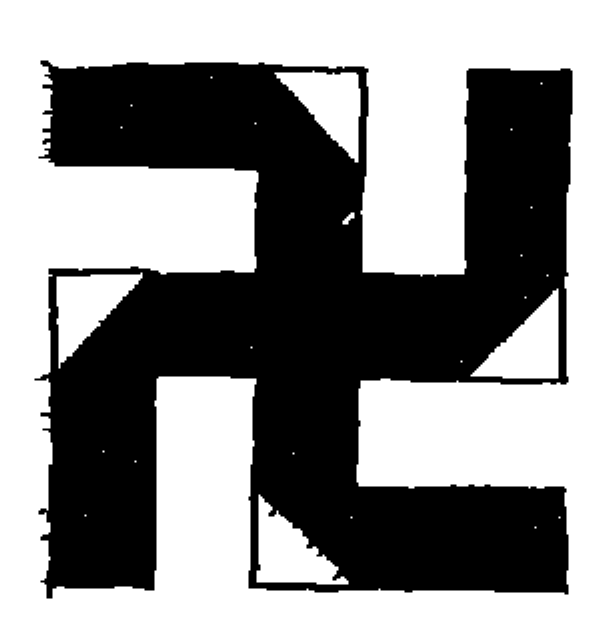
أذكر فى إحدى المرات أن إحدى زجاجات البيرة الفارغة . . انطلقت فى الهواء كالصاروخ نحو رأس هتلر ، لولا أننى استطعت التقاطها وهى فى الجو قبل أن تصل إلى رأس الزعيم .

وفى ٤ نوفمبر سنة ١٩٢١ خضنا معركة حامية مع الشيوعيين أسفرت عن إصابتى للمرة الرابعة ، ولا تزال علامة الاصابة فى رأسى حتى اليوم .

كنت من القيادات النشطة لقوات العاصفة ، وكنت أرى أنها ضرورة تحتمها الظروف السياسية فى ذلك الوقت ليس فقط لحماية ظهر الثورة ، وإنما صقلها للشباب وبث الروح الرياضية وقواعد الضبط والربط بين صفوفه فضلا عن التأهيل السياسى .

كان أولادى من أفراد العاصفة ينتشرون فى قاعة الاجتماعات ، فيلزم كل واحد حدوده على الفور ! . . كانوا ينطلقون كالذئاب ، ويلقون بأنفسهم على هؤلاء المشاغبين مرات ومرات ، وبعدها لا أرى واحدا من الخصوم ، إلا وقد سالت من رأسه الدماء .

أن أعمال قمع الشغب ، أدت إلى حصول الحزب على فريق فعال ومدرب على أعلى المستويات على « الأسلوب الفنى للقتال داخل الجدران » ، والذى وصلنا فيه إلى درجة من الدقة التكتيكية ، تمكننا من هزيمة أى فريق آخر أكثر من قواتنا عددا وقوة . . بل بلغت هذه القوات من القوة إلى درجة جعلت هتلر يفكر فى استخدامها للقيام بانقلاب يستولى به على السلطة فى ميونيخ . . !



انقلاب قاعة البيرة

الفصل الثانى

٨ نوفمبر ١٩٢٣ . . .

موجة الغلاء تطحن رجل الشارع . . سعر المارك يتدهور بسرعة . . التوتر يتزايد بسبب استمرار الفرنسيين فى احتلال اقليم الرور ويدنسون بأقدامهم أرض الأجداد . . المانيا كلها تغلى . .

وفجأة أصدر جوستاف شتريفزمان مستشار ألمانيا قانون الأحكام العسكرية فى ٢٧ سبتمبر فيزيد الطين بلة . .

كانت قوات العاصفة بقيادة جورنج قد أكملت تدريباتها فى الغابات خارج ميونيخ ، ونجحنا فى ضم الجنرال لودندورف أحد قادة جيش بافاريا الى صفوفنا . . بل فكرنا فى اعداد مسيرة حربية تحمل المطالب الشعبية الى الحكومة المحلية فى ميونيخ التى كان يرأسها جوبستاف ريتار فون كار ، وأخرى تسير الى برلين على غراء مسيرة موسولينى الى روما فى أكتوبر ١٩٢٣ .

وسط هذا الجو فوجئنا بجوستاف ريتا فون كار يدعو لاجتماع عام فى قاعة البيرة الرئيسية بالمدينة فى ٨ نوفمبر ١٩٢٣ وهى حانة تتسع لثلاثة آلاف مواطن .

كنا نتصور فى ذلك الوقت أن فون كار سيهاجم الحزب النازى ، وأنه سيحرض الحكومة الاتحادية فى برلين . . ضدنا ! !

بعد اجتماع عاجل ودراسة للمعلومات حول أهداف مؤتمر فون كار . . قررنا السيطرة على هذا التجمع ثم القيام بمسيرة منه الى مبنى الحكومة فى ميونيخ . . شىء من استعراض القوة . . وقياس قوة عضلاتنا . .

تم على الفور تجهيز قوات العاصفة التى انتشرت فى الحانة ، واتخذت مواقعها الاستراتيجية التى تمكنها من التحكم فى جميع الحاضرين . ومداخل ومخارج المكان .

. . وعندما بدأ فون كار حديثه . . تحركنا . . هتلر . . وجورنج . . وأنا الى حانة البيرة . . وما كدنا نتوسطها حتى وضع هتلريده فى جيبه وأخرج مسدسه ، وأطلق فى سقف الحانة طلقة واحدة . . جعلت فون كار يسقط على الأرض من فرط الدهشة . . والسكون التام يغطى المكان ، وكان الثلاثة آلاف شخص قد ماتوا فجأة ! !

. . كان يجلس بجوار فون كار كبار رجال الولاية وقادة الجيش ، وضعوا جميعا أكواب البيرة وهم فى ذهول كامل . . لقد رأوا قوات العاصفة بمدافعها الرشاشة تحرس أبواب الحانة ، وهتلر يقف وسطها بالملابس العادية . . التى لا تتناسب مع ملابس أولئك الذين يشتركون فى الحفلات الرسمية ، بل ويقف فوق أحدى الموائد وفى يده مسدسه مصوب للسقف . . ويعلن بصوته الجهورى :

— لا أحد يستطيع الآن مغادرة هذه الحانة ! ! لقد بدأت الثورة الوطنية ! ! والمكان محاصر بقوات العاصفة المسلحة !

تركنا جورنج يحرس الاجتماع . . وأسرعت أنا وهتلر نسحب الوزراء من الحانة الى أحدى الغرف الجانبية . . كنا مسلحين بالطبع . . والوزراء يرتجفون من الخوف وفى مقدمتهم فون كار الذى كاد ينهار تماما .

بدأنا التفاوض مع فون كار لتشكيل حكومة ائتلافية برئاسة الجنرال لودندورف ، الذى قلت لك أننا كنا قد ضممناه الينا . . وقال لهم هتلر :

— أن لودندورف . . سيحضر حالا . .

كان الوزراء فى حالة رعب حقيقية ولم يكونوا يعرفون ماذا يفعلون وهم يرون هتلر يتحدث اليهم وعلى وجهه تعبيرات رجل مجنون . . لم يكن أمام الوزراء بالطبع إلا الموافقة . . وخرج هتلر الى الحانة مرة أخرى ، ليعلن أن حكومة جديدة سوف تشكل برئاسته ودعا للقيام بمسيرة الى برلين حيث الحكومة الاتحادية .

ووسط الحماس والتصفيق ، عاد الجميع يحتسمون أكواب البيرة ويعود كل منهم ليروى لزوجته أحداث اليوم المثير . . بينما أسرع هتلر ليفض اشتباكا بين أفراد العاصفة وقوات الجيش الحكومى البافارى .

وفى هذه الأثناء وصل الى القاعة الجنرال لودندروف . . ليفاجأ بالأحداث كلها ويعلن غضبه الشديد لأنه لم يخطر بها قبل وقوعها . . ولا يكتفى بذلك . . بل يدخل الى الوزراء حيث أعتقلهم هتلر ويفرج عن ثلاثة منهم . بعد أن وعدوه بعدم أحباط الانقلاب !

سارت الأمور بعد ذلك بسرعة . . فما كاد (لوسو) رئيس وزراء بافاريا يعود الى مكتبه حتى أعلن حالة التأهب القصوى فى الجيش ! وتحول الفأر الذى كان فى المصيدة منذ دقائق ـ الى أسد هصور !

كان على فى ذلك الوقت التحرك بسرعة . . فكل دقيقة تمر ، تعنى أن الجيش سيستطيع أجهاض حركتنا . . أصدرت التعليمات لأفراد من قوات العاصفة لاعتقال عدد من خصومنا السياسيين ، وكبار رجال الدولة ، واحضارهم الى حانة البيرة . . واعتبارهم كرهائن . .

وبالفعل عادت قوات العاصفة . . ومعها عدد من الرهائن ، بينهم وزيران . ألقيت القبض عليهم جميعا ووضعهم معصوبى الأعين داخل سيارة وأنطلقت وسط الجبال للمراهنة بهم وقت اللزوم بينما أستطاع هتلر وجورنج أن يستمرا طوال الليل فى السيطرة على الموقف . . بل ويقودا مسيرة مكونة من أكثر من ثلاثة آلاف شخص فى الساعة الحادية عشرة من صباح اليوم التالى ، ويتوجهان الى مقر الحكومة .

كان يتقدم المسيرة هتلر وجورنج ولودندروف مخترقين الشوارع الى ميونيخ . . إلا أنه فى الثانية عشرة والنصف وقعت مفاجأة لم تكن على البال !

لقد هاجم البوليس المسيرة . وحاصروهم فى بعض الأزقة الضيقة ، وأطلق عليها النيران . . وبدأ ضرب أعضاء المسيرة بالهراوات الغليظة ، فأسرع أحد رفاقنا الى هتلر ، وجذبه بقوة الى الأرض ليحميه من طلقات الرصاص ، بينما أصيب جورنج أصابات بالغة ، أما الجنرال لودندورف . . فقد كانت رتبته العسكرية ، وسنه ، بمثابة الدرع الذى وقاه شر الضرب . .

بل لقد خرج لودندورف من المسيرة كالشعرة من العجينة ، بينما أصيب هتلر فى كتفه ، ونقله أحد اصدقائه الى بيته ، الى أن تم اعتقاله بعدها بيومين . . أما أيرنست هانفسيتجل وروم ، فقد استسلما .

. . . .

فى ذلك الوقت كنت أقطع الطريق الجبلى ومعى الرهائن وأحاول فى كل لحظة أن اتسمع أخبار الانقلاب ، إلى أن جاء الخبر المفزع .

— لقد فشل الانقلاب !

المشكلة الآن لم تعد علمى أنا بالنبأ . . وإنما المشكلة أن الرهائن علموا أيضا بهذا التطور الخطير . . وبدأت أكتشف أن أفراد حرسى المسلح يهربون الواحد تلو الآخر . . للنجاة بجلدهم . . أما السائق لقد كان حريصا غاية الحرص على اعادة الوزراء الموجودين معنا الى ميونيخ . . كانت مشكلته أن يصحح خطاه بأسرع وقت ممكن . . أما أنا فقد قررت اختراق الجبال وعبور الحدود إلى النمسا ، نفس الشىء حدث لجورنج . . فقد هربت به زوجته أيضا الى الحدود . .

لم أحاكم مع هتلر . .

لقد حوكم هتلر ولودندورف وروم وسبعة رفاق آخرين فى ٢٦ فبراير سنة ١٩٢٤ . . أما أنا وجورنج فقد كنا بالطبع خارج ألمانيا . . فى منفانا الاختيارى .

كانت محاكمة هتلر ورفاقه سرية . . تجرى وراء جدران سميكة من التكتم ، لعدم المساس بهيبة فون كار ، ولوسو . .



انتهت محاكمة هتلر ورفاقه بتهمة الخيانة العظمى . . وكان رئيس المحكمة جو فارنز جورتنار . . الذى أصبح فيما بعد وزيرا للعدل فى حكومة هتلر ! وفى أول أبريل سنة ١٩٢٤ صدرت الأحكام لودندورف . . براءة !

هتلر . . خمس سنوات سجن . . ويخفف فى حالة حسن السير والسلوك . .

كنت فى منفاى أتابع رد الفعل العالمى على أحداث ميونيخ . . كان العالم يرى أن خطورة حركتنا تكمن فى أنها ليست مجرد دعوة لحل المشاكل الداخلية . . بقدر ما هى رفض لاستمرار احتلال الفرنسيين لأرضنا التى استولوا عليها بناء على اتفاقية فرساى المهينة .

مثـــلا

قالت صحيفة النيويورك ايفننج ستار الأمريكية فى عددها الصارد فى نوفمبر ١٩٢٣ .

« أن انتصار هذا الحزب يهدد السلام الأوروبى . . لأن مطالبه ليست منحصرة فى الشئون الداخلية . . إذ أن برنامج هتلر لودندورف يمتد الى أبعد من المشاكل اللألمانية ، ويعتبر اتفاق السلام فى فرساى باطلا . . ويدعو لشن حرب مقدسة ضد فرنسا . وعندما تحاول ألمانيا تحقيق هذا الهدف . . فأنها لن تشن الحرب فقط ضد فرنسا . وإنما ستشنها أيضا على الحدود البولندية والتشيكية .

من منفاى الاختيارى فى النمسا . . علمت بالأحكام فقررت العودة ، لأكون فى المكان المناسب . . الى جانب الزعيم .

قدمت نفسى للسلطات الحكومية ، ومعى ٤٠ من الرفاق ، وحوكمت فى نهاية شهر أبريل ، وصدر ضدى حكم مخفف بالسجن ١٨ شهرا .

أصبحت الآن مع زعيمى . . وقدرى فى سجن واحد فى (لاندرزبرج) .

غرفة هتلر فى الدور الأول ، متسعة ، تنم عن أهمية السجين ، ومكانته . .

وقد أتاحت لى فترة السجن ، التحدث الى هتلر باستفاضة . . حدثته عن العلامة « هاوسهوفر »، وعن نظرياته السياسية فى الفلك . . والتاريخ وقراءة المستقبل ، والايمان بالغيبيات . . لدرجة أن هتلر أبدى رغبة شديدة فى لقائه .

مع هتلر فى السجن

الفصل الثالث

كان الزائر الوحيد الذى يزور هتلر فى السجن هو « هاوسهوفر » بعد أن أبلغ ادارة السجن .. أن هاوسهوفر هو قريبه الوحيد فى هذا العالم ..

فى السجن كنا نجلس نحن الثلاثة نتحدث عن مستقبل المانيا . . كانت أحاديث العلامة هاوسهوفر هى المحاضرات السياسية التى تأثر بها هتلر ، والتى دفعته لوضع الخطوط الأولى لكتابه كفاحى الذى كانت معظم أفكاره فى الحقيقة . . هى أفكار أستاذنا البروفيسور (كارل هاوسهوفر) ولا سيما نظريته حول المجال الحيوى . !

ولهذا الرجل الفيلسوف آراء تستحق بالفعل التأمل . . وقصة لابد أن تروى . .

فى سنة ١٩٠٨ بعثت القيادة العامة لجيش بافاريا بواحد من أصغر ضباط أركان الحرب فى مهمة عسكرية خاصة الى اليابان ، كان هذا الضابط الشاب هو (الرائد) كارل هاوسهوفر الذى عين ملحقا عسكريا بالسفارة الملكية الألمانية فى طوكيو . . وكانت مهمته . . دراسة تدريب وتنظيم الجيش اليابانى .

سافر الرجل بطريق البحر عبر المتوسط والبحر الأحمر الى المحيط الهندى الى أن وصل طوكيو فى أوائل سنة ١٩٠٩ . . لم تكن رحلة هاوسهوفر متعة لشاب فى مثل سنه . . على الرغم من أنه توقف فى قبرص والاسكندرية وعدن والهند وسنغافورة . . فقد كانت أفكاره تسبح فى عالم آخر مختلف تماما . . وأكتشف خلال رحلته أن « ألمانيا لا تعرف البحر » وأن الاساطيل اليابانية والبريطانية والأمريكية هى التى فتحت آفاق المجال الحيوى أمام هذه

الدول . . وأن على ألمانيا أن تتأمل جيدا فكرة الجغرافية السياسية وأن تستوعبها . .

ونظرية الجغرافية السياسية كما شرحها هاوسهوفر هى العلاقة بين طبيعة الأرض وبين التطورات السياسية . . هى التكنيك السياسى الذى يقوم على معطيات جغرافية . . يدخل فيها التاريخ والجغرافيا وعلم الأجناس والاقتصاد والاجتماع وعلم النفس . بل وربما علوم أخرى تستطيع كلها مجتمعة أن تشكل قوة الدولة إذا تم تحريكها بمهارة كى تتفاعل جميعا فى نسق واحد . . وأن الذى يسيطر على البحر . . يسيطر على العالم .

كان حديث هاوسهوفر حول الأجناس ، ومواقع الدول ، ومجالاتها الحيوية . . وتفوق الجنس الآرى . هو السحر الذى يحرك قلب وعقل هتلر . . كان هتلر يجلس فى غرفته ساعات طويلة بعد زيارة هاوسهوفر . . صامتا لا يتكلم . . وكأنه يستعيد كل كلمة قالها أستاذنا الفيلسوف . . كانت رحلات هاوسهوفر العديدة فى أوروبا وآسيا جعلته يؤمن بتفوق الجنس الأنجلو سكسون وأنه هناك شعب السادة يربط الشعبين البريطانى والألمانى . . بل كان هاوسهوفر من عتاة المتطرفين فى الدعوة للتقارب مع بريطانيا حتى قيام الحرب العالمية الثانية . . وسأحكى لك ذلك عندما يأتى أوانه . .

المهم . .

توطدت العلاقة بين هاوسهوفر وهتلر ، لدرجة أن هتلر كان يستشيره فى كل المشاكل التى كانت تواجهه أثناء تكوين الحزب .

والحقيقة أن هاوسهوفر كان يرى المشاكل الدولية بنظرة أكاديمية وهى البعد الذى لم يكن هتلر يتبينه جيدا . . كما كانت سفريات هاوسهوفر . عالما غريبا على هتلر . . جعلته ينبهر بحديث البروفيسور . .

بعد خروجنا من السجن توطدت علاقتى بعائلة هاوسهوفر . . ولا سيما بإبنة البرخت الذى كان يهوى الموسيقى والشعر . .

كان البرخت يصغرنى بثمانى سنوات ولكنه أصبح فى خلال الثلاثينات من عمره استاذا للجغرافيا السياسية فى برلين . .

عملت بعد خروجى من السجن مساعدا للبروفيسور هاوسهوفر بجامعة ميونيخ ، وتعمقت أفكارى بالعلاقات الدولية وجذورها وعوامل حركتها الى أن عينت سكرتيرا لهتلر . . كان يدفع لى ٣٠ ماركا شهريا . . إلا أننى وقفت فى هذه الفترة على أدق المناورات السياسية التى قام بها الحزب حتى وصلنا الى السلطة سنة ١٩٣٣ .

. . كانت بالفعل أحدى الفترات الساخنة فى حياتى . .

من تنبؤات هتلر التى أذكرها الآن أنه قال لى بعد الأفراج عنا سنة ١٩٢٥ .

— أن الأمر سيحتاج منا الى سبع سنوات . . لكى نصل الى السلطة . .

الغريب فى هذه الفترة أننى لم أخاطب هتلر على الاطلاق بصيغة « أنت » وإنما كنت أحدثه دائما بصيغة « سيادتكم » *Sie* كنت أصغر من الزعيم بسبع سنوات . . أما بقية الرفاق فكانوا يخاطبونه بالأسم المجرد . . أو بكلمة « أنت » . . على أية حال كنت أقربهم إليه . . ليس ذلك القرب بحكم الوجود الحسى . . وإنما كنت من أقربهم بالفعل الى قلبه . . وكنت أكثرهم فهما له . .

عندما كان يعد أحدى خطبه . . كان يسند الى الجزء الأكبر منها . . كان يقف أمام المرآة ويقرأها بصوت مرتفع . . ويتأمل ملامحه وهو يتكلم . . بل يتأمل حركة يديه وجسمه . .

لقاءات هتلر الهامة ، وضيوفه . . كان على أولا أن التقى بهم وأكتب تقريرا عنهم قبل أن يجتمع هو بهم .

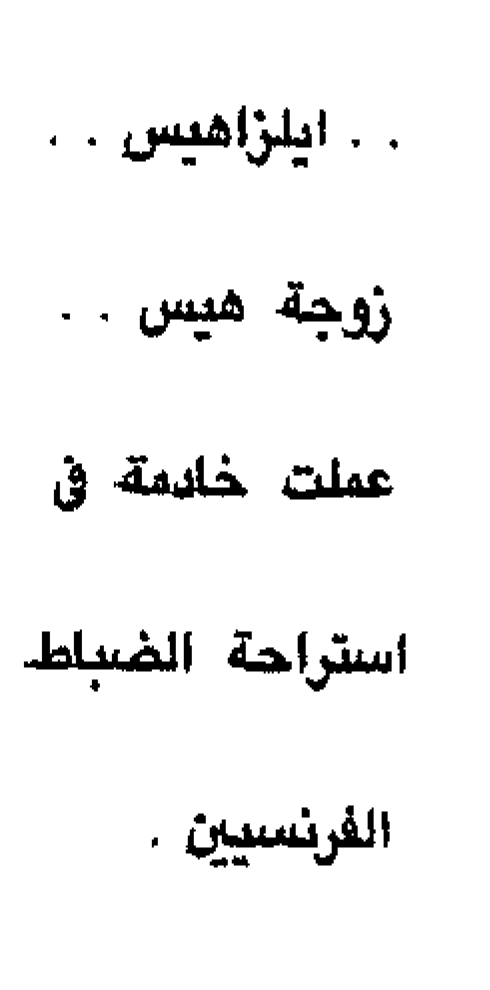
كنت بحكم موقعى الى جانب القائد مسئولا ليس فقط عن مراقبة خصوم الحزب . . بل وأعضائه أيضا . .

ووسط هذه الدوامة ، وعلى وجه التحديد سنة ١٩٢٧ . . تزوجت ايلزا برول : . الفتاة الجميلة . . التى أنتظرتنى بالسيارة المرسيدس على باب السجن فى لاندزبرج وكان شاهدا عقد الزواج هما "هتلر وهاوسهوفر .

أننى أتذكر تلك الأيام تماما . . وكان كل شىء قد عاد . .

ريح الربيع . . ورائحة البرعم . . شوارع ميونيخ بعطرها وجمالها . . الشوق الفائض ، والخوف المعذب ، خليط غريب من المشاعر .





. . ايلزاهيس . .

زوجة هيس . .

عملت خادمة فى

استراحة الضباط

الفرنسيين .

كنت شابا فى السادسة والعشرين . . رأسى مملوء بالتاريخ ، والفلك والسياسة ، وفكرى مشحون بالبحث لتحرير أرض الأجداد . خيالى غنى بأحلام الفنانين . . ووسط هذه الرومانسية تعرفت بايلزا برول فى ربيع سنة ١٩٢٠ .

كانت قد جاءت الى ميونيخ تؤدى امتحان الثانوية العامة (الأبيتور) ولكنها فى نفس الوقت كانت عضوا بالحزب النازى كانت من أوائل الأعضاء من الجنس اللطيف اللاتى انضممن الينا ، ونحن ما نزال فى مرحلة التكوين .

وايلزا برول . . أبنة واحد من رجال الصناعة الأثرياء فى برلين . تهوى السياسة ، وعلى وعى كبير بالتاريخ .

وتقول ايلزا فى مذكراتها ، حول أول لقاء لها مع هيس :

« كنا ننزل سويا فى فيلا كبيرة للحزب فى (شفابيش) كنا لا نعرف بعضنا إلا كما يعرف الجيران بعضهم . . بالشكل فقط . كان يرتدى اليونيفورم الرمادى وعلى ذراعيه شارة « الفصائل الحرة » ذات اللون البرتقالى ، وعليها وجه أسد . . إلا أنه كان يختلف كثيرا عن أولئك الشبان الذين يعيشون فى الفيلا . . كان أكثرهم أتزانا ونضجا .

وفى فصل آخر تقول ايلزا :

كان يرى فى عالم نوادى الرقص ، والمتعة ، ودور السينما والبارات ، شيئا حقيرا ممنوعا ، وغير محترم . . لا يدخن . . يمقت الخمر . لا يطيق أولئك الشبان الذين يرقصون ويمرحون ، وكأن ألمانيا لم تخسر الحرب العالمية الأولى ، وكأن اتفاقية فرساى لم تمزق أرض الأجداد .

كان هيس يرى أن شباب ألمانيا يجب أن يكرس كل همه لتحرير الأرض واستعادة الأراضى التى تنازلت عنها ألمانيا بموجب اتفاقية فرساى .

وتقول ايلزا :

لا أنسى أبدا أول مقابلة لى معه . . كان يصعد أعلى الدرج وينتحى قليلا ليفسح أمامى الطريق ، دون أن يكلف نفسه حتى مجرد القاء نظرة على . . دهمته فى نعل حذائه بقدمى . . ولكنه لم يبد أى اهتمام . . اللهم إلا تلك النظرة الحانية التى انطلقت من تحت حواجبه الكثيفة ، وعينيه الغائرتين .

وفى فصل آخر كتبت ايلزا :

حضرت معه يوما اجتماعا شعبيا . . كان يتحدث فيه هتلر . وكان يحضره أيضا البروفيسور هاوسهوفر . . كانت تلك هى المرة الأولى ، التى كدت أبكى وهتلر يتكلم . . كان حديثه أشبه بالميلوديات الخالدة . . يربط بين ما هو قديم وما هو جديد . . والناس تهتصرهم الاحاسيس الجياشة . . وكان المتعة والألم والخوف والبهجة ممزوجة بأعجوبة . . مرة تصعد بنا كلمات هتلر إلى السماء وتارة تهبط بنا إلى الجحيم . . وغالبا إلى كلتيهما معا . . وهكذا الزعيم عندما يتكلم .

اذكر ذلك اليوم جيدا عندما قدمنى هيس الى هتلر لأول مرة . . ومن يومها أصبحنا عائلة واحدة ، الى أن أصدر قراره بطردى من بيتى .

. . . . . .

نعود الى أوراق هيس :

قبل أن يعقد هيس قرانه بايلزا برول سنة ١٩٢٧ . . أرسل خطابا الى والديه فى ٢٠ نوفمبر أى قبل عقد القران بشهر واحد .

الخطاب موجود ضمن سجلات الحرب فى مدينة كوبلينز . التى تبعد عن

بون بنحو ٥٠ كيلو مترا . . على نهر الراين . . وفيه الكثير من روح السخرية التى يتمتع بها رودلف هيس ، والتى سنلحظها فى سطور هذه المذكرات . .

يقول هيس :

والدى العزيزين . .

أكتب اليكم عن زفاف وشهر عسل وزواج ، وربما ترون فى ذلك مسألة مفروغا منها فلكل انسان قدرة عندما يحتاج يوما الى رفيق . نعم . . لقد وجدتها تلك التى تسلقت معى الجبال وتزحلقنا على الجليد سويا . . كم تدفقت الريح المداعبة بالشعر المسدل قرب وجناتها الحمر ، وكم هو جميل ، وحالم لعب الريح بشعرها الذهبى الناعم . . صديقة الأيام الحلوة . . والأيام المرة . . الزائرة الدائمة لى فى السجن . . التى تفكر بنفس طريقتى ، وتنتابها نفس مشاعرى . . أننى سأدعوها للأبحار معى فى بحر الحب الى ميناء الزواج !

« للأسف لا أستطيع أن أقدم لكم وصفا تفصيليا لها ، لأنكم قبل أى شىء لا تعرفونها . . صحيح أننى لا أستطيع ، كابن بار طيب ، أن أؤكد لكم إنها ملاك . . ثم ماذا لا تكون ملاكا . . أننى مقتنع تماما بأننى أصطدت من سلة مليئة بالثعابين . . ولقد اخترت هذه الحية الرقطاء . .

أعرف يا أبى رأيك فى سن الزواج المناسب ، ولذلك فأننى واثق أنك ستكون سعيدا عندما تعرف أن « الحية الرقطاء » تصغرنى بسبع سنوات علاوة على أننا . . الحية الرقطاء وأنا . لا نتوقع جنة على الأرض على الاطلاق وإلى الأبد . .

قد ترون أننى متعجل فى تفاؤلى . . ولكن كل منا ، الحية الرقطاء وأنا يعرف الطرف الآخر جيدا . . بل فخور به أيضا .

● رودلف

وفى وثائق الحرب أيضا رد الأم على هذه الرسالة ، تقول فيها :

ولدى رودلف

أننا نتذكر جيدا . يوم بدأت الحرب ، وكتبت لنا نشاركك السعادة ، لأنهم وافقوا على قبولك للاشتراك فى الحرب . . قلت لنا يومها « شاركونى بهجتى ، لقد التحقت بفرقة المشاه » . . أننا نتذكر هذا اليوم جيدا . .

ونصارحك الآن بأننا فى الحقيقة لم نكن سعداء بذلك . . ولكننا فقط لم نشأ أن نعكنن عليك ، ونفسد عليك الأحساس بالسعادة . . أما فى هذه المرة . . فأننا نبارك خطوتك ، ونسعد لزواجك . . واستقرارك ، ولختيارك . . من صميم قلوبنا . .

كـلارا

كانت ايلزا هى زائرتى الوحيدة فى السجن ، لم نكن قد ارتبطنا بعقد الزواج بعد ، ولكنها كانت تزورنى بانتظام . . تمضى وقت الزيارة تتحرك وحدها فى حديقة السجن ، وسط أشجار الصنوبر . . وكأنها تتنزه . .

كان حب ايلزا لى تضحية كاملة . . من أول يوم الى آخر يوم . . هى أبنة واحد من أكبر الأثرياء . . وأنا فقير معدم . .

وقفت الى جانبى وأنا أصعد سلم المسئولية . . وعاشت سنوات القلق والعذاب الرهيبة . . هذا قدرها . . نعم . . ولكل انسان قدره !

. . . .

خرجت من السجن . لأجد سيارة مرسيدس سوداء فى انتظارى . . كانت بالطبع مفاجأة لى . . كانت ايلزا قد جاءت تصحبنى من السجن الى البيت . .

. . . .

تزوجنا . . وشهد عقد القران أستاذى البروفيسور هاوسهوفر وهتلر . .

وأذكر يومها أن طبعت على جبينها قبلة . . وقلت لها :

ــ سيوم يجب أن تقلعى عن السياسة . . أن تهجرى نشاط الحزب . وقد كان

كانت ايلزا طاهية ماهرة . . وبقيت سنوات حياتى معها لا أكل إلا ما تصنعه هى بيديها . . ودعنى أحكى لك قصة طريفة :

كنت مدعوا على العشاء فى بيت هتلر . . الرفاق كلهم هناك روم . . يونيوس شترايشه . كريستيان فيبر . . وبالطبع ايفا براون صديقة هتلر . . وعند تقديم الطعام . . لاحظ هتلر أنهم يقدمون لى طعامى الذى أحضرته معى . . فانزعج كثيرا وبدت على ملامحه مظاهر الاستياء . . وتلك مشاعر كنت ، وحدى ، أعرفها جيدا . . بحكم عملى القريب منه . . كنت أفهم ماذا تعنى كل خلجة فى وجهه . . أو جبهته .

فوجئت بالزعيم ، بعد انتهاء الطعام يقترب منى :

— هيس . . أن لدى هنا أمهر الطهاه . . ويمكنك تكليفهم بنوع الأكل الذى تتناوله لكى يعدوه لك . . ولا داعى لاحضار طعامك معك مرة أخرى ! !

. . . .

والحقيقة أن الانسان مهما أقترب من هتلر . . فهناك دائما حائط شفاف . . لا يمكن أن يتعداه هذا الاقتراب . . وربما تلك واحدة من الأسرار فى شخصية هتلر .

بعد خروجنا من السجن فى لاندزبرج ، أصبحت ظل هتلر !

كان باقى الزملاء يتولون مهام اعلامية وسياسية فى ربوع المانيا . . أما أنا ، لأنى سكرتيره ، فكنت أقربهم اليه .

كنت همزة الوصل بينه وبين عدد كبير من المثقفين قدمتهم اليه ، عرفته بهم . وأدخلتهم دائرته . .

كنت سفيرا له لدى طبقة الأثرياء التى لم يكن يثق بها . . كان يفضل الاتصال بهذه الطبقة المتطرفة بطريق غير مباشر . . كان لا يحب الاقتراب من الطبقة الارستقراطية . فكان يستعين بى ، وأحيانا بجورنج ، لأننا على حد قوله . . نجيد التعامل مع هؤلاء الـ . .

كنت أتصل برجال الصناعة لتمويل النشاط الحزبى ، وأنا الذى اتصلت برجل الاعمال فريتز تايسين ، نيابة عن هتلر لانقاذ الحزب من الأفلاس المالى .

وفى هذه الفترة واجه الحزب النازى كارثة . . كانت تتمثل فى الخلاف مع اتوشتراسة وأخيه جريجور .

كان الأخوان اشتراسه يمثلان الجناح اليسارى المتطرف داخل الحزب النازى ، وكانا يلحان فى تأميم الصناعة ، بينما كان هتلر يرفض فكرة التأميم . . أو على الأقل فى تلك الظروف . . وفى ذلك الوقت .

ولقد أدت هذه الخلافات الى تصدع مؤقت فى بنيان الحزب والى انفصالهما عنه ، أو بمعنى أدق طردهما منه ، وكونا بعد ذلك حزبا خاصا اسمياه « الجبهة السوداء » انتهت الى لا شىء . . فمن المضحك حقا أن بعض الناس يحاولون السباحة قبل أن يستطيعوا ذلك . . ربما لأنهم خلقوا للأرض وليس

للماء ، أو هم لا يريدون أن يفكروا . . لأنهم خلقوا للحياة وليس للتفكير . . ولذلك فقد غرق الأخوان اشتراسة لسبب بسيط . . أنهما استبدلا الأرض . . بالماء .

كان هتلر يتميز بحاسة سادسة قوية ، تمكنه من الرؤية البعيدة والعميقة . . كان من النوع النادر . . والعبقرية ندرة . . لأننا عندما نتحدث عن العباقرة فأننا لا نتحدث عن البشر الذين يسيرون فى الطرقات بالملايين ، والذين يمكننا أن نعتبرهم مثل رمل البحر . . أو زبد الأمواج ، التى إذا زادت أو نقصت بضعة ملايين . . فلا أثر فى ذلك . . أنها ليست نادرة .

اثناء عملى كسكرتير لهتلر عرفته بعدد من المثقفين ، وأدخلتهم دائرته . . تماما كما ادخلت البروفيسور هاوسهوفر الى دائرة الزعيم . . منهم مثلا الصحفي أونوديتريش الذى أصبح المسئول عن الصحافة أثناء الرايخ الثالث من ١٩٣٣ ـ ١٩٤٥ ، وكان مكتبه مفصلا عن وزارة الاعلام التى كان يرأسها جوبيلز .

كانت هناك خاصية فى شخصية هتلر . . ربما لا يعرفها الكثير . . وهى العاطفة التى تربطه بزملاء النضال القدامى ، والذين خاضوا معه معاركه السياسية منذ البداية . . كان يرى فى ولاء هؤلاء الزملاء طول هذه السنوات شيئا يستحق التقدير . .

ومن هذه الزاوية أعتقد أن هتلر أراد سنة ١٩٣٢ مدفوعا بالرغبة فى مكافأتى عن العمل معه سنوات طويلة وراء الستار . . لتعيينى المسئول عن اللجنة المركزية للحزب ، التى تتولى الاشراف على سياسة الحزب فى جميع أرجاء المانيا . . وأصبحت فى الحقيقة بعد ١٥ ديسمبر ١٩٣٢ وهو يوم صدور القرار . . أصبحت المشرف الحقيقى على النشاط السياسى للحزب ، مع تكليف خاص بسحق تيارات المعارضة التى كان يمثلها جريجور اشتراسة وأخوه أوتو . .

ولذلك فأننى أعتبر هذه الفترة ، وخروجى من الظل هى الفترة التى أنهت دورى كظل لهتلر وأصبحت واحدا من أبرز قيادات الحزب اتصرف بأسمى . . وليس باسم هتلر . .

بعد انتخابات مارس ١٩٣٣ أصبحت عضوا فى البرلمان ، وفى ٢١ ابريل

سنة ١٩٣٣ . . أى بعد أيام من احتفالى بعيد ميلادى التاسع والثلاثين عينت نائبا للزعيم مسئولا عن كل ما يتعلق بالحزب . . كنت أنوب عنه بكامل الصلاحيات فى ترشيح قيادات الحزب للمناصب الحكومية ، وتوجيه نشاط الحزب وفق الخط السياسى الذى يقرره هتلر . . كنت أعبر فى الحقيقة عن ضمير الحزب . .

وفى هذه الأيام تطورت الأمور حتى أنه فى سنة ١٩٣٣ أصبحت الحكومة والحزب شيئا واحدا تقريبا . .

كانت منظمات الحزب كلها تحت قيادتى . . بل جعلت الحزب يمارس سلطته السياسية الخارجية والتطور التكنولوجى والتعليم والسياسة المتعلقة بعدم تلوث الجنس الآرى . . وكانت خطته فى ذلك تتلخص فى تشكيل لجان حزبية فى كل أقليم تتناول هذه الأمور .

وجاء أول ديسمبر ١٩٣٣ لأعين وزيرا فى حكومة هتلر ولكن لتنفيذ مهام خاصة . . هى :

أولا : التنسيق بين الحزب وقوات العاصفة من ناحية . .

ثانيا : التنسيق بين الحزب وقوات العاصفة والسلطات العامة من ناحية أخرى . .

كنت مهتما بالطبع بتوثيق الروابط مع الألمان . . وبالذات فى مناطق الاحتلال . .

واستعنت باستاذى هاوسبهوفر ، وكلفته بمعاودة الاتصال بالأقليات الألمانية بالخارج ، فأنشأنا إتحادا خاصا برئاسة البروفيسور هاوسهوفر ، ضممنا اليه معهد الألمان فى الخارج الموجود منذ سنة ١٩١٧ فى شتوتجارت . . وهذا المعهد كان يهتم أساسا بالأبحاث العلمية المتعلقة بالهجرة .

كان اتحاد الألمان بالخارج ، يجرى الاتصال بالألمان ، باعتبارهم سادة هذه المناطق ، وأصحابها ، وكان يعمل سرا لعدم اثارة الحساسيات مع وزارة الخارجية .

كان هتلر فى الحقيقة لا يميل الى العمل المكتبى الروتينى . . وتوقيع الأوراق . . مما جعله يسند كل هذه الأمور الى « مارتين بورمان » سكرتيره الخاص . . الذى كان يصغرنى سنا بعدة سنوات .

كان بورمان يوقع بعض هذه القوانين ، وحده أو بالاشتراك معى ، وكانت هذه القوانين تمر بالبرلمان ، بلا أية معارضة . . فأصدرنا قانونا بأنشاء جهاز يشرف على نشاط الطلبة بالجامعات سنة ١٩٣٤ ، وقانون الخدمة العسكرية الاجبارية سنة ١٩٣٥ ، وأنشأنا أدارة داخل الحزب لحماية الجنس الآرى من التلوث ، وكان هذا القانون يقضى بمنع الزواج باليهود . . وفى سنة ١٩٣٦ أصدرنا عدة قوانين لتقليم أظافر الكنيسة .

بدأنا فى هذه الفترة نرقب الاتصالات التى يقوم بها اليهود تحت الأرض لضرب الحزب .

كان عدد كبير منهم يرتدى ثياب الدفاع عن الحزب لضربنا من الداخل .

كانت تصريحات هتلر حول الجنس الآرى ، تدفع اليهود لمزيد من الكيد للحزب ، واعداد أنفسهم لضربة مفاجئة فى الانتخابات . فأصدرنا قانونا بمنع اليهود من التصويت فى الانتخابات .

بدأ اليهود ، وكان عدد كبير منهم يعمل كأساتذة بالجامعات ، وبالوظائف العامة . . ينشطون لبث الأفكار ضد الحزب . . فأصدرنا قانونا لاحقا بمنعهم من تولى الوظائف العامة . . ثم قانون بسحب تراخيص ممارسة مهنة الطب من اليهود والسماح لهم بمعالجة اليهود فقط . .

وفى ١٢ نوفمبر ١٩٣٨ أصدرنا قانونا بمنع اليهود من السيطرة على الحياة الاقتصادية . . ومنعهم من التظلم أمام المحاكم ضد القوانين التى أصدرتها الحكومة . .

كان اليهود فى ألمانيا أشبه بالمرض الكامن داخل الجسم ، كانت لهم أساليبهم التى تستطيع تشويه وجه الحقيقة تماما . . وكنا نفكر فى إيجاد وطن قومى لهم فى جزيرة مدغشقر ، خصوصا بعد الاتصالات التى أجراها هتلر مع الحاج أمين الحسينى . . ثم زيارة ايخمان لأمين الحسينى فى القدس . .

* * *

استمر نجم هتلر فى الصعود بسرعة .

كانت تلك الحقيقة أحد تنبؤات البروفيسور هاو سهوفر . . وأروى لك هنا قصة طريفة . .

فى سنة ١٩٢١ وكنت يومها مجرد طالب فى قاعة محاضرات البروفيسور هاو سهوفر بجامعة ميونيخ . . أذكر أنه شرح المشاكل التى تواجهها ألمانيا . . وتساءل كيف يمكننا استعادة أمجادنا . . وقال أن ألمانيا مهيأة لأن تقود العالم . . ولكنها تفتقر الى زعامة قوية قادرة على تحريك الظروف الألمانية فى الاتجاه الصحيح ! !

كان هاو سهوفر يؤمن بالفلك . . ويؤمن بأن موقع الدول ومساحتها ومناخها تلعب دورا أساسيا فى تشكيل قوتها السياسية . . وكان يرى أن ألمانيا يجب أن تخرج الى البحار وأن تحكم المنطقة الواقعة من الاطلنطى الى الاورال ، ويعتقد أن من حق المانيا أن تخرج الى هذا المجال الحيوى . . وأنا ألمانيا وهى تخرج الى هذا المجال لا يجب أن تحارب انجلترا . . مهما كانت الأسباب . . وكان يردد دائما أن الجنسين الانجلو سكسونى والآرى يعودان الى أصل واحد . . وكان يروى أنه سيسافر الى الهند ، والتقى باللورد كتشنر ، وزار الهيمالايا ، واليابان ، وفرنسا ، وعديدا من دول أوربا . . وفى كل مرة كانت تتأكد نظرته لأهمية تحاشى الحرب مع بريطانيا . . أو الصدام مع هذا الشعب الذى تربطه بالشعب الألمانى العديد من الأواصر . .

المهم . .

أنه بعد هذه المحاضرة بأيام دعوته لحضور اجتماع شعبى يتحدث فيه هتلر . . ولم يكن قد تعارفا بعد . .

وبعد خطاب هتلر . . وجدت استاذى وكأنه يحلم . . كان صامتا . . متأملا . . على غير عادته . . ثم قال لى وهو يضغط على يدى . .

— هذا هو الرجل الذى تنتظره ألمانيا ! !

بدأنا نستعد للحرب ، لتصحيح نتائج مؤتمر فرساى ، الذى عقد بعد الحرب العالمية الأولى ، واستأصل بعض الأقاليم الألمانية بلا أى حق . . بدأنا نأخذ الخطوات العملية لاستعادة أرض الأجداد . .

تم تشكيل مجلس حرب محدود . . وفى أكتوبر سنة ١٩٣٨ انطلقت القوات الالمانية تحتل أقليم السوديت على الحدود التشيكية بعد أن تم ضم النمسا الى المانيا .

والقى هتلر خطابا فى ٤ أكتوبر حيا فيه أبناء أقليم السوديت وأبلغهم أنهم الآن مواطنون المان تابعون للرايخ الألمانى !

* * *

فى خريف سنة ١٩٣٨ . . عاد البروفيسور هاو سهوفر من روما ، بعد أن اشترك فى مؤتمر اكاديمى للسياسة الدولية . . ليجد طلبا لمقابلة عاجلة مع رودلف هيس . . وأنه مطلوب حضوره فورا للاجتماع وحده مع هتلر . . لا ثالث لهما .

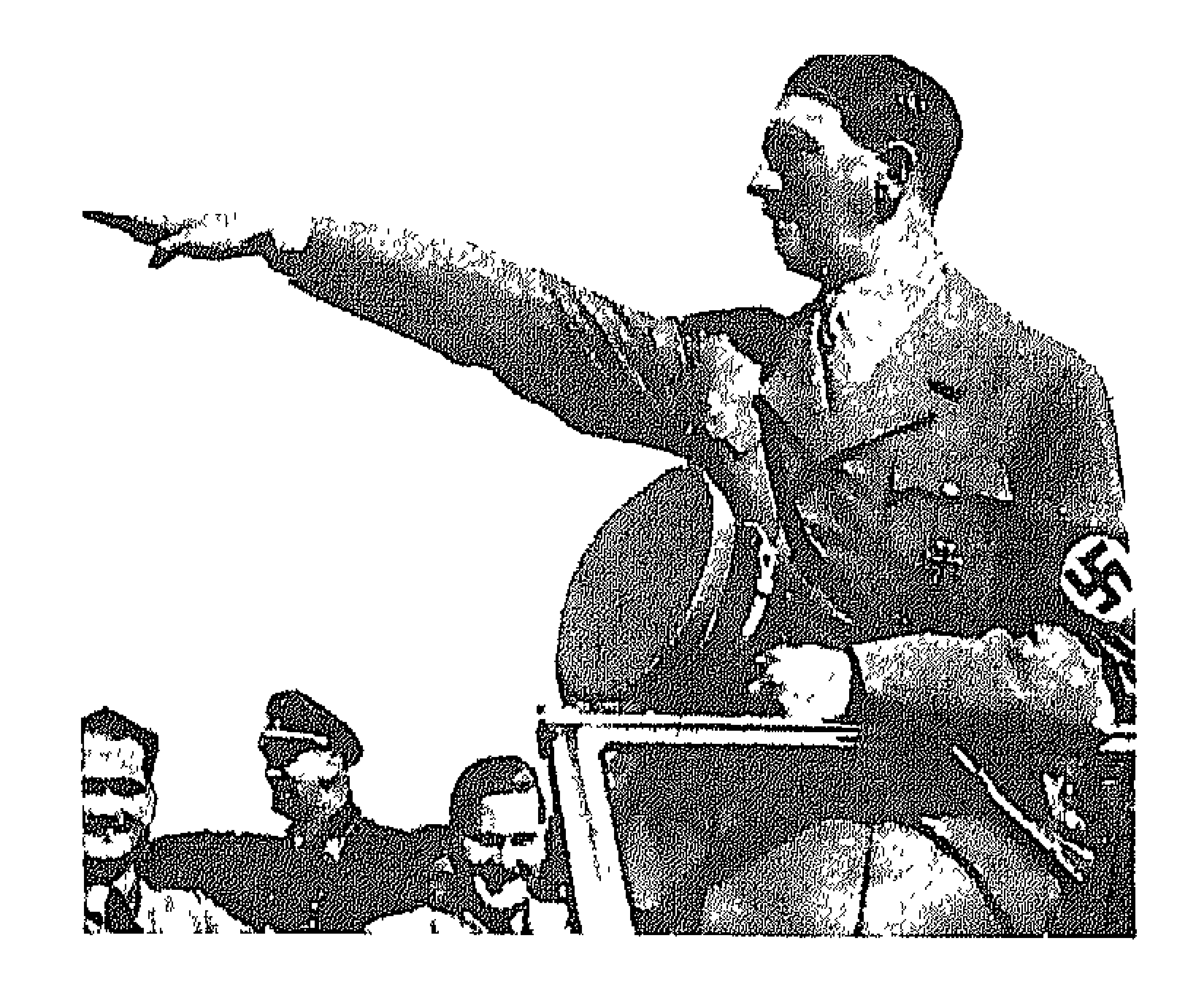
كان المؤتمر الأكاديمى الذى اشترك فيه هاو سهوفر يتناول الوضع فى أفريقيا . . وقد انتهز البروفيسور الفرصة ليبحث مع زملائه البريطانيين والفرنسيين ، الذين اشتركوا فى المؤتمر أمكانية حصول المانيا على نوع من الانتداب على بعض المستعمرات الأفريقية ، وبالذات فى الكاميرون . . فوجد تفهما لدى الانجليز والفرنسيين . . ووجد بالتالى فرصة اجتماعه مع هتلر ، على انفراد فرصة سانحة لأبلاغه بنتائج المؤتمر .

تم اللقاء بين هاو سهوفر وهتلر بمنزلى فى ميونيخ . . وكان الحديث كله عن بريطانيا .

كان رأى هاو سهوفر أن توافق المانيا على توقيع اتفاقية ميونيخ وأن يقوم هتلر بزيارة دورية لتشمبرلين رئيس وزراء بريطانيا ، لتنقية الجو وكان يرى أن الساسة البريطانيين مهذبون ، وسوف يعتبرون هذه الزيارة بادرة طيبة . . ويحققون كل ما يطلبه هتلر !

ولم ينس هاو سهوفر أن يحذر هتلر من القيام بأى خطوات ضد الشرق . . دون الحصول مسبقا على النور الأخضر من الغرب . . وبالذات عدم الاستيلاء على بولندا إلا بموافقة الغرب .

عندما وصل الحديث الى هذا الحد بدأ الاستياء الشديد ، يأخذ طريقه الى كل خلجة فى وجه هتلر . . ونهض واقفا دون أن ينطق بكلمة واحدة . . وغادر المنزل دون أن يلقى كلمة توديع أو تحية للبروفسيور هاو سهوفر الذى جلس



بضع دقائق فى انتظار عودة الزعيم لمواصلة الحديث . . إلا أنه لم يعد . .
وكان ذلك آخر لقاء بين هاو سهوفر وهتلر ! !

* * *

على الرغم من هذه النتيجة غير المشجعة للاجتماع إلا أن البروفيسور هاو سهوفر كان يؤمن ايمان العقيدة . . أن هتلر على خطأ ، وأنه هو على صواب وأنه من الخطورة شن الحرب على جبهتين فى وقت واحد .

كلن هتلر يسعى لضرب روسيا ، وبريطانيا . . بينما كان أستاذنا هاو سهوفر وجورنج وأنا نحذره من الخطر المميت الذى سينجم عن فتح جبهتين للقتال فى وقت واحد . . وهو الخطر الذى سجله هتلر نفسه فى كتابه « كفاحى » . . الذى وضع نواته الأولى فى السجن . . وكانت معظم أفكاره لأستاذنا هاو سهوفر .

كان هتلر يردد دائما فى هذه الفترة أن تلك ليست حربا فى جبهتين . . لأن الحائط الاطلنطى يحمى ظهرى . . بينما أشن هجومى على روسيا .

لم يكن اقناع هتلر سهلا . . كلنا كنا نعرف عنه ذلك . . كان عنيدا فوق ما تتصور !

ولكنى أسجل اليوم سرا هاما من أسرار الحرب . .

أن هتلر كان على استعداد للتفاهم مع بريطانيا حول السلام إذا أمكن . . لأن ذلك سيطلق يده تماما على الجبهة الشرقية . . أعنى لم يكن لدى من حيث المبدأ أى اعتراض على عقد صلح مع بريطانيا . .

* * *

اشتعلت الحرب . .

واستولى الجيش الألمانى على فرنسا وبلجيكا وهولندا . . وفى يونيو ١٩٤٠ جاء موسولينى الى ميونيخ ومعه زوج ابنته جراف كيانو الذى هو فى نفس الوقت وزير خارجيته ، وسأل هتلر سؤالا مباشرا . .

أن انجلترا قد تشن الحرب على ايطاليا من مستعمراتها فى شمال أفريقيا . . فهل أنتم مستعدون للسلام . . أم ستستمرون فى الحرب ؟ !

بلا وعى رد « ريبنتروب » وزير خارجية هتلر بكلمة واحدة « السلام » !

قال موسولينى : أن بريطانيا سترحب بهذه الخطوة ، وأنه سيجرى معها اتصالا سريا فى السويد للحصول على موافقة تشرشل . . ثم يبلغ الحكومة فى برلين بنتائج اتصاله . .

لاذ هتلر بالصمت . . لم يتكلم . . فى انتظار رد فعل تشرشل إلا أن المفاجأة جاءت فى ١٨ يونيو ١٩٤٠ بما لم يكن فى الحسبان .

لقد ألقى تشرشل خطابا فى مجلس العموم . . خيب كل الآمال قال : أن على الحكومة البريطانية أن تواصل الحرب ، مهما كانت الظروف . . لأنه حتى إذا بقيت الامبراطورية البريطانية ومستعمراتها آلاف السنسن . . فسيظل الناس يرددون لقد كانت أمامنا فرصة العمر .

* * *

عقدنا أجتماعا لمجلس الحرب فى ميونيخ ، لنبحث الرد المناسب على عنجهية تشرشل ، وكسر شوكة غروره . . وقررنا أصدار التعليمات لقاذفة من الأسطول الفرنسى ، بضرب سفينة حربية كبيرة كانت ترابط فى ميناء « وهران » بالشمال الأفريقى .

وبالفعل نفذت العملية بنجاح فى ٣ يوليو ١٩٤٠ ، وتم اغراق هذه القطعة الهامة من قطع الأسطول البريطانى . . وانتظرنا ١٢ يوما لعل أشارة السلام تأتينا من لندن . . ولكن تشرشل لم يتحرك وكان علينا إذن أن نلتقط الكرة . . ونتحرك من جديد . .

ألقى هتلر خطابا أمام البوندستاج (البرلمان) يعرض السلام على تشرشل . .

قال . . ينبغى على المستر تشرشل ، أن يصدقنى تماما عندما أتنبأ بأن امبراطورية عظيمة سوف تتحطم . . امبراطورية لها وزنها فى العالم لم يكن

فى نيتى على الاطلاق أن أدمرها ، أو ألحق بها الضرر . . بل أرى من واجبى هنا وأمام ضميرى . . أن أدعو بريطانيا الى السلام . . وأننى فى الموقف الذى يمكننى من الالتزام بوعدى . . فأنا لست منهزما . . ولكنى أنا المنتصر لا أرى أى مبرر للاستمرار فى الحرب . .

* * *

فشلت كل جهود السلام . .

وفى أحد أيام الخريف المنعشة وعلى وجه التحديد يوم ٨ سبتمبر ١٩٤٠ . . وآلة الحرب الجبارة تهدر فى كل مكان . . والعالم كله يئن تحت ويلاتها . . كنت أقطع الطريق وسط الغابة فى باد جود سبرج . . ضمن برنامج رياضتى اليومية . .

كان يسير الى جانبى أستاذى البروفيسور هاو سهوفر . . كنا نتحدث عن الحرب . . والسؤال الذى يشغل بالنا هو . .

هل لا تزال هناك فرصة للسلام بين ألمانيا وبريطانيا ؟ !

كان البروفيسور هاو سهوفر عند موقفه دائما . . وهو وقف الحرب مع بريطانيا بأى شكل . . وكانت تحليلاته السياسية تدور دائما حول هذا المعنى . .

قال الرجل العلامة . . وكأنه يسألنى . .

— ما رأيك فى قيام « وسيط » يعرض الرغبة الجادة للسلام على البريطانيين ؟ ! أن أستمرار الحرب بهذا الشكل يعنى فناء الجنس الأبيض . . وفى نفس الوقت لم يعرض هتلر السلام على الانجليز بالشكل الذى يمكنهم قبوله . . ثم ما هو الضمان الذى يطمئن الانجليز الى أن اتفاقهم معكم لن يتحول فى لحظة ما الى حبر على ورق . . أن المرء لابد أن يكون واضحا فى هذه الأمور . . ويفكر بمنطق الخصم . .

توقفت وأنا أتأمل وجه أستاذى ، وفى رأسى علامة إستفهام كبيرة . .

— وما العمل . . ما الذى نستطيع عمله من أجل ألمانيا . . ما رأيك أنت ؟ !

وبهدوء الاستاذ قال هاو سهوفر :

— إذا وافقت على المبدأ فاننى على استعداد لأرسال خطاب الى صديقى

اللورد هاميلتون . . أنه على علاقة وثيقة وطيبة بتشرشل . . وأعتقد أن اللورد هاميلتون يستطيع أن يقنع رئيس وزراء بريطانيا بحسن نوايا هتلر . .

كانت بالفعل فكرة رائعة . .

وأرسل هاو سهوف خطابه . . ولكن تشاء الأقدار . كما عرفنا فيما بعد ، أنه لم يصل الى يد اللورد هاميلتون . . إذ وقع فى قبضة المخابرات البريطانية ! !

أنتظرنا طويلا . . ولم يصلنا بالطبع . . أى رد من اللورد هاميلتون ! !

* * *

وفى أحدى المرات ونحن نقطع طريق الغابة ، أبديت للبروفيسور هاو سهوفر دهشتى لعدم رد اللورد هاميلتون على خطابه . . فاذا بى أكتشف أن نفس الحيرة تقلقه . . ثم قال :

— ما رأيك فى تكليف أبنى البرخت فى السفر لمقابلة اللورد هاميلتون . . أن البرخت فى أسبانيا ، وأبلغنى أن ثمة اتفاقا وشيك الوقوع بين بريطانيا وأمريكا . . وأعتقد أن الوقت مناسب الآن لكى يطير البرخت فورا لمقابلة اللورد هاميلتون . .

قلت وأنا أتأمل تجربتنا مع تشرشل .

— هل تعتقد أن تشرشل يمكن أن يثق فى جدية عرضنا للسلام . . أم أنه سيعتبر ذلك أيضا من باب المناورة . . كما تقول . . أننى أعتقد أن بريطانيا لن تقبل الصلح إلا إذا تفاوضت مع شخص تثق تماما أنه يعبر عن رأى هتلر . . وتثق به ثقة عمياء . .

نظر هاو سهوفر الى قمم الأشجار العالية ، وتأبط ذراعى قائلا :

— لك حق . . من الذى ترشحه للقيام بهذه المهمة . . ويتحدث بأسم الدولة الألمانية ؟ !

قلت وأنا أتجه عائدا بسرعة الى سيارتى . .

لنبحث هذا الموضوع إذن . . مع هتلر . . سأذهب اليه الآن فورا

تعليمات لمدير السلاح الجوى :
ممنوع طيران زعماء الحزب النازى
إلا بأمر كتابى من هتلر !

الفصل
الرابع

توجهت الى قلعة (بيرجهوف) حيث يقيم هتلر ! قلعة رهيبة ، لا تبعث على الراحة ، أسوارها عالية ، بها عدة مخابىء ، ومخازن ، جراجات ، ومنازل تحت الأرض ، ليس بها ما يلطف الاحاسيس . . عالم صغير فيه الكثير من الخشونة ، والقليل جدا من النعومة .

وعلى الرغم من أن هتلر يعيش داخل القلعة مع صديقته الجميلة ايفا براون ، الا أنه لم يكن بالقلعة ما يعطى هذا الحب لون السحر الذى نعرفه . . حتى المساحيق والعطور كانت لها داخل القلعة رائحة جلدة كل شىء يعبر عن هذه الجدية من خاتم الاصبع الى علبة السجائر حتى المحفظة . . كل شىء له صرامة هتلر وحدته . . الزهور ليست زهورا والمروحة ليست مروحة . . وكأن أسوار القلعة المهيبة قد عكست خشونتها على كل شىء . .

القلعة فى تلك الأيام كانت كخلية نحل . . لا تهدأ . . عدد من المساعدين يروحون ويجيئون بالخرائط ، ويتلقون التعليمات . . الكلمات داخل القلعة قليلة . . والناس كأنهم يتكلمون بالاختزال ! . وبمجرد وصولى أدخلنى البرت بورمان سكرتير هتلر اليه على الفور .

كان متجهما . . قلقا على غير العادة . . كانت الاسابيع والشهور تمر ، دون أن تأتى كلمة واحدة من لندن . . وكل ساعة تنقضى تحمل معها ألوفا ، بل وعشرات الالوف من الضحايا . . علاوة على أن مستقبل ألمانيا كله . . أصبح على مائدة القمار . .

حرب أعصاب تمزقنا جميعا . .

أسرع أحد مساعدى هتلر بجمع أوراقه ، وانصرف . . بينما اتجهت الى عيون هتلر المرهقة . . وهو يرد تحيتى ويسألنى فى وقت واحد :

ـ مرحبا رودلف . . ماذا بك . . ما الذى حدث ؟ !

قلت على الفور وبنفس لغة الاختزال التى يتكلمون بها داخل القلعة :

ـ أريد أن أتحدث اليك فى موضوع الصلح مع بريطانيا . .

وبنفس لغة الاختزال السريعة قال :

ـ ماذا . . هل هناك جديد ؟

قلت :

ـ اننى أريد أن أسألك : هل ما تزال عند رغبتك فى انهاء الحرب مع بريطانيا ؟ !

قال :

ـ اننى ابحث عن الصلح المشرف لالمانيا . . وعلى أية حال يجب ان يحدث أى تطور مهما كان مع بريطانيا . . لان موعد عملية « برباروسا » يقترب ، ولا شك أن موقفنا سيتحسن اذا ساعدتنا بريطانيا فى الهجوم على روسيا ، أو على الاقل اذا أراحتنا من مواصلة الحرب معها . .

قلت :

ـ لقد تحدثت الآن مع البروفيسور هاوسهوفر ، وأقترح أيفاد مندوب ليتفاوض بأسمك فى لندن لعقد اتفاقية صلح . .

قال :

ـ ومن الذى تقترحه للقيام بهذه المهمة ؟

قلت :

ـ ان البرخت هاوسهوفر موجود الآن فى أسبانيا ونستطيع تكليفه بالسفر الى اسكوتلندة لمقابلة صديقه اللورد هاميلتون . . والتحدث معه بشأن عقد اتفاقية الصلح . .

قال هتلر ، وكأنه يقفل باب الحوار :

ـ اننى اعتقد ان تشرشل لن يثق الا بالحوار مع مسئول يعرف تماما أنه مفوض للحديث باسم الدولة الالمانية . .



. وصل نبأ الطيار الألمانى إلى تشرشل وكبار رجال الدولة العسكريين . .
وكانوا جميعا فى انتظار المقابلة الحاسمة بين الطيار الألمانى وبين اللورد هاميلتون

قلت بسرعة :

ـ أذن أسافر أنا . .

بدأ التجهم يزداد وضوحا على وجه هتلر . . وقطب حاجبيه ثم وقف . . وكان ذلك يعنى لكل من يعرفه أن الحوار قد انتهى . . وأن على المتحدث ان ينصرف . .

* * *

غادرت قلعة بيرجهوف ، وقد تخمرت فى رأسى فكرة السفر الى اسكوتلنده . .

ولكن كيف . . لا أدرى ؟ !

ويشاء القدر أن يستمر فى لعبته . . ويتصادف وجود احد أصدقائى القدامى . . وهو طيار . . فى برلين . . ويأتى لزيارتى فى مكتبى . .

كان ذلك فى يناير ١٩٤١ . . وكنت مشغولا فى اعداد عدة تقارير الى الدرجة التى لم تسنح لى بمقابلته فجلس يدردش مع أحد مساعدى . .

كان مساعدى هذا يعرف العلاقة الوثيقة التى تربطنى بالرفيق الطيار . . فأخذ يتباسط معه فى الحديث . . لدرجة أنه قال له : أننى أنوى الطيران الى بريطانيا . . لانهاء الحرب . .

أصيب صديقى هذا بذعر شديد . . وغادر مكتبى فى برلين الى ميونيخ مباشرة ، لكى يتحدث الى صديق آخر لى . . يعرف مدى إحترامى لكلمته . . لكى يقنعنى بصرف النظر عن هذه المغامرة . . فهو يعرف تأثيره على ، وتقديرى لرأيه . .

كان الصديق الذى جاء صاحبنا يشكو اليه . . هو أستاذى البروفيسور هاوسهوفر !

هدأ البروفيسور هاوسهوفر من روع صديقنا المشترك ، ووعده بالاتصال بى لاثنائى من عزمى . . ولقد كان من العسير على أستاذى العالم الحصول من الصديق على أية تفاصيل عن المصدر الذى استقى منه معلوماته . . خصوصا أننى لم أفاتح بالفعل أحدا فى الموضوع . .

من أين جاء مساعدى بهذه المعلومات . . لا أدرى !

جاءنى بعد ذلك هاوسهوفر فى برلين . . وأبلغنى بواقعة الحديث . . وقال أنه لا يجب التحدث مع أحد على الاطلاق فى هذه المهمة . . أو موعد قيامك بها . . حتى هتلر . . لا تبلغه الا بعد اقلاعك . . وعندما تنجح مهمتك فأنه سيبارك خطواتك بلا شك . .

قلت :

ـ على أية حال سأكتب له . . واذا فشلت رحلتى فأنه يستطيع ان يتبرأ منى ، ويعلن أننى قمت بهذه المهمة بلا تكليف منه . . انقاذا لهيبة ألمانيا . .

قال هاوسهوفر :

ـ اذن على بركة الله . . ومسألة الفشل مستبعدة . . فالانجليز قوم مهذبون . . وسوف يقدرون هذه الخطوة من جانبكم تماما !

* * *

تقارير الحرب تتوالى . . خسائر الانجليز فى الحرب تتضاعف بشكل مثير . .

وكان من الواضح أن هتلر بدأ يثنى ذراع تشرشل بعنف . . ليرغمه على الصلح ، وعدم اضاعة المزيد من الوقت ! !

* * *

فى قصره الضخم باسكوتلنده . . يقيم اللورد هاميلتون . . لا يتخيل بالطبع أن أسمه يتردد فى برلين ، أو أن له علاقة بالوساطة فهو لم يتسلم كما ـ قلت لك ـ خطاب أستاذنا هاوسهوفر . . اذ سقط هذا الخطاب فى يد المخابرات البريطانية . .

وفجأة تأتيه فى قصره اشارة من سلاح الطيران الملكى فى لندن ترجوه الحضور لقيادة سلاح الطيران لمقابلة عاجلة . .

بعد ١٤ يوما يأتى اللورد هاميلتون الى لندن فى رحلة قصيرة ويقوم بزيارة قائد سلاح الطيران فى مكتبه بمبنى وزارة الطيران . . الضابط الكبير يحتفى بضيفه اللورد ثم يسأله سؤالا مباشرا :

ـ سيدى اللورد . . اننى أريد فى الواقع أن أسألك سؤالا محددا :

. . ماذا فعلت بخطاب هاوسهوفر اليك ؟ !

كان السؤال مفاجأة تامة للورد ، وتصور أن الضابط الكبير يسأله

عن خطاب البرخت هاوسهوفر الذى بعثه إليه قبل الحرب . . فبدأ يسرد قصة الخطاب . . وهنا قاطعه الضابط :

ـ لا . . لا يا سيدى . . ليس ذلك الخطاب القديم . . اننى أعنى الخطاب الذى تسلمته أخيرا . .

ومد يده بصورة فوتوغرافية لخطاب موجه اليه من هاوسهوفر بتاريخ ٢٣ سبتمبر ١٩٤٠

تناول اللورد هاميلتون الخطاب ، مرفوع الحاجبين فى دهشة كاملة . . وبدأ يقرأ الخطاب لأول مرة . .

كان خطاب هاوسهوفر للورد هاميلتون قد وقع فى يد المخابرات البريطانية التى صورته . . ومررت الخطاب من جديد الى اللورد فى اسكوتلنده بعد أن احتفظ رجالها بصورة منه . .

انتهى اللورد من قراءة الخطاب ، وابتدره الضابط الكبير بقوله :

ـ اننا مهتمون بهذا الاقتراح . . ولكن السؤال الآن عن مدى استعدادكم للسفر الى لشبونة لمقابلة البرخت هاوسهوفر فى المكان والوقت الذى تراه أنت . . فالمسألة كلها كما ترون متوقفة على استعدادكم . .

لم يرحب اللورد هاميلتون بالاقتراح . . فلم تكن لديه الرغبة فى السفر فى ذلك الوقت . . والحرب ، ولكنه فى نفس الوقت وعد الضابط الكبير بالكتابة الى البرخت هاوسهوفر يبدى استعداده لمقابلته فى لشبونة بعد أن يحدد له الوقت والمكان . .

تفرس الضابط بذكاء فى وجه اللورد فوجد أنه يقول غير ما يبطن . . فعاد يسأله :

ـ سيدى اللورد . . هل ترغب فى السفر أم لا ؟

بهدوء السياسى المراوغ . . رد اللورد :

ـ اننى على استعداد للسفر . . اذا صدرت الاوامر بذلك . .

تلفت الضابط حوله . . وكأنه يريد أن يطبق على رقبة اللورد . .

ـ سيدى اللورد . . فى مثل هذه المهام . . لا نستطيع أن نصدر أوامر . . انك ستقوم بهذه المهمة بمحض ارادتك . . انك يا سيدى ستساعدنا كثيرا . واننى أسألك مرة أخرى :

ـ هل تريد السفر أم لا ؟

وببرود هذه المرة رد اللورد هاميلتون :

ـ عندما تأتيني الأوامر . . سأكون راغبا فى القيام بهذه المهمة التى تطلبها . .

وصمت قليلا ثم عاود الكلام . .

ـ فى مثل هذه المهام الكبيرة وبما تنطوى عليه من خطورة . . فاننى سأحتاج أن أكون على اتصال مستمر بسفيرنا فى لشبونة ، لنقل نتيجة اتصالاتى ، ومن ناحية اخرى الحصول منه على رأى الحكومة فى الموضوعات التى قد يثيرها البرخت . .

كان الكلام مقنعا . . وأجاب الضابط الكبير كأنه يردد أمورا مفروغا منها . .

ـ سيدى . . اننا سنعد لكل شىء عدته . . وستكون اتصالاتك فى لشبونة أمام مجلس الحرب هنا أولا بأول ، فنحن فى حاجة اليك . . ولن نتخلى عنك هناك . .

خرج اللورد هاميلتون من وزارة الطيران يودعه الضابط الكبير وهو يعده بالرد على خطاب هاوسهوفر فى أقرب وقت ، ليحدد له مكان وموعد اللقاء المنتظر مع ابنه البرخت فى لشبونة . .

الصورة على الجانب الالمانى كانت مختلفة تماما . .

رودلف هيس . . الرجل الثالث فى ألمانيا بدأ يستعد للهبوط بالبراشوت فوق قصر اللورد هاميلتون فى اسكوتلنده ليتفاوض مع الملك جورج السادس وونستون تشرشل لانهاء الحرب . .

وتعالوا نعد إلى هيس . .

أنا طيار قديم . . اشتركت فى الحرب العالمية الاولى . . ولكن الدنيا قد تغيرت . . نحن الآن فى أوائل سنة ١٩٤١ ، ولم أطر منذ نحو ٢٣ سنة . . وليست لى بالطبع خبرة بقيادة الطائرات الحديثة . . وكان لا بد لى من دراسة المقاتلات الحديثة وأنواعها ، وكيفية الاقلاع بها . .

بدأت خطواتى الأولى . . فطلبت من الجنرال أرنست أوديت قائد السلاح

الجوى الالمانى أن أتدرب على القيادة . . الا أن الرجل رفض بطريقة مهذبة . . كانت التعليمات التي لديه تقول أنه ليس مسموحا باعطاء أمر اقلاع إلا بعد الحصول على تصريح كتابى من هتلر . .

كان أوديت منضبطا عسكريا . . وكانت تعليمات هتلر اليه منذ بداية الحرب تنص على عدم اعطاء تصاريح اقلاع لقادة الحزب النازى إلا بأوامر كتابية منه . . كاجراء أمن . .

لم يسبب هذا القرار أى ازعاج للقادة البارزين فى الحزب . . بل أن أغلبهم لم يشعر به . . لانهم جميعا لم يتعلموا قيادة الطائرات . . الا جورنج وأنا . . حيث تدربنا على الطيران أثناء الحرب العالمية الأولى . .

الآن أصبح جورنج بدرجة من السمنة لا تجعله يفكر فى الطيران أما أنا فقد أصبح القرار عقبة حقيقية فى طريقى . .

كنت استطيع بالطبع الحصول على هذا التصريح الكتابى من هتلر . . كان موقعى ومكانتى تسمحان لى بذلك . . ولكن هذا كان يعنى أن هتلر موافق رسميا على خطة الطيران لبريطانيا . . وهذا ما لا أريده الآن . .

كانت خطتى فى الحقيقة . . هى أنه اذا نجحت مهمتى . . فاننى أكون بذلك قد أديت شيئا وهبت له نفسى من أجل المانيا . . واذا فشلت يستطيع هتلر ، من أجل المانيا أيضا ، وهيبتها . . أن يتهمنى بالخيانة العظمى ، واننى قمت بهذه المهمة بلا تفويض منه .

لم يكن الجنرال أوديت يعلم خلفيات الموضوع ولكنه كان يريد مساعدتى خصوصا بعد أن شعر أننى لا أرغب فى الحصول من هتلر على هذا التصريح بالاقلاع . . ولكن التعليمات كانت واضحة .

ذهبت الى فيلى شميت . . وهو يمتلك مصنعا ضخما لاحدث المقاتلات طراز (مسرشميت ١١٠) . . وهناك عرفت بنفس القرار . . « الطيران ممنوع » .

يا لهؤلاء المجانين . . أنا نائب هتلر . . وأواجه فى كل مكان بكلمة ممنوع . . اذن لاستغل سلطاتى ولو مرة واحدة . .

قلت لفيلى شميت ، وأنا أنظر الى عينيه . . أتأمل خلجات وجهه . .

ـ اننى مكلف بمهمة خاصة ، لا أستطيع الافصاح عنها ، وأطلب التدريب فورا . .

كانت كلماتي قاطعة ومحددة . . ومنصبي لا يخفى على الهر شميت . . فوافق على الفور . . وأصدر تعليماته بتجهيز طائرة لى أتدرب على قيادتها بسرعة . . والقيام بدورة طيران فى اليوم التالى . . الطائرة مسر شميت ليست من النوع البعيد المدى . . وهى بحالتها الراهنة لن تمكننى من القيام برحلتى الى اسكوتلنده . .

استدعيت مهندس التصميم بالمصنع واقترحت ادخال تعديلات سريعة على الطائرة . . وهى تحويلها الى طائرة بمقعد واحد واضافة خزانين للبنزين يتسع الواحد منهما لسبعمائة لتر . . وهما نفس الوزن الذى كان يخصصه مصمم الطائرة لمساعد الطيار . . علاوة على أننى طلبت كذلك نزع الاجزاء الخاصة بقذف القنابل . . وتزويد الطائرة بجهاز كان قد اكتشف حديثا للتوجيه الليلى . . « الطيران الاعمى » ! !

وبعد أربعة أسابيع تم اعداد الطائرة بالمواصفات التى طلبتها وبقى تحديد خط السير لعدم الوقوع فى شباك المدفعية المضادة للطائرات . .

أن باور الطيار الخاص لهتلر لديه هذه الخريطة بلا شك . . على الاقل فهو يستخدمها لتنقلات الزعيم . . ولكنه قال لى :

ـ ان هذه الخريطة تعتبر من الاسرار العليا للدولة ، وهى تبين المواقع التى لا يسمح حتى للطائرات الالمانية بالتحليق فوقها . . الا على ارتفاع معين . . يتغير من يوم ليوم . . بل ومن ساعة لساعة أحيانا . . وبالتالى فالخريطة وحدها لا تفيد . . اذ المطلوب هو التعرف على الارتفاعات المسموح بالطيران عليها . . ساعة الاقلاع . . وبالتالى يحتاج الانسان الى الحصول على أحدث التعديلات . .

فى الحقيقة لم أرتح لكلام باور . . الا أنه أراد أن يطمئننى فقال لى اننى أستطيع الحصول على المعلومات عندما اريد الطيران .

لم يسلمنى باور الخريطة ، وأراد أن يراوغ فأصدرت اليه أمرا باعداد صورة من الخرائط السرية . . وتسليمها لمكتبى فورا . .

* * *

حصلت على الخرائط السرية . . وبدأت أجرى التدريب على الطائرة مسر ١١٠ وجهاز الطيران الأعمى . . الذى يوجه الطائرة أثناء الطيران الليلى . .

قمت بنحو ٣٠ رحلة تدريب . . استغرقت كل منها ما بين ساعة الى ساعتين . .

كان يصحبنى فى كل مرة سكرتيرى كارل هاينز بينشش وحارسى الخاص . . والسائق . . وكانت تربطنى بسكرتيرى علاقة الجوار أيضا فهو يقيم مع زوجته وطفليه فى نفس الحى الذى أقيم فيه فى ميونيخ . .

فى اليوم الذى قررت فيه السفر . . احضرت معى حقيبة اوراقى وقلت لسكرتيرى . .

ـ اننى سأتدرب اليوم لفترة أطول . .

وسلمته خطابان مغلقان بالشمع الاحمر . . أحدهما موجه الى هتلر . . والثانى للسكرتير نفسه . .

وقلت له :

ـ اذا لم أعد فى خلال أربع ساعات افتح الخطاب الموجه اليك . . وسلم الخطاب الثانى بنفسك الى هتلر . . لانه بالتأكيد يريد أن يعرف الى أين ذهبت . .

* * *

ودعت الرجال الثلاثة . .

واستقللت الطائرة . . وأدرت محركاتها . . وانطلقت الى هذا الفضاء الفسيح . .

جلس بينتش فى المقعد الخلفى للسيارة المرسيدس والسائق ورجل الأمن يجلسان فى المقعدين الأماميين . . يمزقهم القلق ويقطعون الوقت بالحديث فى أى شىء . .

كانت ليلة باردة . . قاسية . . ومرت الساعات الأربع . . ونظر بينتش فى ساعته . . ثم أوقد نور السيارة . . وفض المظروف الخاص به . . وصرخ . . !

وسام ماريا تريزا للرجال الذين يقولون « لا »

الفصل الخامس

انطلقت الطائرة تخترق الأجواء ، فى ليلة عاصفة . معتمة ، حالكة السواد ! الأضواء الكاشفة التى تطلقها بطاريات الدفاع الجوى تلمع تحت السحب الباردة فأراها تهبط متراخية نحو الأرض . . والطائرة أشبه بريشة تتقاذفها الرياح بعنف . . لقد فاتتنى تنبؤات الأرصاد الجوية . . لم أعمل حسابا للجو ! !

الأضواء الكاشفة تلمع بين حين وآخر ، والسماء حائط أسود لا ثقب فيه . . وأنا أحلق فوق بركان متفجر . . وبعد ساعتين من الصراع المميت ، وسط ظروف جوية موحشة . . قررت العودة .

* * *

كانت الساعات الأربع قد انقضت ، وهم سكرتيرى (بينتش) بفض مظروف الرسالة التى كتبتها إليه ، بعد أن انتظر ربع ساعة أضافها من عنده .

لم يتمكن على ضوء النور الداخلى من قراءة سطور الرسالة ، فأوقد الكشاف الأمامى للسيارة ، وركع على ركبتيه يقرأها . . وهو يصرخ بين لحظة وأخرى .

— يا الهى . . يا للكارثة . . لقد فعلها النائب ! !

وقف ضابط الأمن مشدوها للكارثة . . يحملق فى السكرتير الذى كان يتمتع منذ لحظات بكامل قواه العقلية ، واقترب منه مستفسرا . .

— بينتش . . ماذا بك . . ما الذى حدث ؟ !

أجاب بينتش وهو يضرب رأسه بكفيه مشيرا إلى الخطاب :

— لقد طار النائب إلى انجلترا . . لقد طار يعقد الصلح هناك ! !

إرتجف ضابط الأمن ، وكست وجهه ملامح الغضب ، وردد باستنكار شديد . . كلمة « الصلح » عدة مرات ثم جذب الرسالة قائلا :

— دعنى أقرأ هذا الخطاب . .

أمسك الضابط بالأوراق يقلبها بين يديه ، وهو يجثو أمام كشاف السيارة يقرأ الرسالة ، وانتهى من قراءتها ليسلمها إلى السائق . . الذى ركع بدوره . . كما لو كانت الرسالة موجهة لهم جميعا .

غرق الرجال الثلاثة داخل أنفسهم . . لا يعرفون ماذا يمكن أن يقال فى هذه اللحظات بينما تطلع ضابط الأمن إلى ساعته موشحاً بوجهه قائلا :

— هيا بنا . . ليس ثمة ما يمكن عمله هنا الآن . .

إستقلوا السيارة المرسيدس ، وأدار السائق المحرك ، إلا أن أزيز طائرة بدأ يأتى من الأفق البعيد . .

تطلعوا إلى السماء ليروا بقعة فضية لامعة تقترب ، وتحلق فوق المطار ثم تهبط بهدوء إلى الأرض مندفعة على الممر المظلم . .

كأطفال عاد أبوهم من سفر طويل . . هرع السكرتير والسائق وضابط الأمن نحو الطائرة . . ووصلوا فى نفس اللحظة التى أوقف فيها سيدهم محركها وبدأ يفتح كابينة القيادة ، دافعا بيديه الأحزمة التى تقيده بالمقعد ، ثم هبط فى رشاقة . . ووجوه الرجال الثلاثة شاحبة ، مرتجفة ، تحملق فيه بجنون .

لم يكن من الصعب على أن أدرك ، بنظرة واحدة إلى وجوههم ، أنهم جميعا قرأوا الرسالة . . ولكنى أردت أن أهون عليهم الأمر فقلت لهم مازحا

— هأنذا قد عدت مبكرا . . أليس كذلك ؟ !

لم ينطق أحد كلمة ، فأسرعت نحو السيارة قائلا للسائق :

— إذهب بى إلى المنزل ، وتستطيع أن تعود لمنزلك فلن أحتاج إليك الليلة ! !

إقتربت السيارة من البوابة الرئيسية لمنزل ، وأضيئت كشافات الحديقة الكبيرة ، وإتجهت عيون رجال الحراسة نحو السيارة وهي تمرق على ممرات الحديقة . . كانت الحراسة على زعماء الحزب النازى أثناء الحرب دقيقة ، ومحكمة . .

توقفت السيارة . . وملت على بينتش أطلب منه أن يتبعنى فورا !

صعدت درجات السلم ، يصحبنى بينتش ، واتجهت إلى الدور الأول حيث جلست فى الصالون على مقعد وثير بجانب المدفأة . . وطلبت إليه الجلوس .

كنت فى الحقيقة أريد أن أتأكد بنفسى عما إذا كانت أسرار الخطاب قد تسربت إلى ضابط الأمن والسائق أم لا . . وماذا يمكن عمله لتفادى تسرب أنباء الرحلة إلى من لا يقدرون المسئولية .

لاحظت الارتباك على بينتش فقدمت له كأس « كونياك » قذفه إلى معدته على الفور . . وبدأ يتكلم :

— لماذا تريد يا سيدى السفر إلى انجلترا ، دون أن تخبر « الفوهور » ؟ . . يبدو لى أنك طرت دون أن تبلغه بالرحلة . . وإلا لما كتبت هذه الرسالة التى سلمتها إلى ؟ !

ومد يده بالمظروف الموجه إلى هتلر . . ووضعه على المنضدة بهدوء . . بينما يتأمل ملامح وجهى ليقرأ رد فعل السؤال . .

* * *

فمد هيس ساقيه الطويلتين للأمام مسترخيا على المقعد ، وبدأ يجيب :

— هذا صحيح . . ان « الفوهرر » لا يعلم . . بل حتى لايعلم مجرد أننى قمت بهذه المحاولة اليوم . . ولكننى أعرف أن أهم رغبة لديه الآن وأشدها إلحاحا فى الوقت الحاضر هى عقد صلح مشرف مع بريطانيا . . لقد تحدثت إليه مرارا حول هذاالموضوع ، كما تحدثت أيضا مع البروفيسور هاوسهوفر . . وابنه البرخت . . لقد قمنا بعدة محاولات ، لعمل إتصال مع الجانب الآخر . . بل حاولنا الاتصال بهم عن طريق لشبونة ، ولكن كل هذه المحاولات باءت بالفشل . . وبعد تقليب الأمر على كل جوانبه ، وجدت أنه من الضرورى القيام بإتصال مباشر ، وسريع لكى نضع حدا لهذه الحرب .

ثم اعتدل هيس على مقعده ، وهو يسحب قدميه للخلف ، وجعلهما متشابكتين . .

— كان من المفروض أن أكون الآن على مائدة المفاوضات فى بريطانيا ، وربما إستطعنا التوصل إلى إتفاق ينهى الحرب خلال هذا الاسبوع ! !

بدأ رأس بيننتش يتأرجح ، من فرط الدهشة . . وعاد يسأل :

— ولكن لماذا ينبغى على « الفوهرر » ألا يعلم . . ما دامت تلك رغبته ؟ !

قال هيس دون أن يفارق هدوء الأعصاب :

— سأحاول أن أشرح لك . . فكما تعلم . . إننى واحد من أقدم أعضاء الحزب ، وتعلم أيضا أننى شاركت فى صنع الأفكار التى تضمنها كتاب « الفوهرر » « كفاحى » . . ولاشك أنك تسمح لى إذا قلت لك الآن . . إننى أعرف عن فكر هتلر أكثر مما يعلم الآخرون الذين يعملون حوله . . فقد عشنا منذ العشرينات معا . . لا نكاد نفترق إلا لنلتقى من جديد ، وإذا كان هناك شخص ما يعرف تماما ما يريد هتلر . . فهذا الشخص هو أنا . . إن هتلر يريد إنجلترا القوية . . ويريد السلام مع هذه الامبراطورية المترامية الأطراف . . إننا نرى الآن أن عدونا فى الشرق وليس فى الغرب . . وهناك فى الشرق يكمن الخطر . . وهناك أيضا يتركز فكر « الفوهرر » . .

سأل بيننتش ، وهو يحدق فى وجه هيس بذهول :

— تقصد روسيا ؟ !

هز هيس رأسه بالموافقة واستطرد قائلا :

— نعم . . أقصد روسيا . . فإننى أخشى أن يأتى اليوم الذى تقف فيه ألمانيا وحدها فى مواجهة العالم بأسره . .

إتجهت عينا هيس الغائرتان ، خلف حواجبه الكثيفة نحو نار المدفأة ، وأومأ برأسه وهو يواصل حديثه :

— إن أمريكا ستدخل الحرب لامحالة . . وبالتالى تستطيع بريطانيا ، وأمريكا تدمير ألمانيا . . وفى هذه الحالة لن تكون المسألة مسألة شجاعة أو تصميم ، ولكنها ستكون مسألة أرقام وحقائق . . وإذا اتحد الاثنان فإنهما سيكونان أقوى منا ، علاوة على أن تسليحهما أفضل . . مثل هذا التطور يعنى أن ألمانيا الجديدة ، التى أشاد صرحها « الفوهرر » سوف تختفى من الخريطة .

وتلاحقت أسئلة بينتش . . وأجاب هيس على كل سؤال بالتفصيل !
وعاد بينتش يسأل من جديد :

— تقول يا سيدى إنك ستقابل اللورد هاميلتون . . فكيف ستصل إليه بعد هبوطك بالمظلة . . فأنت يا سيدى كما تعلم . . لن تهبط على باب قصر اللورد . . إنك تهبط فى مكان بعيد . . قد يستحال عليك الذهاب منه إلى قصر اللورد سيرا على الأقدام . . إننى آسف يا سيدى أن قلت لك كل ذلك . . ولكنك وضعت فى ثقتك كلها . . وأصبح من واجبى التحدث إليك بمنتهى الصراحة . .

قام هيس يسير نحو أحد المقاعد فى ركن الصالون . . ثم انحنى وهو يحضر خريطة . . فردها على المائدة ، وسند أطرافها بمنفضة سجائر ثقيلة مصنوعة من البللور وهو يقول :

— أنت تعتقد أننى لن أستطيع الهبوط أمام باب القصر . . وأنا أقول لك . . كلا . . أستطيع سأهبط على بعد خطوات من القصر .

وأشار بإصبعه وهو يقول :

— هذا خط الطيران الذى سأسلكه . . سأطير عبر هذه الجزيرة فى الشرق إلى جلاسجو فى الغرب . . وتلك هى خريطة جلاسجو التفصيلية . . وهنا قصر اللورد . . وهنا أقرب نقطة بوليس . . وهنا مركز الدفاع المدنى . . إن وصول رجال البوليس إلى النقطة التى سأهبط فيها سيستغرق عشر دقائق على الأقل . . وهذه الدقائق العشر كافية لأن أكون فى صالون اللورد هاميلتون . .

— تقول يا سيدى عشر دقائق ؟ !

— نعم . . إن التخلص من البراشوت ، ثم خلع الأفرول ، لن يستغرقا أكثر من دقيقتين ، أتوجه بعدها مباشرة إلى دونجافيل هاوس حيث أصعد السلالم ، وأدق الجرس ، وعندما يفتحون لى سأقول لهم أريد مقابلة اللورد . . وإذا سألونى من أنا سأقدم لهم هذا الكارت . .

ومد هيس يده بكارت مطبوع على ورق مصقول عليه إسم « البرخت هاو سهوفر » الصديق الحميم للورد هاميلتون . . ثم إستطرد يقول :

— وعندما أدخل إليه لن يجد أمامه البرخت ، وإنما سيجد أمامه الرجل

الثانى فى الرايخ الألمانى . . صحيح أننى لا أعرف على وجه التحديد مسار الأمور بعد ذلك . . ولكن الذى أثق فى أننى سأجد بعض الوقت لأشرح للورد هاميلتون ، لماذا إخترت هذه الطريقة للوصول إليه ، وفى نفس الوقت أطلب منه تحديد موعد لمقابلة عاجلة مع الملك ! !

واختتم هيس كلامه متسائلا :

— معقول . . أم لا ؟ !

حملق بينتش فى لا شىء . . وهو يقول لنفسه . . إن الخطة تكاد تكون خيالية . . ولكن كم من الخطط الخيالية قد نجحت . . فعندما قرر هتلر منذ عدة سنوات الاتجاه نحو بلجيكا وهولندا وفرنسا لم يكن يؤمن أحد أن أحلامه سوف تتحقق ومع ذلك فقد تحققت . . ومن يدرى . . ربما . .

أفاق بينتش من خياله وعلى لسانه سؤال جديد :

— أليس من المحتمل يا سيدى أن يكون اللورد هاميلتون خارج بريطانيا هذه الأيام .

— أجاب هيس بسرعة :

— المعلومات التى لدى تقول إنه موجود الآن فى قصره ، بل لدى تقرير واف عن نظام حياته اليومية . . ومتى يأكل . . ومتى ينام . . وأين يمضى معظم وقته . . لدى من التفاصيل عن حياته أكثر مما تتصور .

* * *

أشعل بينتش سيجارته ، بينما عاد هيس يلتقط خيط الحديث :

— إن ألمانيا يا بنى . . كانت دائما البلد الذى يتخذ المبادرات . . فنحن قوم لدينا الشجاعة ،ومستعدون لتحمل المخاطر ، حتى فى أشد اللحظات إظلاما وقسوة . . هذا هو تاريخنا . . وهذا هو دورنا . . بل لقد أصبحنا « العلامة المميزة » لهذا النوع من المبادرات .

— ولكن مخاطرتك الشخصية يا سيدى . . إنك تضحى بكل شىء . .

تنهد هيس بعمق ، وهو يجيب :

— قبل كل شىء . . إن الخطر الشخصى لايعنينى . . إذا قارنته بالهدف . . هناك بلاشك العديد من المخاطر . . قد أسقط فى البحر . . أو قد أصاب

بالمدفعية المضادة للطائرات ، أو قد أموت أثناء الهبوط بالبراشوت . . ولكن من ناحية أخرى هناك أمل النجاح . . أمل إنقاذ حياة الملايين من البشر . . وفوق ذلك كله مستقبل ألمانيا .

صمت هيس قليلا ثم عاد يقول :

— هل تعرف حكاية وسام الفروسيةالذى كانت تنعم به ماريا تريزا إمبراطورة النمسا ؟

— لا . . لا يا سيدى . . ليست لدى أى فكرة .

— إذن سأحكى لك . .

قال هيس :

— فى عصر ماريا تريزا . . كان قليل من الرجال يقولون « لا » . . كانوا يخشون مغبة الرأى الآخر . . أو السباحة على عكس التيار ، كانوا يوافقون من باب إيثار السلامة . . ولكى تشجع الامبراطورة الرجال ليقولوا « لا » إبتكرت هذا الوسام . . وكانت تنعم به على الرجال الشجعان الذين يقولون « لا » ثم يتضح صواب رأيهم . . وأنهم كانوا على حق . .

عاد بينتش يسأل . . ولكن بقلق هذه المرة :

— وإذا إتضح أن هذا الرجل الشجاع لم يكن على صواب ؟

بسرعة أجاب هيس :

— يحكم عليه بالاعدام . . يرمى بالرصاص . . أليس ذلك أقل ثمناً يدفع ثمناً للمسئولية ؟ !

* * *

بدأت أتلقى تقارير الأرصاد الجوية يوميا . . إلى أن جاءنى تقرير أرصاد فى ٩ مايو سنة ١٩٤١ يؤكد أن حالة الجو ملائمة للرحلة . . فقررت السفر غدا ١٠ مايو . . وتمضية اليوم مع زوجتى ايلز وإبنى فولف وإلغاء كافة مواعيدى الرسمية .

* * *

لأول مرة منذ أكثر من ١٤ سنة . لم أذهب إلى مكتبى ، قررت قضاء أطول وقت ممكن مع زوجتى وإبنى . . إستيقظت مبكرا . . وإرتديت قميصا

وبنطلون ، وأدرت مفتاح الراديو لأستمع إلى مقطوعات من الموسيقى الكلاسيك . كانت هناك محطة خاصة تذيع الموسيقى ، علاوة على المحطة العادية التى تقطع برامجها لتذيع أنباء المعارك . .

وقفت بضع دقائق خلف النافذة . . أتأمل مجموعة الجنود الذين يرتدون بلاطى من الجلد الأسود يتحدثون بصوت مرتفع . . وبنظرة متأملة عرفت أنهم يستبدلون الحراسة وأن دورية جديدة قد تسلمت الخدمة . .

الهواء بارد منعش وأشعة الشمس تنعكس برفق على مياه حمام السباحة . . خرجت إلى الشرفة لأجد أيلزا مشغولة بالقراءة . . سألتها وأنا أتطلع إلى عنوان الكتاب ، عما تقرأ . .

قالت : طيار فوق قمم ايفرست . . إنه يحكى قصة الرحلة التى قام بها اللورد هاميلتون مع ماكنتاير فوق جبال ايفرست .

قلت والدهشة المحيرة تعتمل فى نفسى :

- من أين جئت بهذا الكتاب ؟

— لقد أهدته لى صديقة إنجليزية منذ عامين . . قبل نشوب الحرب . . ولكنى لم أجد الوقت لقراءته سوى الآن . .

أمسكت بالكتاب أقلب صفحاته ، ووقعت عينى على الاهداء « مع أطيب الأمنيات والأمل فى أن تحقق صداقتنا الشخصية التفاهم المأمول بين الشعبين » !

أعدت الكتاب إلى ايلزا ، وأنا أتطلع إلى صورة على الغلاف الخلفى للورد هاميلتون قائلا :

— يبدو أنه رجل طيب . .

— يبدو ذلك . . ولكنى لا أعرف هل هو طيب كما يبدو فى الصورة أم لا . .

— إنه على الأقل رجل شجاع . . وإذا كان هناك رجال شجعان سواء فى إنجلترا أو ألمانيا . . فلن تكون هناك حروب بين البلدين .

دق جرس التليفون ليقطع الحديث بينى وبين إيلزا . . كان على الخط روزنبرج واحد من أقرب مساعدى هتلر . . درس الهندسة فى روسيا وبقى هناك حتى قامت الثورة الشيوعية سنة ١٩١٧ فهاجر إلى ألمانيا حيث عاش ، وإنضم إلى الحزب النازى فى بداية تكوينه مع جورنج وروم ، وايكارت وأنا

بالطبع . . دعوته للغداء معنا . . وذهبت أقضي بعض الوقت مع إبني فولف الذى كان يبلغ من العمر أربع سنوات وكنا ندلله بإسم (بوزى) . .

* * *

وفى الساعة الثانية عشرة ، فتح رجال الأمن البوابة الرئيسية ومرقت سيارة الفريد روزنبرج .

استقبله هيس بترحاب ، وإتجها إلى الصالون . . ثم إلى غرفة الطعام . . وفى إحد الممرات لاحظ روزنبرج وجود حذاء ضخم ذى رقبة طويلة . . فسأل هيس مازحا :

ــ ما هذا . . هل ستذهب إلى الحرب . .

ــ لا . . ولكنى سأسافر غدا إلى ميونيخ . . وربما إحتجته معى .

كانت رحلة ميونيخ مفاجأة لايلزا تماما فسألته :

ــ ومتى ستعود . .

بعد غد على أكثر تقدير . .

إنصرف روزنبرج بعد الغداء وتناول الشاى ، دون أن يفاتحه هيس فى أمر رحلته إلى بريطانيا . .

* * *

كنت قد إتصلت صباح اليوم بسكرتيرى بينتش . . وأبلغته أننى سأقوم بالرحلة اليوم . . وقلت له إن روزنبرج سيتناول طعام الغداء معى . . وطلبت منه الحضور فى الثانية والنصف . .

فى تمام الثانية والنصف وصل بينتش . . وفتح شنطة السيارة الخلفية حيث وضعت حقيبتى .

وجلست داخل السيارة وبجانبى بينتش وإلى الامام يجلس السائق وضابط الأمن . . وبدأت السيارة تتحرك . .

تطلعت خلفى لكى ألقى نظرة أخيرة على منزلى . . النوافذ البيضاء . . والجدران البيضاء . .

لقد كانت تلك آخر مرة فى حياتى . . تقع عيناى على بيتى . . لم أره بعد ذلك . . ولن أراه إلى الأبد !

دعانى هتلر للفداء ..
ثم أمر بالقبض على !

الفصل
السادس

مرقت السيارة فى شوارع ميونيخ متجهة نحو المطار ، وأنا أتأمل من خلال النافذة .. الأشجار .. والمبانى .. ونافورات المياه .. إننى أعرف كل شبر فى المدينة .. وأقدس كل ذرة رمل فى ترابها ..

بدأنا نغادر ميونيخ عبر (الأوتوبان) ، وبعد نحو ١٥ كيلو مترا وصلنا إلى حديقة تحمل ذكريات حياتى .. تربطنى بكل شجرة فيها .. علاقة خاصة .. زهورها لها عبق خاص .. هى مزيج من الذكريات الحلوة والمرة .

قلت للسائق :

قف هنا لحظة من فضلك .

اتجه السائق إلى جانب الطريق ، ودهمت إطارات السيارة أطراف الحشائش الخضراء ونزلت أجوب الحديقة ، وكأنى أودعها الوداع الأخير .

بعد دقائق عدت إلى السيارة ، وإنطلقنا من جديد نقطع الاتوبان إلى أن وصلنا إلى المطار الخاص الملحق بمصنع مسر شميت .

على باب المطار نقطتا حراسة .. توقفنا عند كل منهما .. وفى كل مرة يتطلع الجنود بالأسلحة على أكتافهم إلى السيارة ثم يسمحون لنا بالعبور إذ كانت زيارتنا للمطار خلال الفترة الأخيرة ، شبه منتظمة .

أبلغت نقطة الحراسة مدير المطار بوصولنا ، فأسرع يستقبلنا .. ثم إتجهت معه إلى غرفة جانبية حيث إرتديت ملابس الطيران .. وسلمت على الجميع يدا بيد .. كما كنت أفعل فى كل مرة ..

* * *

صعدت إلى كابينة القيادة ، ولوحت بيدى للجميع مودعا ، وأدرت محرك السيارة ، وحلقت فوق الأشجار والحقول والجبال نحو الشمال . .

* * *

إنتظر بينتش أربع ساعات . . لم يعد هيس . . تحسس خطاب هتلر . . ينبغى عليه الاتجاه فورا إلى (بيرجهوف) تسلم هتلر الخطاب . . إلا أن (بيل) مدير المطار . . الذى لم يكن يعلم أمر الرحلة ، وجد فى (غياب) هيس طوال هذه المدة أمرا بالغ الخطورة ، يضعه فى موقف دقيق ولحساب عسير من جانب الحكومة . .

لقد تصور الرجل أن المدفعية المضادة للطائرات قد أسقطت نائب الفوهرر . . وبالتالى ستقع المسئولية كلها على رأسه إذا لقى هيس حتفه بهذه الطريقة داخل حطام إحدى طائرات الشركة التى يعمل بها . وكلما مضى الوقت . . ازدادت حيرته وقلقه لدرجة أن الدماء إختفت من وجهه تماما ، وأصبح رأسه أشبه برأس رجل ميت .

اقترب مدير المطار بوجهه الشاحب نحو بينتش بعد أن ضاق ذرعا بطول الانتظار .

— سيدى بينتش . . إن الشمس بدأت ، كما ترى ، فى الغروب ولا أستطيع الآن تحمل المزيد من المسئولية ، سأتصل حالا بالبروفيسور (مسر شميت) وأبلغه أن سيادة النائب لم يعد . . لأنه حتى لو عاد الآن سيجد صعوبة بالغة فى الهبوط . . وربما يجد البروفيسور وسيلة ما لحل هذه المشكلة . . إننى يجب الآن أن أصارحك . . أننى فى غاية القلق . . فالطائرة لاتزال على القائمة السرية . . ومن يدرى ما الذى حدث الآن . .

ثم صمت مدير المطار قليلا وعاود الاعراب عن قلقه :

— ينبغى علينا الآن . . أو بعد ساعة على أكثر تقدير القيام بطائرة ثانية لاستطلاع المكان الذى سقطت فيه ، قبل أن يسدل الليل أستاره الكثيفة . . ويحل الظلام . . لأننا لو انتظرنا أكثر من ذلك فإن هذه المنطقة سيكسوها الضباب والظلام . لدرجة أن الانسان لن يستطيع رؤية يديه !

ببرود وثقة قال بينتش :

— إننى لا أجد أى مبرر للقلق . . فهناك إحتمال أن يكون سيادة النائب قد هبط بطائرته سالما فى مطار آخر ، عندما لم يتمكن من العودة هنا مرة أخرى . . أو ربما وجد صعوبات فى العودة الينا . . صدقنى عندما أقول لك إنه لم يقع له أى سوء . . فهو طيار ماهر . . أم أنك تعتقد غير ذلك ؟ !

هز مدير المطار رأسه كأنه ينفى كل ما قال . . ثم إستطرد قائلا :

— مفهوم . . مفهوم أن سيادة النائب طيار بالغ المهارة . . ولكن يا سيدى هناك بعض الأمور تحدث لأمهر الطيارين . . ربما وقع خلل فى إحدى التوصيلات أو مياه فى البنزين أو صاعقة أو حتى مجرد طائر يصطدم بالمحركات . . وأستطيع أن أحصى لك الآن أكثر من مائة إحتمال . .

استمر بيننتش فى هدوئه ، رغم المخاوف العديدة التى حاول مدير المطار أن يسكبها الواحدة تلو الأخرى فى قلبه . . وإستطرد يقول :

— ولكن الانسان لا يستطيع الآن عمل أى شىء . . وهذا القلق الذى يعتريك لن يحل المشكلة ، وعليك الآن أن تذهب حيث تشاء . . فأنا سأتحمل المسئولية كاملة . .

التقط مدير المطار التعس ، أنفاسه ، وغادر أرض المطار متجها إلى مكتبه .

* * *

فى تمام العاشرة والنصف . . إتجه بيننتش إلى مبنى إدارة الشركة ، دخل أحدى الغرف ، وأوقد النور ، وجلس خلف أحد المكاتب بالقرب من التليفون ورفع السماعة وهو يدير رقما سريا ثم قال :

— أنا بيننتش ، سكرتير سيادة النائب هيس . . أريد التحدث إلى وزارة الطيران . . قيادة الاتصال اللاسلكى بين ألمانيا ومناطق الاحتلال .

بسرعة . . تم تحويل المكالمة لقائد شبكة الاتصال ، الذى بادر بيننتش بقوله :

— إننى أتحدث بناء على تكليف من سيادة النائب . . لاجراء إتصال فى أوجسبورج إلى مرتفعات دونجافيل فى نقطة تبعد ١٥٠ كيلو مترا غربى جلاسجو فى إسكوتلنده . .

أجاب الصوت :

هذا مستحيل الآن يا سيدى . . إننا نقوم فى هذه اللحظات بأضخم هجوم ضد بريطانيا . . وجميع خطوطنا مشغولة . . ان فى الجو الآن ٥٠٠ طائرة ، ولا نستطيع الاستغناء عن أى خط معها الليلة . . سأبذل كل ما أستطيع يا سيدى لاجراء هذا الاتصال . . ولكن ليس الآن .

* * *

بدأ الفار يلعب لأول مرة فى عب (بيننتش) لأن اسطول الطائرات الألمانية المتجه فى نفس الليلة لدك القواعد العسكرية فى بريطانيا ، سيؤثر بلاشك على طائرة هيس . . علاوة على أن بيننتش وعده بإجراء هذا الاتصال ، ولكنه الآن يجلس فى مبنى المطار فى أوجسبورج . . لايدرى ماذا يفعل واضعا رأسه بين كفيه . . وحلق بخياله فيما يمكن أن يحدث لهيس الآن ، عندما لايتم هذا الاتصال الذى وعده به . . لاشك أن هيس يدير الآن جهاز الاستقبال و . . و . .

قطعت هذا التفكير طرقات على الباب . . إنه (بيل) مدير المطار دخل الحجرة وقال بعصبية ، وهو يتفحص وجه بيننتش .

— أعتقد أننى سمعتك الآن تتكلم . .

أجاب بيننتش :

— نعم . . لقد أجريت مكالمة رسمية ، وأعتقد أنه لم يعد هناك مبرر للبقاء هنا أطول من ذلك . . أنا أعرف سيادة النائب جيدا . . وأعتقد أنه هبط بالطائرة فى مكان ما . . وربما تكون الطائرة قد أصابتها بعض التلفيات ولكنه سيأمر هو بإصلاحها . . ومن الأفضل أن نذهب الآن إلى بيوتنا . . وإذا لم تصلك منه أو منى أية أنباء حتى صباح الغد . . فعليك فى هذه الحالة الاتصال برئيسك . . ولاداعى لأن تقلق نومه فى تلك الساعة . .

أبدى (بيل) بعض الارتياح ، لاقتراح بيننتش ، وذهب يغلق حجرة مكتبه ، ويتبع سكرتير هيس إلى السيارة المرسيدس السوداء .

مرت السيارة بنقط الحراسة ، وأسرع الجنود المدججون بالمدافع الرشاشة على أكتافهم ، يزيحون متاريس الأسلاك الشائكة من الطريق ، وهم يؤدون التحية العسكرية .

* * *

إنطلقت السيارة على (الاتوبان) كالسهم . إلى أن وصلت إلى بيت (بيل) مدير المطار ، الذى هبط وهو يحيى الرجال الثلاثة شاكرا وملوحا بيده . . على أمل إتصال تليفونى يأتيه فى ساعات الصباح المبكرة . .

تحركت السيارة من جديد . . وقال بينتش للسائق بلهجة آمرة .

— أسدل ستائر السيارة ، لأن أحدا لا يعرف أن سيادة النائب ليس معنا . .

ثم قال وهو يتحسس مظروفا مغلقا بالشمع الأحمر . .

— يجب أن أسلم هذه الرسالة إلى الفوهرر بنفسه . . سأسافر بالقطار لأن تحركنا بهذه السيارة الكبيرة سيثير الشبهات . . اذهب بى الآن لمحطة ميونيخ سأستقل القطار من هناك إلى برخستجادن .

* * *

انتظر بينتش فى المحطة حتى الخامسة صباحا وإستقل القطار الذى وصل (برختسجادن) فى السابعة صباحا . .

إتجه مباشرة إلى مكتب هتلر ، وإتصل من تليفون البوابة الرئيسية بالبرت بورمان سكرتير الفوهرر . . وهو فى نفس الوقت شقيق مارتين بورمان الذى عمل نائبا لهيس فترة طويلة .

كانت تربط بينتش بالبرت بورمان صداقة قوية ، كنتيجة للصداقات التى تربط بين هيس وهتلر ، إلا أنه اندهش لوجود بينتش على البوابة فى هذه الساعة المبكرة فإبتدره متسائلا :

— ماذا تفعل هنا ؟

أجاب بينتش :

— إن معى رسالة من النائب إلى الفوهرر ، طلب منى أن أسلمها له شخصيا ، وفى أسرع وقت ممكن . .

قال بورمان :

— الفوهرر مشغول تماما اليوم ، فمواعيد مقابلاته لاتسمح لك اليوم بالمقابلة ، ولكنى على أية حال سأبعث إليك بسيارة تأتى بك إلى هنا ، فربما استطعت أن أدبر لك بضع دقائق تسلم فيها رسالتك .

بعد دقائق جاءت سيارة رمادية اللون إلى البوابة الرئيسية لتقل بيننتش ، الذى جلس بجانب السائق ، يتطلع إلى أشجار الحديقة وجنود الحراسة يحملقون فى السيارة التى تقطع الطريق نحو الفيلا التى يقيم بها هتلر . .

هذه الفيلا إشتراها هتلر ، قبل أن يتولى السلطة ، وكان قبل ذلك يستأجرها من تاجر من أبناء هامبورج ، وعندما تولى السلطة سنة ١٩٣٣ لم يشأ أن يتركها فبقى بها ، بعد أن أجرى عليها بعض التحسينات والتوسعات ، وأصبحت تعرف بإسم بيرجهوف . .

* * *

وصل بيننتش إلى الفيلا ، وخرج بورمان يستقبله ، وهو فى غاية الدهشة ، إذ كانت الساعة نحو السابعة والربع صباحا ، وإبتدره قائلا . .

— لماذا إخترت مقابلة الفوهرر فى تلك الساعة المبكرة ؟

أجاب بيننتش بأدب :

— إننى آسف . . لا أستطيع أن أقول لك أكثر مما قلت لك بالتليفون والآن . . إن معى مظروفا مغلقا بالشمع الأحمر من النائب إلى الفوهرر . .

قال بورمان . . بأسلوب الذى يريد أن يثرثر . .

— ألا يزال يمارس الطيران ؟

أجاب بيننتش وكأنه لايريد الاسترسال فى الدردشة . .

— نعم !

فهم بورمان أن بيننتش لايريد الثرثرة حتى لا تسقط الكلملت من فمه عنوة فقال ينهى الحديث . .

— حسنا . . إنتظر . . سأحاول تدبير المقابلة فى أقرب وقت .

جلس بيننتش ساعات طويلة فى إنتظار المقابلة . وكأنه فى عيادة طبيب أسنان !

جو لا يوحى بالراحة . . أوامر . . كلمات مختصرة . . كأنهم يتكلمون بالاختزال . . كل شىء منضبط ودقيق ، وحاسم .

فى الساعة الحادية عشرة وصل الدكتور (تود) وزير شئون الأسلحة والذخيرة لمقابلة الفوهرر . .

جلس بجانب بينتش يتبادلان الحديث الودى . . وفى الأثناء وصل هتلر . .

كان يرتدى الملابس العسكرية ، ويبدو مرهقا من قلة النوم . . كان بطبيعته لا ينام كثيرا . .

وقف الوزير تود ، والسكرتير بينتش ، يحييان الفوهرر . . بينهما رد هو تحيتهما بأن أومأ برأسه متجها مباشرة إلى مكتبه . . إلا أن بينتش تقدم خطوة للأمام . . وقال بتهور .

— سيدى الزعيم - إن معى رسالة عاجلة إليك .

رفع هتلر يده وكأنه يصد الكلمات قائلا . .

— لحظة واحدة يا بينتش . . ألا ترى أن الدكتور (تود) هنا ، وإنه ينتظرنى ويريد التحدث إلى ؟!

أوقعت الكلمات بينتش داخل نفسه ، إلا أن هتلر قال يطمئنه .

— تستطيع أن تخصر بعد الدكتور (تود) مباشرة .

— سيدى الفوهرر . . إن لدى رسالة عاجلة والدكتور (تود) يقرر ذلك .

نظر هتلر فى عينى بينتش ثم قال :

— حسنا . . هات الرسالة .

دس بينتش يده فى حقيبة يحملها ، وأخرج المظروف ، سلمه لهتلر الذى قال :

— تعال معى !

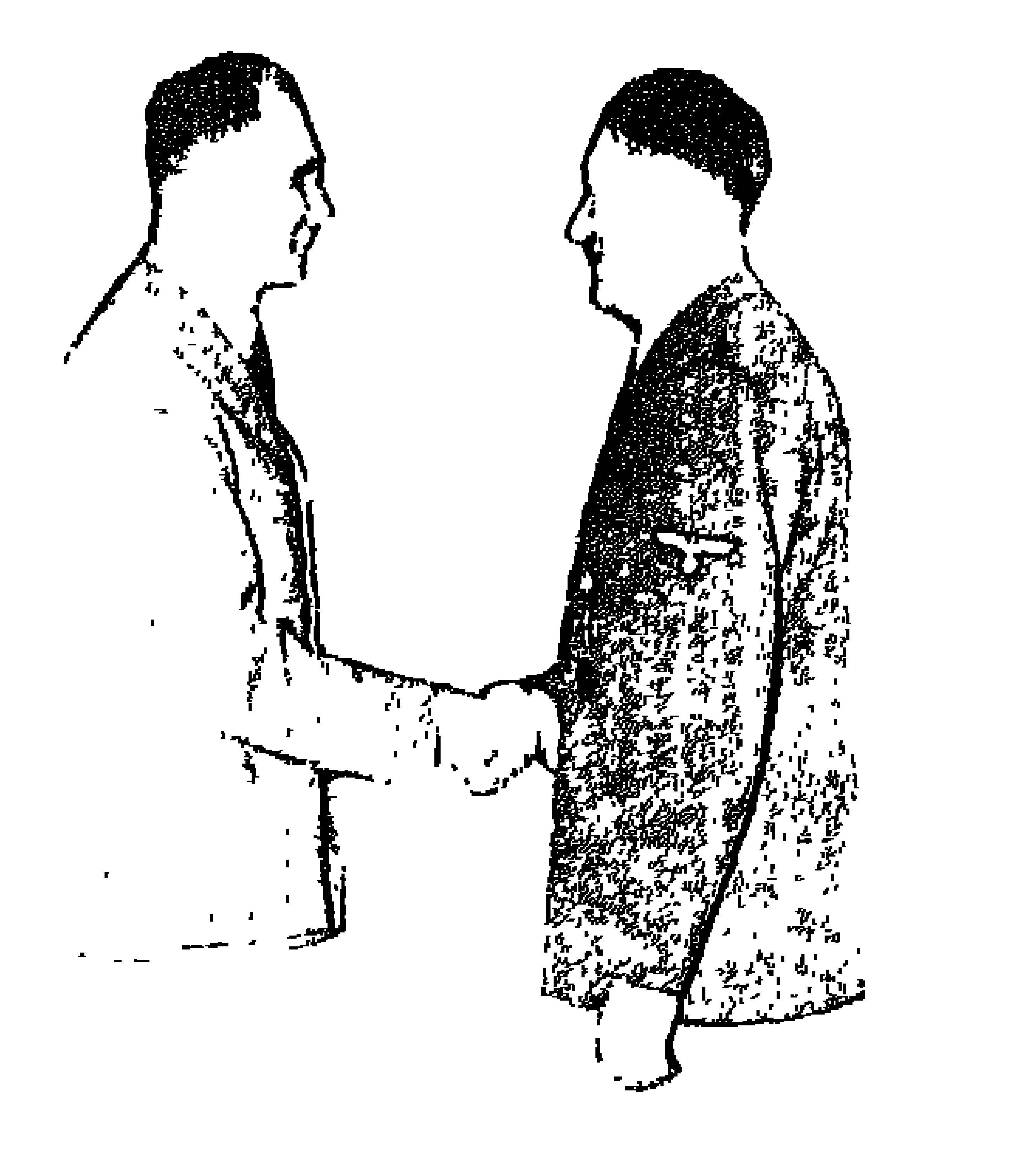
إتجه هتلر إلى غرفة المكتب ، مارا بصالة واسعة مفرطة فى النظافة ، وأرضها من الرخام الأحمر اللامع . . وخلفه بينتش . .

* * *

كانت غرفة مكتب هتلر ، هى قلب المبنى كله ، وبها أغلى الأثاث وأندره . . وفيها إلتقى بأغلب زعماء العالم الذين زاروا ألمانيا أثناء فترة حكمه .

مائدة عليها نموذج للكرة الأرضية ، وأخرى عليها فازة ضخمة بها أنواع ورد غالية ، ومرتبة بعناية .

جلس هتلر خلف المكتب ، ووضع النظارة الطبية التى يستخدمها للقراءة على عينيه وهو يشير إلى بينتش بالجلوس . . ثم فض الرسالة ، وبدأ يقرأ . .



ادولف هتلر يصافح رودلف هيس . .

قرأ هتلر السطور الأولى ثم سأل بحدة .

— أين (هو) الآن ؟

وقف بينتش منتفضا ، فاردا ذراعيه بمحاذاة جسده ، وهو يقول :

— سيدى الفوهرر . . لقد طار فى السادسة وعشر دقائق من بعد ظهر أمس من أوجسبورج ، إلى اسكوتلندا ، ليقابل اللورد هاميلتون . .

هاج هتلر وبدأت تكسو ملامح وجهه علامات الاستياء ، وإستمر يقرأ وحواجبه الكثيفة البنية اللون تقترب من بعضها ،وكأنه لم يصدق أن يقوم نائبه بهذه المهمة من وراء ظهره . .

إنتهى هتلر من قراءة الرسالة وقال بدهشة :

— يطير فى هذه الظروف ، وسط آلاف الغارات التى نشنها الآن . . هذا تهور !!

* * *

رفع هتلر سماعة التليفون يستدعى بورمان . . الذى جاء على عجل ، وإبتدره هتلر قائلا :

— إتصل بجورنج وأوديت (قائد سلاح الطيران وأطلب منهما الحضور فورا . . ورتب الاتصالات لكى يطير ريبنتروب (وزير الخارجية) إلى إيطاليا بعد نصف ساعة ليحمل رسالة إلى موسولينى . .

— سيدى إن الوزير جورنج فى نورمبرج . . والوزير ريبنتروب سيحضر الآن فهو مدعو للغداء هنا . .

قال هتلر :

— إستدعهما على الفور إننى أريد التحدث معهما فى أمر عاجل .

* * *

أمسك هتلر الخطاب من جديد وأخذ يقرأ فقرة منه بصوت مرتفع .

وإذا فشلت مهمتي . . فإن هذا قدرى ، ومصيرى الذى إخترته ويمكنك فى أي وقت أن تتبرأ مني وتعلن أنني معتوه . . فقد قمت بهذا العمل كله من أجلك ومن أجل ألمانيا ، وإذا كانت نتيجته الاضرار بك أو الاضرار بألمانيا ، فأرجو إعتبارى معتوها » .

وتوقف هتلر عن القراءة بصوت مرتفع ، على وقع أقدام تقترب من باب آخر لغرفة المكتب .

كانت إيفا براون . . ترتدى تايير من التويد وبلوفر ، فتحت الباب ، وألقت نظرة سريعة على هتلر وبينتش ثم قالت :

— الغداء جاهز !

أومأ هتلر برأسه ، ثم وضع الخطاب فى المظروف ، وخرج عبر الممر يصحب الدكتور (تود) إلى غرفة الطعام .

* * *

حول المائدة جلس هتلر ، وإيفا براون ، ومارتين بورمان ، ورويبنتروب وإيرنست أوريت ، قائد سلاح الطيران ، وكارل هاينز بينتش .

إحتسى هتلر كوبا من المياه المعدنية ، لأنه لم يكن يشرب الخمر ، كان هتلر نباتيا ، لايشرب الخمر ولا يدخن . .

وعلى مائدة هتلر لم يكن أحد من ضيوفه يتخيل أن طعاما آخر يقدم له . . كان الطعام يقدم للجميع بنفس الشكل الخارجي . . أما المحتويات فكانت تختلف تماما .

بدأ تقديم الغداء . . شوربة ثم طبق من اللحوم والخضراوات للضيوف وآخر يشبهه تماما من الخضراوات فقط قدم لهتلر .

كان الجميع ينظرون إلى بيننتش بدهشة . . لماذا جاء هذا الرجل وحده . . أين سيده أين هيس . . ولماذا يتناول السكرتير الطعام على مائدة هتلر في غياب هيس .

أسئلة تدور في رأس الجميع ، ولا أحد يريد أن يسأل . .

وقطع الدكتور « تود » الصمت بتعليق على إلتزام هتلر حتى الآن بكونه نباتيا قال هتلر مبتسما :

— شوف . . هل رأيت الأسد . . إنه يأكل كميات كبيرة من اللحوم ، وهو عندما يفعل ذلك ، تبدو عليه علامات الكسل الشديد ، وتقل كفاءته القتالية ، ويخلد إلى النوم . . أما الجمل فهو على عكس ذلك . . إنه نباتي يأكل العشب والتبن فيزداد نشاطه ، وينطلق في الصحراء بقوة جلد وصبر شديدين . . فلماذا إذن لا يكون الانسان نباتيا . . لا يأكل اللحوم . . يعمل كثيرا . . وينام قليلا . .

وفي هذه الأثناء دخل كلب هتلر غرفة الطعام ، وبدأ هتلر يقدم له قطعا من اللحم . . وبدلا جلس الكلب تحت الكرسي الذي يجلس عليه بيننتش . . وإنحنى هتلر يطعمه .

لم يدر الرجل . . ماذا عليه أن يفعل . . هل يقف إحتراما للزعيم . . أم يظل جالسا . . ولماذا إختار هذا الكلب الملعون هذا المقعد بالذات ليجلس تحته .

بقي بيننتش في مكانه لايتحرك . . وإنتهى الطعام ، وخرج هتلر وضيوفه إلى قاعة الشاي ، وهم بيننتش ليصحبهم ، إلا أن ثلاثة من الرجال المسلحين دخلوا غرفة الطعام يتقدمهم بورمان .

إقتربوا من بيننتش . . وقال بورمان بصوت فيه الكثير من الحدة .

— كارل هاينز بيننتش . . .

أجاب بيننتش بدهشة فيها الكثير من الرهبة :

— أفندم !!

واستطرد بورمان يقول :

— أنت مقبوض عليك . . ستبقى فى (أوبر سالسبورج) حتى تتم محاكمتك . .

لم ينطق بينتش ، وأسرع الرجال الثلاثة يلقون القبض عليه ويصحبونه للخارج ، دون أن يشعر أى من الضيوف بأن شيئا غير عادى قد وقع . .

* * *

أمام باب الفيلا وقفت سيارة رمادية اللون ، تدور محركاتها . . ربما تلك هى نفس السيارة التى أقلته صباح اليوم . . ربما . . ولكنه تأخر هذه المرة لم يجلس بجانب السائق . . جلس على المقعد الخلفى بين رجلين من رجال الأمن بينما جلس الرجل الثالث بجانب السائق . .

كان مذاق طعام هتلر لايزال فى فم بينتش الذى كان يحرك لسانه كأنه لايزال يجتر الطعام . . ورجال الأمن لايصدقون أنهم يعتقلون واحدا من أهم موظفى الدولة . .

سأله أحدهم . .

— سيدى بينتش . . ماذا جرى ؟

هز بينتش كتفيه وتظاهر بالأهمية وهو يجيب . .

— إنها قصة طويلة . . لايتسع الوقت الآن لروايتها ! !

* * *

عاد هتلر إلى غرفة المكتب بصحبة جورنج ، الذى إندهش لاستدعائه بهذه الطريقة . . فسلمه هتلر الخطاب قرأه بدقة ثم قال :

— سيدى الفوهرر إنه لن يصل إلى اسكوتلندة . . إن الطائرة (سى ١١٠) من النوع القصير المدى . . وأعتقد بشكل قاطع أنه سقط فى مكان ما فى بحر الشمال . . والسمك يأكل لحمه الآن . .

أجاب هتلر :

— لقد أجرى تعديلا على الطائرة وزودها بمخزن إحتياطى للوقود . . وعلى أية حال . . أنت لاتعرف هيس كما أعرفه أنا . . إنه يصل غالبا إلى ما يريد . . وإننى أعتقد أنه جالس الآن مع اللورد هاميلتون . . وربما يتناول الطعام !!



وتقلب ساسة بريطانيا فى الفراش حتى الصباح

الفصل السابع

ارتفعت الطائرة ، وخلعت عجلاتها عن الأرض الألمانية لآخر مرة . . مال جسمها قليلا ، وبعد استدارة خفيفة اتخذت وجهتها نحو الشاطىء الاسكوتلندى . . تضاءلت المنشآت والبيوت والأشجار ، ووضعت عينى على البوصلة لأحدد اتجاه الطائرة نحو جزيرة (هولى لاند) التى سآخذ عندها استدارة حادة نحو الغرب .

لقد حلقت كثيرا أثناء الحرب العالمية الأولى ، كنت أقود الطائرة بطريقة آلية . . وبلا تفكير . . تلك كانت أيام الشباب . . فأنا الآن أبلغ من العمر ٤٨ سنة . . أقود طائرة بلا ذخيرة أو سلاح . . وحيدا بين السماء والبحر . . انها بلا شك أخطر رحلات حياتى !

أدرت جهاز الاستقبال فسمعت اشارات من سلاح الجو الألمانى فى فرنسا . . حركت المؤشر فسمعت صوت موسيقى راقصة من محطة الاذاعة الدنمركية التى كانت تديرها ألمانيا . .

السماء جدار مظلم . . لا ثقب فيه . . الضباب يتلوى ويتمزق فوق بحر الشمال . . الغيوم قليلة متباعدة . . بيضاء قاتمة الحواف . . الرؤية تكاد تكون متعذرة فوق ٥٠٠ متر . . انخفضت لأحلق على هذا الارتفاع . . تبينت البيوت والطرق الخاوية بوضوح تام . . أنها مدينة (بيلفورد) التى تبعد نحو ثمانية كيلو مترات من الشاطىء ونحو ١٥٠ كيلو مترا من المنطقة التى أريد الوصول إليها .

كانت الساعة تقترب من العاشرة الا بضع دقائق . . والنجوم لا تفصح عن نفسها بسهولة والأرض أشبه بثوب ضخم شاسع من القطيفة السوداء . . ولا يزال أمامي نحو ١٥ كيلو مترا في الاتجاه غربي جلاسجو . . واكتشفت أنني وقعت في خطأ لم أكن أحسب حسابه . . أن بريطانيا تؤخر الساعة حسب التوقيت الصيفي ساعتين . . الأمر الذي سيجعلني أصل قبل الموعد الذي حددته بساعة كاملة . . خطأ ما كان لمثلي أن يقع فيه . . لأنني قد حددت موعد وصولي بدقة !

انطلقت بالطائرة فوق الأشجار والبيوت بارتفاع لا يزيد عن الخمسة أمتار ! ! وفي الساعة العاشرة والنصف وجدت نفسي حسب الخريطة التي معي ، أحلق فوق المزرعة التي يملكها اللورد هاميلتون في دونجا فيل هاوس ! !

كان ضوء القمر يكشف المنطقة بوضوح تام ، وبحثت عن المطار الذي يستخدمه اللورد هاميلتون بالقرب من مزرعته فلم أتبينه . . عدت مرة أخرى لكي أتأكد من المنطقة . . حلقت فوق البحر من جديد . . أمواجه صدئة وأضواء القمر تنعكس على مياهه في رقة بالغة . .

أخيرا . . عثرت على المطار . . بدأت أستعد للهبوط . . ولكنني تذكرت أن الطائرة لا تزال على القائمة السرية . . أنها سر لا يجب أن يسلم للأعداء . .

حلقت من جديد . . وقررت الهبوط بالمظلة . . فمن يدري ربما تفشل محادثاتي ، ويحصل الانجليز على سر الطائرة الذي لا يزال طي كتمان سلاح الجو الألماني . .

كانت تلك هي أول مرة أهبط فيها بالمظلة . . في حياتي كلها . . آخر مرة بالطبع .

رفعت كابينة القيادة بكلتا يدي ، وقفزت بالمظلة كان المفروض أن أحلق بالطائرة الى ارتفاع ٢٠٠٠ متر لكي أهبط سليما . . ولكنني ، ولعدم خبرتي ، ولأنني أقفز بالبراشوت لأول مرة . . هبطت من ارتفاع منخفض ، ودفعتني الرياح الى منطقة بعيدة وارتطمت بالأرض بشدة .

بقيت على هذا الحال بضع دقائق . . لا أعرف على وجه التحديد أين أنا . . ولا ماذا أفعل ؟

- - -

ولكن على الجانب البريطانى . . كانت الصور مختلفة . .

كل شىء هادىء على الشاطىء الاسكوتلندى . . بريطانيا كلها تتعرض للجحيم وتتلوى تحت نيران الغارات الألمانية . . أما اسكوتلندة فهى تنعم بنوم هادىء . . انها مكدودة متعبة . . تنام بعد العشاء مباشرة . .

وفجأة يأتى صوت نسائى ناعم من وحدة المتطوعات فى كتيبة الرادار المتقدمة بمدينة « اينفرنس » يبلغ القيادة :

« عبرت طائرة مجهولة نحو الشاطىء الاسكوتلندى » .

كانت المعلومات عن الطائرة تقول . . انها من طراز (مى ١١٠) تنطلق بسرعة ٧٥٠ كيلو مترا فى الساعة ، وهى من النوع القصير المدى ، الذى لا يستطيع حمل كميات إضافية من الوقود . .

وفجأة تقطع الاذاعة برامجها لتعلن :

« من القيادة العامة إلى جميع وحدات الدفاع الجوى . . اخترقت طائرة معادية المجال الجوى متجهة نحو جلاسجو . . لم تتحدد حتى الآن هويتها ، ولكن يجب اعتبارها على أية حال طائرة معادية . . ان الطائرة تواجه بعض المتاعب ، وعلى جميع رجال البوليس الانتباه والابلاغ فور هبوطها مباشرة . . انتهى » .

* * *

على مسافة لا تزيد عن ١٥ كيلو مترا من نقطة المراقبة فى (اينفرنس) مزرعة صغيرة ، يتوسطها بيت متواضع أبيض اللون ، يملكه مزارع فى الأربعينات من العمر اسمه « دافيد ماكلين » .

كان ماكلين قد هاجر الى قريته بعد عام من بداية الحرب ، ليكون الى جانب أمه وشقيقته . .

البيت وسط المزرعة ، بداخله ساعة حائط تشير إلى الحادية عشر إلا الربع . . وهى وحدها تتحرك بينما كل شىء قد توقف . . الأم نامت . . وكذا الشقيقة . . ماكلين ارتدت ملابس النوم . فى الخارج لا يسمع من الأصوات إلا مرور الرياح . .

المزرعة فى تلك الساعة من الليل ، منقطعة عن العالم حتى الصباح كل شىء توقف . . كأن الزمان لا يمضى ، والعمر لا يتقدم .

وفجأة يأتى صوت أزيز طائرة . . تحلق فوق المزرعة تماما الصوت يشتد ، ثم يخبو مبتعدا ، ويسقط جسم ثقيل يرتطم بالأرض بعنف .

كان من الطبيعى ان يتصور ماكلين ان الجسم الثقيل هو قنبلة ستنفجر على الفور .

تجمد فى مكانه فى انتظار الانفجار المروع . . الا أن شيئا لم يحدث . .

فتح النافذة ، وأطل برأسه لم ير شيئا . . فخرج وسط الظلام الدامس متجها نحو السور الذى يطل على الحقول . . وهناك لمح البراشوت الأبيض يلمع وسط الحقول . .

انطلق يعدو وما كاد يصل حتى كان الطيار قد هبط لتوه إلى الأرض ، والرياح تعصف بالبراشوت ، وتدفع بالطيار فوق الحشائش .

* * *

بمجرد هبوطى ، وارتطامى الشديد بالأرض ، أحسست أن ساقى قد كسرت . . بدأت فك أربطة البراشوت ، وربط الحذاء ذى الرقبة الطويلة . . وبقيت على هذا الحال بضع دقائق . . لا أعرف على وجه التحديد أين أنا . . ولا ماذا أفعل . .

وفجأة تنبهت الى صوت رجل يصرخ باللغة الانجليزية .

— من أنت . . هل أنت ألمانى ؟

استدرت نحو اتجاه الصوت وأنا أجيب :

— نعم أنا ألمانى . . أنا الكابتن هورن . . أريد الذهاب الى « نجافيل هاوس » معى رسالة هامة للورد هاميلتون . .

حاولت الوقوف . . لم أستطع بسبب الكسر فى ساقى . . وفجأة دوى فى الحقول البعيدة صوت انفجار خزان البنزين الاضافى . . وتحولت الطائرة إلى كتلة من النيران . . اتجه الفلاح الانجليزى ببصره اليها وهو يسألنى :

— هل كان معك أحد بالطائرة ؟ !

— لا . . لم يكن معى أحد . . لقد طرت وحدى .

— معك سلاح ؟ !

— أننى غير مسلح . . لا أحمل أسلحة ! !

مر الفلاح ببصره على سترتى . . وكأنه يفتشنى بعينيه . . وفى هذه

اللحظة جاء صوت فلاح آخر يعدو كالأرنب وسط الحقول وهو يسأل بصوت مرتفع :

— ما الذى حدث ؟ ! من هناك ؟ !

رد الفلاح الأول :

— أنه ألمانى . . أذهب لاستدعاء الجنود . .

وما كاد الفلاح الثانى يستمع الى هذا الرد حتى عاد يركض مهرولا . . وانطلق نحو مكان الجنود انطلاق الصاروخ الموجه . .

* * *

عرفت من خلال الحديث أن الفلاح الأول اسمه « ماكلين » . . والثانى اسمه « كريج » .

استندت على كتف ماكلين ، وسرنا تحت ضوء القمر إلى البيت لنجد مسز ماكلين قد ارتدت معطفا منزليا فوق ملابس النوم ، ودست قدميها فى شبشب من الصوف وبادرها ماكلين بلهجة آمرة .

— افتحى الباب . . لقد جئت بالألمانى ! !

جلست على مقعد بجوار المدفأة ، ومسز ماكلين تحملق فى بنظراتها الثاقبة ، لا تكاد ترفع عينها عنى . . كأنها لا تصدق ما ترى . . ويبدو أنها لم تكن قد رأت ألمانيا من قبل على الاطلاق . . أو على الأقل هكذا وجها لوجه . .

أسندت رأسى للخلف فى استرخاء . . ووقفت مسز ماكلين تقول وهى متجهة نحو المطبخ :

— سأعد لكما قدحا من الشاى . .

كانت الأسرة تشعر نحوى بنوع من الود . . أو قل هكذا تقاليد الريف الاسكوتلندى تجاه الغرباء ! !

قلت لماكلين :

— أن معى رسالة هامة للورد هاميلتون . . هيا لنذهب اليه . . لا شك أنه قريب جدا من هنا ؟

— أن الجنود سيحضرون حالا . . لأن عليك فى جميع الأحول الانتظار . . فأنا مجرد مواطن مدنى . . لا أستطيع التصرف . .

عادت مسز ماكلين تحمل الشاى وهى تسألنى :

— هل ترغب فى كوب من الشاى! ؟

قلت بسرعة :

— شكرا جزيلا . . لا . . أننى لا أستطيع تناول الشاى الآن . . ولكن هل لى بكوب من الماء ؟ !

وفجأة سمعنا ضوضاء بالخارج وطرقات عنيفة على الباب وأصوات بعض الجنود . .

اقتحموا المنزل . . ومع أحدهم مسدس قديم ، شهره وهو يسأل :

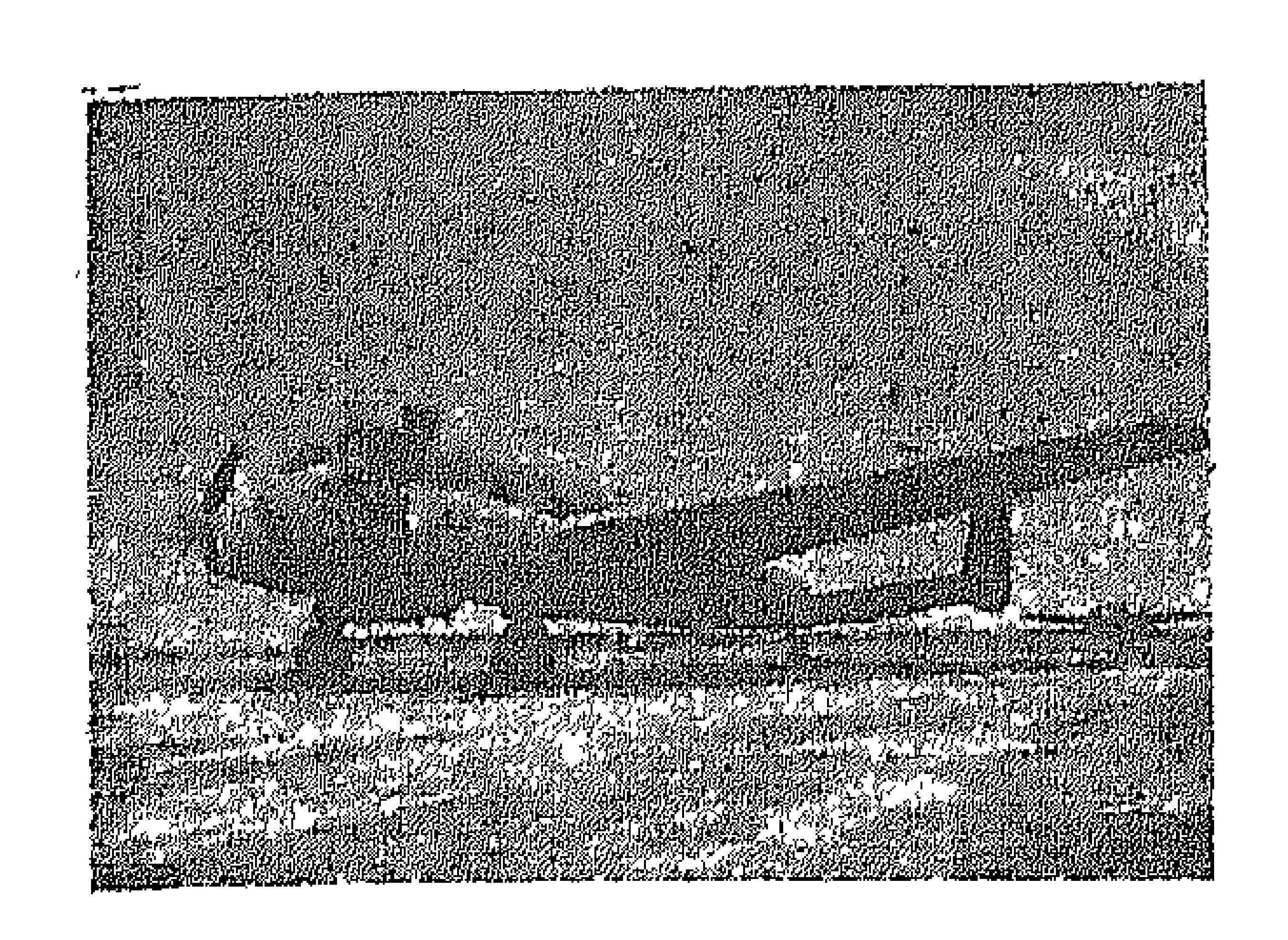
أين الأسير الألمانى ؟ !

فوجىء الجنود بأننى جالس فى هدوء . . بجوار المدفأة .

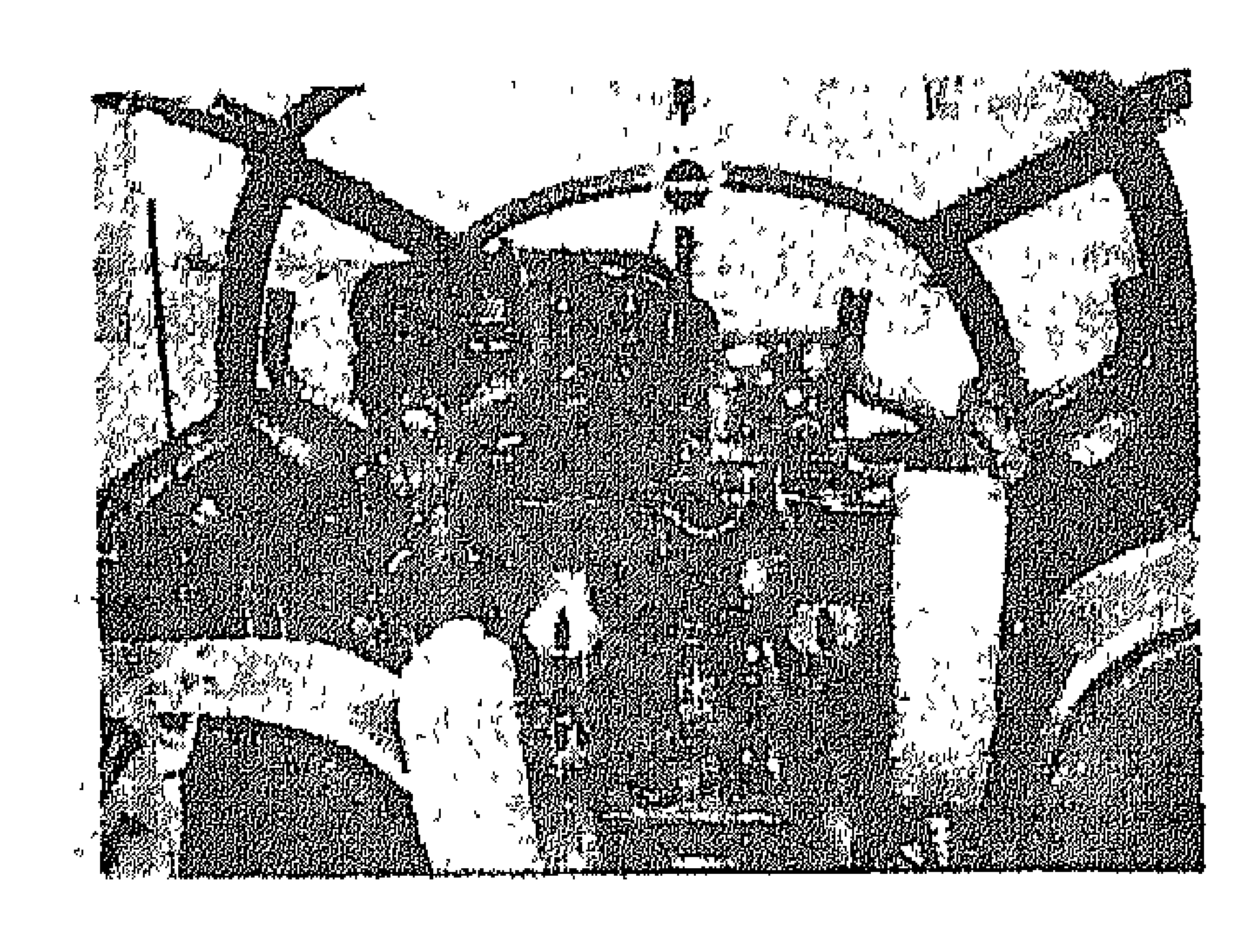
كانت تصرفاتهم تنم عن جهل شديد بالقواعد العسكرية . . ويبدو أنهم من رجال الدفاع المدنى . . لأنهم يرتدون الملابس المدنية ، وعلى أذرعتهم شارة الدفاع المدنى . . وعرفت فيما بعد أنهم كانوا فى أجازة وأن الفلاح الطيب « كريج » استدعاهم من بيوتهم ، وانتزعهم من أحضان زوجاتهم !

صرخ أحدهم فى وجهى مشهرا مسدسه القديم .

— ارفع يديك إلى أعلى . . هيا !



. . الطائرة التى اقلع بها هيس من المانيا إلى انجلترا ليبحث مع اللورد هاميلتون الصلح الذى ينقذ المانيا من الحرب . . !!



وببساطة سأل ماكلين .

— هل ستصحبونه معكم ؟ !

لم يجب أحد . . ولكنى فتحت حقيبة أوراقى وأخرجت صورة لابنى « فولف » ومددت يدى أقدمها لماكلين قائلا : .

— أنه ابنى لقد رأيته لآخر مرة صباح اليوم . . ولا أعرف متى أراه مرة أخرى . .

ناول ماكلين الصورة لأمه ، التى تطلعت اليها فى حزن ظاهر ثم اعادتها الى بينما الجنديان يدفعاننى نحو السيارة التى يدور محركها امام باب المنزل . . سيارة يملكها واحد من جيران الفلاح . « كريج » !

* * *

انطلقت السيارة المدنية (تكركر) على الطريق الزراعى ، وأنا جالس بين حارسى ، وأحدهما يضع مسدسه فى ظهرى طول الوقت .

كانت السيارة تتأرجح فيهتز المسدس بعنف . وعرجت فى طريق جانبى غير ممهد ثم توقفت أمام مبنى يبدو أنه بنى أثناء الحرب لأغراض الدفاع المدنى وقال أحد الحراس .

— سننزل هنا !

كان الأسير أطول من حراسه قامة ، وأقوى بنية ، علاوة على مظهره الذى تبدو عليه ملامح اصحاب السلطة . . أولئك الذين اعتادوا اعطاء الأوامر لتطاع على الفور . .

الطريق معتم . . فالمنطقة عسكرية ، والاضاءة تكاد تكون منعدمة الا أن صوت الجنود ، داخل المبنى ، وصخبهم ، وضحكاتهم . . كانت المؤشر الوحيد الى أن فى هذا المكان حياة .

يبدو أن الجنود فى فترة راحة ، وأصواتهم المرتفعة بالداخل جعلتهم لا يسمعون طرقات الباب العنيفة .

وقفنا نطرق الباب . . لا أحد يسمع . . شىء يدعو بالفعل للسخرية . . أن ذلك لا يمكن أن يحدث فى ألمانيا . . هكذا قلت لنفسى . .

كانت أصوات الجنود ، لا تكاد تهدأ لحظة واحدة ، الى أن سمعنا احد الجنود يقول لزميل .

— أننى أسمع طرقات على الباب .

بلا مبالاة . . انطلق صوت يقول :

— من بالباب ؟ من الذى يطرق الباب .

كنت قد أصيبت بالارهاق . . واريد أن اصل الى اناس يقدرون مسئولية الوقت فقلت :

— أنا ضابط ألمانى . . افتحوا :

يبدو ان كلماتى جرحت كبرياء الرجل الذى يضع المسدس فى ظهرى . . فزغدنى به بشدة وهو يصرخ فى وجهى

— انتباه !

اتخذت الوضع « انتباه » الذى تعلمناه فى أوائل سنوات عمرنا ولكنه استطرد بحزم قائلا . .

— لا تتكلم انت على الاطلاق . .

فتح الجنود الباب بسرعة ، وجرى بعضهم كالفيران يكمل ارتداء ملابسه العسكرية . . بينما الجنود الذين كانوا يثرثرون منذ لحظات وقفوا مشدوهين . . عيونهم ثقيلة محملقة بجمود . . وكأننى ضابط كبير جئت للتفتيش عليهم .

خرج احد الجنود من غرفة جانبية مظلمة وهو يكمل ارتداء ملابسه الرسمية يحمل ورقة وقلما وطلب منى أن اسلم حقيبة يدى . . فتحها وجد بها مظروفا عليه اسم وعنوان اللورد هاميلتون كنت وجهته اليه فى حالة وفاتى . . كما وجد بعض الادوية والمسكنات والفيتامينات وصورة « فولف » وكارت باسم هاوسهوفر واخر باسم ابنه البرخت هاوسهوفر

وفجاة توقفنا على صوت سيارة عسكرية تقف امام المبنى ويهبط منها عدد كبير من الجنود المسلحين . . دفعوا الباب باقدامهم وصحبونى الى جلاسجو . .

أستمع اللورد هاميلتون الى نشرة الأخبار . . غارات عنيفة على لندن . . طائرة المانية تسقط وتتحول الى حطام . .

قال اللورد هاميلتون وكأنه يحدث نفسه . .

ـ الحمد لله . . سنتمكن الليلة من النوم بلا ازعاج . .

واستعد للنوم . . الا أن جرس التليفون دق . .

الساعة تقترب من الواحدة صباحا . . وليس من المألوف أن يتلقى اللورد أية مكالمات فى تلك الساعة المبكرة من الصباح . .

رفع السماعة . . فاذا بالمتحدث ضابط من القيادة المركزية يتكلم بلهجة متوترة . .

ـ سيدى . . هل تسمح بالحضور الان الى القيادة المركزية

ـ لماذا . . هل وقع هجوم ؟

ـ لا يا سيدى !

ــ هل اقتحم الالمان المنطقة ؟

لا . . يا سيدى . . !

ــ اذن لماذا توقظنى فى تلك الساعة وتقلق نومى ؟

قال الضابط بهدوء

ــ معذرة يا سيدى . . اننا نجرى تحقيقا الآن ويقتضى الامر الحصول منك على بعض الايضاحات . .

قال اللورد بغضب :

ــ ماذا حدث . . قل لى

أجاب الصوت :

ــ سيدى . . ان طيارا المانيا اسمه الفريد هورن قد هبط بالمظلة الليلة ويريد أن يتحدث اليك شخصيا

عاد اللورد يسأل من جديد ليتأكد من الاسم

ــ ماذا . . ما أسمه ؟ !

ــ الفريد هورن . .

ــ اننى على أية حال لا أستطيع الحضور الان . . ارسل لى سيارة تقلنى اليكم فى السابعة صباحا . .



. . هيس سنة ١٩٣٦ . . ويومها كان عضوا بالبرلمان ووزيرا والمسئول الأول عن تنظيم الحزب النازى

— سمعا وطاعة

حاول اللورد تذكر اسم هذا الطيار . . ربما التقى به أثناء زيارته لألمانيا . . ترى من هو . . ولماذا حلق بطائرته فوق بيتى . . ولماذا يطلب مقابلتى بالاسم . .

كان نبأ الطيار الألمانى قد بلغ تشرشل وكبار رجال الدولة والعسكريين . . وكانوا جميعا فى انتظار المقابلة الحاسمة بين الطيار الالمانى الذى يقول أن أسمه الفريد هورن وبين اللورد هاميلتون . . وتقلب جميع ساسة بريطانيا فى مضاجعهم . . فى انتظار ما سيأتى به الغد .



. . غلاف مجلة شتيرن . . العدد الذى ضرب رقما قياسيا فى التوزيع وتناول مهمة هيس . . !!

. . ملف هيس . . من مذكرات هتلر المزورة . . أثار ضجة لانه أظهر هتلر كرجل سلام . . حاول ايقاف الحرب إلى حد تكليف نائبه باخطر مهمة فى تاريخ الحرب العالمية الثانية . . !!

هتلر المنتصر يتمزق !
وتشرشل المنهزم .. يتفرج على فيلم لاخوان ماركس

الفصل الثامن

وصلت إلى جلاسجو ، ونقلونى إلى مستشفى ملحق بوحدة عسكرية فى (مارى هيل) حيث وجدت عددا من ضباط المخابرات فى انتظارى !

سألونى عن اسمى قلت لهم :

— أنا كابتن الفريد هورن !

وبدأوا يضيعون الوقت بالأسئلة ، كما لو كنت أسيرا قد وقع بين أنيابهم !

أن هتلر فى انتظار كلمة تأتيه من لندن عن مهمتى ، وقد يدفعه القلق إلى التصرف على أساس أن مهمتى قد فشلت ، وبالتالى تدهير كل الجسور . . أن كل دقيقة تضيع معناها أن الأمل يخبو . .

قلت للمحقق بحدة

— لقد قلت لك أننى أحمل رسالة سرية وعاجلة إلى اللورد هاميلتون ، وأنا لست أسيرا كى تسألنى بهذه الطريقة . . اتصل الآن به وأبلغه أننى هنا ، وإلا حملتك أنت شخصيا مسئولية ضياع الوقت !

بحلق الضابط بعينين مذعورتين فى وجهى ، بل لقد ارتعدت أجسام جميع الضباط بالحجرة . . ربما لأنهم لم يعتادوا هذه اللهجة من كبار قادتهم . . والحقيقة أن الملحق كان يسألنى بلغة ألمانية سليمة ١٠٠ ٪ مما ساعدنى على كسر حاجز اللغة وأنا أوجه إليه التحذير .

حاول الضباط معتذرا خارج غرفة التحقيق . . وأصدر تعليماته إلى مساعديه لنقلى إلى الغرفة التى أعدوها لى بالبدروم . .

أين الأسير الألمانى ؟ !

ذهب الضابط للاتصال باللورد هاميلتون . . بينما نقلونى إلى غرفة وقف على بابها جنديان بالمدافع الرشاشة . .

كنت مرهقا من التعامل مع أناس لا يقدرون المسئولية ، علاوة على أن اليوم كله كان ملئا بأسباب الارهاق . . غفوت حتى صباح يوم الأحد ١١ مايو سنة ١٩٤١ .

فتحوا الباب ووجدت أمامى اللورد هاميلتون . . تماما كما رأيته على غلاف الكتاب الذى كانت تقرأه زوجتى إيلزا صباح أمس . . كان معه عدد من ضباط المخابرات . . فقلت له :

— سيدى اللورد أريد التحدث إليك على انفراد !

خرج الضابط على الفور ، وأغلقوا الباب ، وأصبحت وحدى مع اللورد هاميلتون .

قلت له :

— أنا رودلف هيس ! !

لم يصدق اللورد هاميلتون ، كان من الصعب عليه تصديق ذلك . . فمددت يدى لجيب سترتى وأخرجت صورة لى قائلا له :

— هذا هو الدليل . . هذه صورتى .

قال اللورد :

— نعم هذه صورتك . . ولكن من الذى يؤكد أن تلك نفسها هى صورة النائب هيس ! ! أن صورتك لا تعنى أنها صورة هيس ! !

بدأت أعصابى تتوتر لهذا البرود العجيب ، وإضاعة الوقت . . فقلت له :

— أننى رسول من أجل السلام . . والفوهرر لايريد (إفناء) بريطانيا أنه يريد وقف الحرب !

لم أكن فى الحقيقة أجيد اللغة الانجليزية إجادة تامة . . كما كانت لغة اللورد الألمانية سيئة للغاية . . ولكنى حاولت أن أشرح له دوافع الرحلة وعن الأمل فى عقد سلام بين انجلترا وألمانيا .

كانت المفاجأة مثيرة لأعصاب وعقل اللورد هاميلتون ، الذى حاول أن يلتقط أنفاسه قائلا :

— لابد من استدعاء مترجم على الفور . . لأنه إذا صحِ ما فهمته من حديثك . . فإنه أمر بالغ الخطورة ! !

قلت له . . لا . . لا داعى الآن . . ولنستعن بالمترجم أثناء المحادثات الرسمية . . أرجوك الاتصال بتشرشل لابلاغه بالموضوع فورا !

وضع اللورد هاميلتون الصور التى قدمتها له فى جيبه وهرول خارجا ، حيث وجد على باب الغرفة ضابط المخابرات فابتدره قائلا :

— ربما يكون هذا الرجل أسيرا فى منتهى الأهمية . . واعتقد أنه من الأفضل نقله الآن إلى مكان سرى خارج جلاسجو ووضعه تحت حراسة مضاعفة . . وتلبية كل رغباته . .

عرفت بهذه التعليمات عندما نقلونى بعد خروجه مباشرة إلى المستشفى العسكرى بقلعة بيوكانان فى درايمن التى تبعـد نحو ١٨ ميلا عن جلاسجو .

★ ★ ★

استقل اللورد هاميلتون السيارة . واتجه على الفور إلى مكان سقوط الطائرة . . فشاهد الحطام بنفسه ثم عاد إلى مقر المخابرات حيث طلب قائد سلاح الطيران تليفونيا . . وطلب إعداد طائرة ، لأن به أمرا عاجلا يريد التباحث بشأنه مع وزارة الخارجية . بشأن مصرع الضابط الفريد هورن الذى هبط بالمظلة !

وافق قائد سلاح الطيران . . وعاد اللورد يرفع السماعة من جديد ليجرى اتصالا شخصيا مع اللورد الكسندر كادوجان الوكيل الدائم لوزارة الخارجية . .

بعد تحويل الخط من مكتب إلى مكتب ومن إدارة إلى إدارة جاء صوت سكرتير كادوجان يقول :

— سيدى اللورد . . أن السير كاردجان مشغول للغاية . . وربما يستطيع أن يلتقى بك بعد أسبوع أو عشرة أيام . .

جن جنون اللورد هاميلتون وهو يقول للسكرتير :

— أنه أمر بالغ الخطورة . . و . . و . .

وهنا تداخلت الخطوط وجاء صوت ثالث . . أنه جوك كولفيل السكرتير

الخاص لتشرشل . . الذى ابتدر اللورد هامليتون بقوله :

— أن تشرشل فى انتظارك !



استقل اللورد هامليتون الطائرة ، ووصل إلى (نورث هولت) لمقابلة تشرشل ، إلا أنه وجد فى المطار ضابطا فى انتظاره . . قدم إليه مظروفا مغلقا عليه كلمة « سرى جدا » . .

فضة بسرعة فإذا به يحتوى على ورقة واحدة مكتوب عليها « أقلع بالطائرة مرة أخرى وواصل إلى مطار (كبيندنجتون) على بعد عدة أميال من أكسفورد » .

كانت تلك جزءا من خطة الأمن الموضوعة لعدم تحديد المكان الذى يقيم به تشرشل . . إذا كان تشرشل يقضى عطلة نهاية الأسبوع فى (ديتشبى بارك) وهى تبعد عدة أميال عن (بلنهايم) مسقط رأسه . .

كان تشرشل يقضى أجازة نهاية الأسبوع مع بعض أصدقائه القدامى فى قلعة ضخمة ترجع إلى القرن الثامن عشر . . تشغل مساحة شاسعة فهى تضم سبع صالات استقبال و ٢٤ غرفة نوم وعشرة حمامات . . وكانت هذه القلعة هى المكان السرى الذى يقضى به تشرشل عطلة نهاية الأسبوع طوال سنوات الحرب . .

كانت سكرتيرته مسز (تشير برون) تتلقى المكالمات التليفونية وتدقها على الآلة الكاتبة ثم تضعها على المائدة بجواره أولا بأول وكانت كلها بالطبع عن الغارات الجوية الألمانية التى لا تهدأ . .

★ ★ ★

وصل اللورد هاميلتون ليجد تشرشل وضيوفه قد انتهوا من تناول طعام الغداء ، وجميعهم يرتدون الملابس الرسمية .

وقف رئيس الوزراء يحيي صديقه القديم اللورد هاميلتون وعلى وجهه ابتسامة عريضة ، وهو يسأل :

— ماذا حدث ؟ !

— آسف يا سيدى لم أكن أستطيع ذكر أى شىء بالتليفون . . أننى أريد التحدث إليك على انفراد !

كان الضيوف قد انتهوا من تناول الفاكهة . . وانسحب الواحد منهم تلو الآخر من قاعة الطعام . . وبقى تشرشل وهاميلتون والسير سينكلار وزير الطيران . .

وبدأ اللورد يتكلم . .

قال :

— أن الضابط الذى هبط أمس فى جلاسجو ، وذكر أن أسمه الفريد هورن . . هو فى الحقيقة رودلف هيس ، وجاء يعرض السلام ، ويقول أن هتلر يريد انهاء الحرب مع بريطانيا وليس تدميرها . .

ودس يده فى جيبه مخرجا صورة هيس وهو يواصل الحديث .

— أنه يشبهه . .

توقف اللورد عن الكلام . . ولم ينطق أحد . . بل لقد نظر إليه تشرشل كما ينظر الانسان إلى مجنون . . يهذى . .

كانت القصة أشبه بالخيال . . أقرب إلى اسطورة لا يمكن تصديقها ولكن تشرشل وضع سيجاره الضخم فى فمه قائلا . .

— لا بأس . . أيها اللورد الشاب . . هيا نرى الاخوان ماركس !

كان قد تم إعداد جهاز العرض فى إحدى الصالات وجلس تشرشل وضيوفه يضحكون . . بينما استرخى اللورد على كرسيه وذهب فى سبات عميق ولم يستيقظ إلا فى منتصف الليل عندما أضيئت الأنوار بعد انتهاء عرض الفيلم الذى كان يحمل اسم « إخوان ماركس يتجهون غربا » ! !

كانت أفلام إخوان ماركس هى الدواء المنعش لتشرشل ووسيلة لتجديد نشاطه الذهنى وحيويته ، يبدأ بعدها المرحلة الثانية من يومه !

بعد انتهاء العرض انصرف جميع الضيوف وتأبط تشرشل ذراع اللورد هاميلتون وسار نحو مكتبه . . واستمر تشرشل يسأل وهاميلتون يجيب

حتى الساعة الثانية صباحا . .

ثم استند تشرشل على كرسنيه فى استرخاء مداعبا سيجاره الضخم بلسانه قائلا . .

— لنفرض أنه هو . . ماذا يريد ؟ . . ولماذا جاء بهذه الطريقة ؟ . . ولماذا لم تدع ألمانيا أى نبأ عن رحلته ؟ . . ثم قبل ذلك كله هل الشخص الراقد الآن فى المستشفى هو هيس أم أنه (دوبلير) له جاء لتضليلنا ؟ !

يقصد تشرشل بكلمة « دوبلير » الشخص الذى تجرى له عملية تجميل ، ليصبح تمام الشبه لشخص آخر ، ويدرب على جميع عاداته وتقاليده . وقد قامت بريطانيا بعملية من هذا النوع سنة ١٩٤٤ عندما أجريت عملية تجميل كاملة للممثل كليفتون جيمس ، لكى يصبح نسخة طبق الأصل من الجنرال مونتجمرى . . ثم كلفوه بالسفر إلى جبل طارق لاجراء محادثات مع الحاكم الانجليزى ثم يطير إلى شمال أفريقيا . . كل ذلك على أنه مونتجمرى . . وكان الهدف هو تضليل الألمان ، وجعلهم يتصورون أن الحلفاء سيهبطون فى حوض البحر المتوسط ، بينما كانوا فى الحقيقة يعدون لعملية نورماندى . . ونجحت عملية تزوير مونتجمورى . . لأن الألمان لم يتصوروا أن قائدا مثل مونتجمورى فى أفريقيا بينما الهجوم الكبير سيبدأ فى قارة أخرى . . فى أوربا ! ! » . .

★ ★ ★

أمضى اللورد هاميلتون ليلته فى ضيافة تشرشل وفى صباح يوم ١٢ مايو ١٩٤٦ . . انطلقت ثلاث سيارات نحو لندن . . الأولى تقل تشرشل والثانية تقل هامليتون والثالثة تقل بعض ضباط الأمن . . واتجه الموكب فى الشوارع الخالية ، متجاهلا إشارات المرور الحمراء أو قواعد المرور حتى وصل إلى داوننج ستريت مقر الحكومة البريطانية فى الساعة العاشرة صباحا . .

دخل تشرشل مكتبه واستدعى أنطونى إيدن وزير خارجيته وقص عليه الحكاية كما سمعها من اللورد هاميلتون ثم ختمها بقوله :

— لابد من التأكد أولا من أنه هيس أم لا . . لأنه إذا صح أنه هيس فأعتقد أنه اختلف مع هتلر وهرب ! !

خرج إيدن من عند تشرشل لكى يستدعى الكسندر كادوجان وكيل الخارجية

ليبحث معه وسيلة التأكد من شخصية هيس . . وبعد نقاش طويل وقف كادوجان صارخا بكلمات أرشميدس الشهيرة :

— لقد وجدتها . . أن الذى سيأتينا بالخبر اليقين هو إيفون كيرباتريك مدير القسم الأوربى بالاذاعة البريطانية . . لقد كان يعمل سكرتيرا أول بالسفارة البريطانية فى برلين فى سنة ١٩٣٣ حتى سنة ١٩٣٨ ويعد خبيرا فى شئون الحزب النازى . . وربما يستطيع هو أن يناقش الطيار مناقشة حزبية ليستطيع منها أن يتأكد هل هو هيس أم دوبلير له ؟ !

وافق أنطونى إيدن على الفكرة ووقف كادوجان يدير قرص التليفون ليتصل بكيرباتريك بمكتبه بالاذاعة ويسأله :

— هل رأيت رودلف هيس عن قرب وأنت فى ألمانيا ؟ !

— نعــم ! !

— هل يمكنك التعرف عليه إذا رأيته الآن ؟

— بلا شك . . أننى أعرفه عن قرب !

— إذن أحضر حالا ! !

وعلى الفور صدر قرار باعداد طائرة تقل كيرباتريك ولورد هامليتون إلى اسكوتلندة . . لاعداد تقرير عاجل يرفع لمجلس الحرب . يجيب على السؤال الحائر . . هل الطيار هو هيس . . أم أنه دوبلير له جاء يخفى خطة ألمانية لا يستطيع أحد التكهن بها ؟

★ ★ ★

وصل كيرباتريك واللورد هاميلتون إلى (بيو كاناف كاسيل) عند منتصف الليل . . كان فى انتظارهم قائد المستشفى الذى صحبهم على الفور إلى البدروم . . عبر ممرات ضيقة . . رطبة . . إلى أن وصلوا إلى باب خشبى فتحه الضابط . . ليجد الرجلان غرفة متواضعة للغاية مسرفة فى الضيق ، لها سقف منخفض ، تخصص وقت السلم لأقل عساكر الخدمة رتبة !

أضاء الضابط النور . . ضوء خافت خجول . . كشف عن وجه رجل نائم يرتدى بيجاما زرقاء كالتى يرتديها الجنود فى المستشفى وينام على سرير (سفرى) له ملة حديد . . ويتدثر ببطانية من بطاطين الجيش ذات اللون البنى .

هو هيس . .

تعالو نسمعه .

★ ★ ★

استيقظت فجأة لأجد ثلاثة رجال يحملقون . . عيونهم مبحلقة ، مندهشة . . مرهقة ، تعرفت على الفور على كيرباتريك ، واللورد هاميلتون . .

كنت أعرف كيرباتريك منذ كان فى برلين ، وهو يتكلم اللغة الألمانية بطلاقة .

جلس الرجلان كل منهما على كرسى خشبى . . بينما أتكأت أنا على السرير أشرح مهمتى . . قلت لهما :

— أننى جئت شخصيا لكى أقنع تشرشل أنه لا أمل فى أن تكسب بريطانيا الحرب ، وأنه من الحكمة أن يبدأ مفاوضات السلام . . الجيش البريطانى طرد من أوربا بأسرها منذ عام كامل . . وأنه ليس من القوة أو القدرة على العودة مرة أخرى . . وأن الغارات الألمانية على بريطانيا سوف تشتد وتزداد قسوة وعنفا . . وأنه إذا قطعنا عليكم إمداد التموين فإنكم ستموتون من الجوع تدريجا وعندها ستضطر بريطانيا لعقد الصلح وهى مرغمة جائعة لا تستطيع مواصلة الحرب . . أننى جئت بشعاع من الأمل إليكم .

ذهل الرجلان لكلامى ، وأنصتا تماما لما أقول ثم نظر كل منهما للآخر . . وقال كيرباتريك :

— سيدى . . هل ينوى هتلر غزو بريطانيا ؟ !

— هذا السؤال لا أجيب عليه ونحن لا نزال فى حرب !

— وما هى طلباتك ؟

— الاتفاق على أن تسيطر ألمانيا على القارة الأوربية وتستعيد مستعمراتها فى أفريقيا . . وفى نفس الوقت تسيطر بريطانيا على مستعمراتها وراء البحار . . وهذا ما ستضمنه ألمانيا لها . .

بدت السعادة على وجه كيرباتريك وهاميلتون ولكنى استطردت قائلا :

— على فكرة . . أن هتلر لن يتفاوض مع تشرشل . . ولذلك يجب تعيين رئيس وزراء جديد . . يثق هتلر فيه ويستطيع التفاوض معه ! !

كما طلبت فى نفس الوقت الافراج ، عن أسير ألمانى حددت اسمه ، لكى يعمل سكرتيرا خاصا لى خلال الاتصالات التى سنجريها تمهيدا لمؤتمر الصلح

بين هتلر ورئيس وزراء بريطانيا المنتظر .

وفجأة . . توقفت على طرقات خفيفة وجاء صوت يدعو كيرباتريك لمحادثة تليفونية عاجلة . .

كان على الخط أنطونى إيدن يستفسر عن المقابلة ، ونظرا لحساسية الموضوع طلب إليه العودة إلى لندن فورا لاعداد تقرير تفصيلى بما حدث . .

بعد مكالمة جاءنى كيرباتريك وهاميلتون يستأذنان فى الانصراف . . بينما واصلت أنا نومى ! !

★ ★ ★

فى فيلا بيرجهوف كانت الصورة مختلفة تماما . .

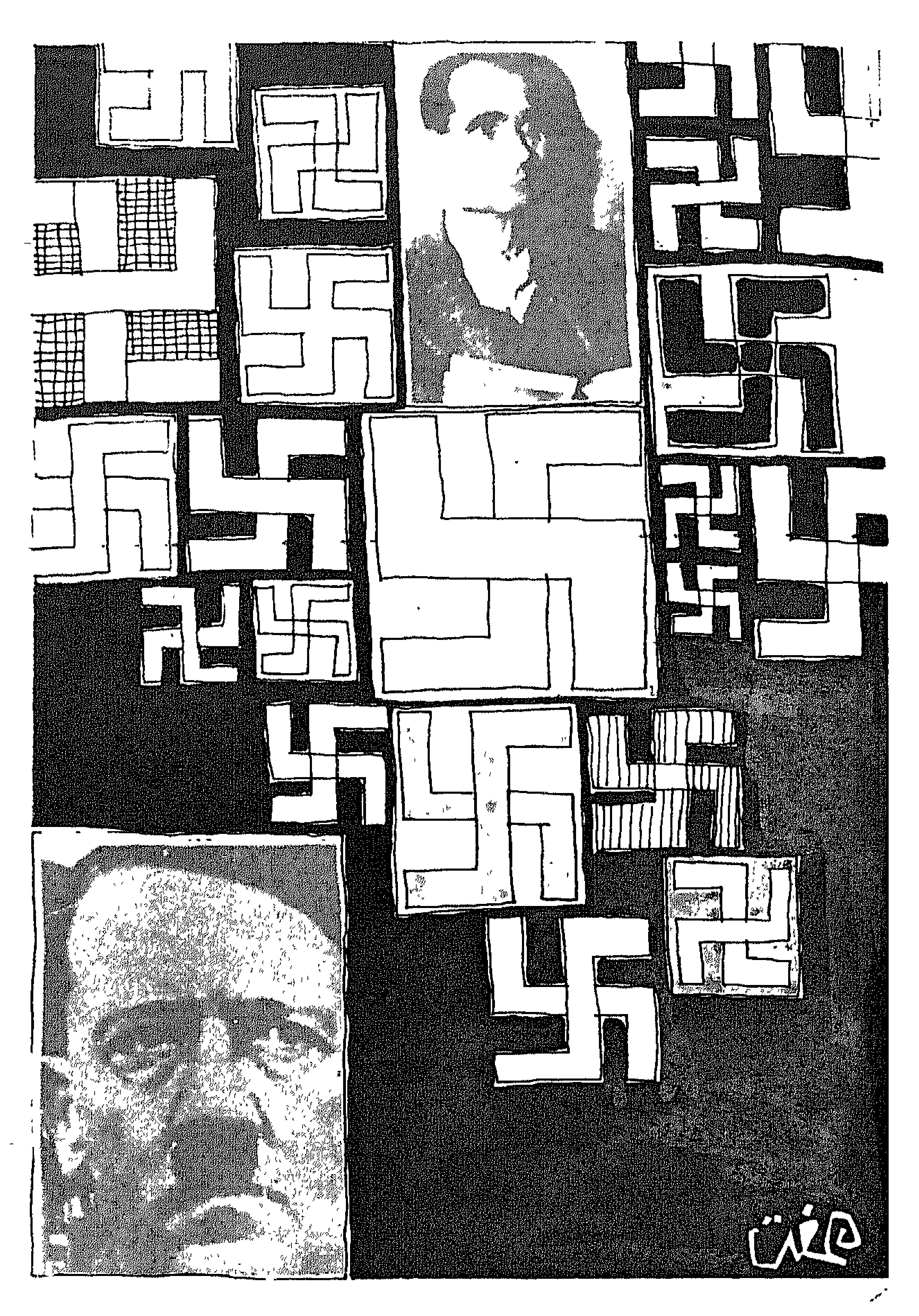
هتلر يجلس خلف مكتبه يحسب الدقائق . . والقلق يمزقه . . أن المسافة بين أوجسبورج ودونجافيل هاوس نحو ٨٥٠ ميلا وهيس حلق فى السادسة وعشر دقائق . . ومعنى ذلك أنه إذا افترضنا سواء الأحوال الجوية فإنه من المفروض أن يصل حسب التوقيت الصيفى فى بريطانيا فى الساعة الحادية عشرة مساء . . ولم تأت كلمة واحدة من بريطانيا . . هل سقط فى البحر . . هل أسقطته المدفعية المضادة للطائرات ، هل يحاول البريطانيون الآن الحصول على معلومات سرية . .

لا أحد يدرى . . وكان أكثر ما يقلق هتلر أن موسولينى عندما سيعلم بنبأ وصول هيس إلى لندن . . قد يتصور أن ألمانيا تريد عقد صلح منفرد مع بريطانيا من وراء ظهره . .

المهم . . أراد هتلر أن يقطع الشك باليقين . . فأراد أن يطلق بالونة اختبار . . وهى أن يعلن . . أن هيس قد فقد . . ربما أتاه الخبر اليقين من لندن . . وبالفعل استدعى سكرتيره الصحفى . . وأذيع البيان من ميونيخ مساء يوم الأحد . .

يوم الأحد ١١ مايو ١٩٤١ . . يسير الصحفى السكوتلندى إيريك شوفيلد رئيس تحرير صحيفة « الديلى ريكورد » بجانب كلبه عندما يشهد حركة غير عادية فى هذا المكان الهادىء . .

يتجه إلى أحد المارة يسأله . . فإذا به يعلم أن طيارا ألمانيا هبط بالمظلة أمس . . وأنه تم اعتقاله . .



أراد هتلر أن يطلق بالونة اختبار . . فأعلن أن هيس قد فقد . . !!

قصة صحفية مثيرة . . أسرع إلى التليفون يطلب إرسال مندوب صحفي ومصور لتصوير الطائرة وإجراء أحاديث صحفية مع شهود الحادث .

خرج رئيس قسم التحقيقات الصحفية بالجريدة جون سيمبسون وأعد تحقيقا صحفيا مصورا تحدث فيه الفلاح دافيد ماكلين وأمه وشقيقته وقالوا أنه ضابط ألماني خطير وأنه يحمل رسالة للورد هاميلتون ! !

اعترضت الرقابة على النشر نظرا لخطورة الموضوع . . إلا أن بيان إذاعة ميونيخ عن فقد هيس جعل الحكومة البريطانية توافق على النشر . . بل وتستغله للدعاية ضد ألمانيا . . كجزء من الحرب النفسية لتدمير سمعة ألمانيا . . ومعنويات قواتها المنتصرة !

لم يطق هتلر الانتظار أكثر من ذلك فقرر في مساء يوم الاثنين ١٢ مايو ١٩٤١ أن يرفع عن كاهل ألمانيا ، أعباء فشل مهمتي . . كنت قد طلبت منه أن يتهمني بالجنون . . إلا أن جورنج قال له :

— كيف نتهمه بالجنون وكان لآخر لحظة يتولى سلطاته !

قال هتلر :

— لا بأس . . ليس أمامنا حل آخر !

وصدر البيان التالي يوم الثلاثاء ١٣ مايو ١٩٤١ .

« يعلن الحزب الوطني الاشتراكي رسميا . . أن عضو الحزب رودلف هيس ، الذي كان يعاني المرض منذ سنوات طويلة ، الأمر الذي أدى إلى منعه من الطيران نهائيا . . قد استطاع ، مخالفا التعليمات ، حيازة طائرة ، وأقلع بها من أوجسبورج يوم السبت ١٠ مايو ولم يعد حتى الآن . .

ويشير الخطاب الذي تركه قبل اقلاعه إلى أنه يعاني للأسف من الاختلال العقلي ، ويخشى أن يكون قد وقع فريسة للهلوسة . . وقد أصدر الفوهرر أمره بالقبض على الآتي أسماؤهم :

أولا : جميع مساعدي هيس الذين ساعدوه دون أن يمنعوه من الاقلاع أو إبلاغ الفوهرر .

ثانيا : كارل هاو سهوفر ! !

ثالثا : زوجته إيلزا برول ! !

★ ★ ★



عملت خادمة فى استراحة الضباط الفرنسيين ..

ماذا حدث لايلزا هيس ؟!
تعالوا نسمعها ..

الفصل التاسع

كان « رودلف » قد وعدنى بالعودة من برلين يوم الاثنين . وكنت قد تماثلت للشفاء من وعكة صحية أدت إلى اعتكافى فى الفراش يوم السبت ..

لم تكن تلك هى المرة الأولى التى يقضى فيها « رودلف » عدة أيام خارج المنزل .. كانت مسئولياته ، خصوصا أيام الحرب ، تقتضى منه الغياب عن المنزل ، ولم أكن من ذلك النوع من الزوجات اللاتى يتدخلن فى شئون أزواجهن ، كما أن « رودلف » من جانبه كان من النوع الذى يترك جميع مسئوليات العمل على باب مكتبه .. كان من النادر أن يتحدث معى عن أحوال العمل .

كنت فى انتظاره ، وقطعا للوقت ، دعوت بعض أصدقاء الأسرة للعشاء ثم مشاهدة أحد الأفلام ..

أعد المختصون آلة العرض فى مكتب « رودلف » .. لأنه كان أكبر غرف المنزل ، وكنا نستخدمه عادة لمشاهدة الأفلام فى المنزل نظرا لظروف الحرب ..

كانت قاعة المكتب فسيحة ، تتصدرها مدفأة وفوقها صورة زيتية كبيرة للغابة السوداء .

* * *

بدأ العرض ، وجلسنا جميعا نشهد الفيلم ، والسكون التام يخيم على المنزل . . كانت الهمسات الخافتة ، والضحكات المرحة تملأ القاعة بجو من المتعة ، والحياة . . ولم أكن أتخيل فى تلك اللحظات ما يخبئه القدر . . وأن تلك كانت أسود ليلة فى حياتى . . لقد تسلل أحد العاملين بسكرتارية هيس على أطراف أصابعه ، داخل القاعة يبحث عنى . . كان هذا الرجل شقيق إحدى صديقاتى المقربات ، وكان ينادينى باسمى المجرد . .

دخل القاعة وسط الظلام يبحث عنى ، وهو يتخبط وسط الكراسى محملقا فى كل الوجوه . . ثم بدأ ينادينى بصوت منخفض :

— إيلزا . . إيلزا . .

كان هذا التصرف مفاجأة لى . . لأنه يتنافى مع أبسط آداب الضيافة . . سألته بحدة :

— ماذا جرى ؟!

قال بصوت مرتعش :

— أريد أن أتحدث إليك فى أمر هام . .

غادرت القاعة ، وأوقف مهندس السينما العرض لحين عودتى ، واتجهت كل الوجوه نحوى تبحلق فى دهشة ، لأن تصرف السكرتير لم يكن مألوفا ، فليس من المعتاد إستدعائى من بين ضيوفى بهذا الشكل . . وبمجرد خروجى من القاعة اقترب منى الشاب الذى لم يكن قد تجاوز العشرين من عمره ، وقال بصوت متهدج مرتعش :

— لقد وقعت « لسيد الخبز » كارثة . .

« يطلقون فى ميونيخ على رب الأسرة BROTHERRN » . . وترجمتها الحرفية « سيد الخبز » أو السيد الذى يطعم الأسرة ويأتيها بالخبز » .

إنتفضت وأنا أسأله :

— ماذا حدث ؟!

قال :

— لقد سقط فى البحر بطائرته !!

عدت أسأل وكأننى أصرخ :

— فى أى بحر . . ماذا كان يعمل عند البحر . . ماذا حدث . . من الذى قال لك ذلك ؟!

تكهرب الجو تماما . . وانعكست الحسرة ، والدهشة فى وجوه الأسرة ، وبدأت بعض الكراسى تتزحلق على الأرض المدهونة حديثا بالورنيش وعيونهم جميعا مركزة على وجهى . .

ارتعش الشاب ، وهو يقول :

— لا أعرف . . لقد قلت لك ما سمعته فى الراديو الآن . . لقد أذاعوا بيانا بذلك . . وسط الدهشة ، وعدم تصديق ما سمعت . . بدأت عيناى ترتعشان وتحملقان فى لا شىء . . إسودت الدنيا فى وجهى تماما . . إلا أن الشاب عاد يقول مشيرا إلى فستانى الطويل :

— إيلزا . . يجب أن تغيرى فستانك الآن فورا . . إن بعض الناس سيحضرون الآن بلا شك ، ولا ينبغى أن يتم استجوابك وأنت ترتدين هذه الملابس . .

عدت أصرخ من جديد وأنا أتساءل :

— إستجواب . . من الذى يستجوبنى . . ولماذا يستجوبوننى لأن زوجى مات ؟!

لم يجب أحد ، وكأن الكارثة قد أصابت الجميع بالخرس . . وبدأ عقلى يتشتت ، ولكنى قلت لنفسى . . إذا كان زوجى قد مات فى هذه الحادثة فلا شك أن هتلر يعلم عنها كل شىء . .

إننى وزوجى نعرف هتلر منذ العشرينات ، وتربطنا به صداقة عميقة . . فنحن عائلة واحدة . . بل أقولها الآن . . إن هتلر هو الذى اقترح على رودلف أن يعقد قرانه على . .

لا شك أن هتلر يعرف كل شىء . . صحيح أنه كان مشغولا لشوشته خلال العامين الأخيرين بإدارة شئون الحرب ، ولم تكن الظروف تسمح لنا باللقاء المستمر . . بل لم تكن تسمح له ظروف الحرب بمجرد استمتاعه هو شخصيا بالحياة . .

قلت لعامل التليفون والسماعة ترتعش فى يدى :

— أريد التحدث إلى « الفوهرر » . . إتصل به إنه فى « بريختسجادن » !!
أجاب بطريقة فيها الكثير من الحدة والتحدى :
— آسف . . غير ممكن . .
قلت وأنا أزجره :
— كيف تتحدث بهذه الطريقة . . قلة أدب !!
وألقيت بالسماعة ، وأنا أقول : سأحصل على الرقم بنفسى . .
صعدت إلى غرفة مكتب رودلف ، وجلست على الكرسى خلف المكتب ووضعت رأسى بين كفى . . وأنا لا أكاد أصدق . . لقد كان إتصالى « ببريختسجادن » له أولوية تامة حتى خلال سنوات الحرب . . اليوم يقولون لى : غير ممكن . . كيف . . هل مات رودلف حقا . . وماذا حدث فجأة ؟!
. . ما الذى جرى ؟
أصوات الضيوف بالطابق الأسفل بدأت ترتفع ، وهم يناقشون مأساتى . .
كانت الدنيا كلها بين يدى منذ ساعات . . وما الذى جرى وقلب الدنيا كلها رأسا على عقب . . لا أدرى . .
وفجأة دق جرس التليفون . . وجاءت مكالمة « بريختسجادن » . . مقر هتلر . .
قلت :
— أنا إيلزا هيس . . أريد التحدث إلى الفوهرر . .
لقد كان مجرد ذكر اسمى كفيلا بتحويل المكالمة فورا إلى « هتلر » ولكن ذلك لم يحدث هذه المرة . . قالوا لى إننى لا أستطيع التحدث إلى الزعيم لأنه مشغول ، ولا يمكن إزعاجه بأية مكالمات . . وسألنى عامل التليفون :
— هل تريدين التحدث إلى شخص آخر ؟!
شخص آخر . . إنها لهجة لم أعتدها من قبل . . ومع ذلك قلت مترددة :
— نعم . . أريد التحدث إلى مارتين بورمان !!!
مارتين بورمان هو سكرتير هتلر ، ولكنه لم يكن فى الحقيقة صديقا لى أو لزوجى . . صحيح أن بورمان كان نائبا لزوجى لفترة طويلة ، ولكنى لعدة أسباب كنت أكرهه . .

كنت أشعر دائما بأنه يحاول الوصول على أكتاف زوجى . . كنت ألمس نفاقه ، وانتهازيته فى كل تصرفاته . . وقد لاينسى لى « بورمان » أننى قد تحديته يوما وانتصرت عليه . .

كان شقيقه الأصغر « ألبرت » يريد الزواج بإحدى صديقاتى . . إبنة طبيب معروف فى « بريمن » . . ولكن بورمان لم يكن يحب الفتاة ، ونصح شقيقه بعدم الزواج بها ، ولكنى أقنعت « ألبرت » بالوقوف إلى جانب الفتاة التى أحبها ، فهو الذى سيتزوج وليس شقيقه . . وتمت الزيجة . . إلا أن « بورمان » لا ينسى لى ذلك قط . . بل لم يتحدث أى منا إلى الآخر بعد عقد القران على الاطلاق . .

الآن . . وتحت ضغط المأساة أستنجد به فى أول محادثة بينى وبينه منذ حفل عقد قران شقيقه « ألبرت » . .

وفجأة جاء صوت بورمان :

— فرار هيس . . إننى لا أعرف أى شىء . . ينبغى عليك الانتظار لحين التوصل إلى مزيد من المعلومات !!!

وصمت قليلا ثم عاد يقول فى نذالة منقطعة النظير :

— لقد أرسلت لك الآن مساعدى الدكتور « هانسين » ، وأرجوك التعاون معه . . إلى اللقاء . .

ثم سمعته يلقى بالسماعة ، دون أن يسمع منى كلمة واحدة . .

* * *

عدت إلى مصيبتى من جديد ، ورفعت رأسى لأجد بجانبى سكرتيرى . . قلت له :

— كيف علمت أن زوجى قد مات . . من الذى قال لك ذلك ؟

— لقد قلت لك . . من الاذاعة !!

قلت وكأننى لا أكاد أصدق :

— كلام فارغ . .

عدت مرة أخرى إلى الصالون . . حيث ضيوفى مازالوا فى نقاشهم ، وقد جلسوا فى مجموعات متفرقة يتجادلون . . لم تكن لدى أحد الرغبة فى متابعة

الفيلم بالطبع . . لفوا الشاشة ووضعوها جانبا ، وعادت صورة الغابة السوداء تتصدر القاعة من جديد . .

* * *

بدأ الضيوف يتصرفون . . وأسرعت مرة أخرى إلى التليفون لاتصل بالفريد . . شقيق زوجى فى برلين . .

أرجو ملاحظة أن هيس قال إن إسمه الفريد هورن عند سقوطه بالمظلة ، أى أنه إستخدم إسم شقيقه للتمويه . .

قال لى ألفريد : إنه يستبعد أن يكون « رودلف » قد مات . . وربما تكون تلك خدعة . . وأنه فى مهمة !!!

* * *

جلست فى إنتظار الدكتور « هانسين » ، الذى وصل فى منتصف الليل ، ووجهه مصفر من البرد والتعب والاحراج . . إذ كان الرجل يشعر بدقة المهمة المكلف بها . .

كنت أتوقع أن الرجل يحمل لى معلومات عن زوجى . . فإذا به يسألنى وكأننى أمام محقق لحوح . .

قلت له إننى لا أعرف أى شىء . . وأن آخر مرة رأيت فيها « رودلف » كانت يوم السبت . . بل إن جميع زعماء النازى يعلمون تماما أن زوجى لم يكن يفصح لى عن أية أنباء سياسية أو أية أمور تتعلق بعمله . .

ضاع شعورى بالزمن ، لم أعلم كم ساعة أو لحظة إستغرقها التحقيق . وذهب معظم الناس . . الدهاليز أصبحت هادئة وتلاشت معظم الأنوار ، وأصبح البيت كله . . كالمقبرة . .

إجتاحتنى فى تلك اللحظات رغبة جامحة ، لأن أضم إبنى « فولف » إلى صدرى ، ذهبت إلى فراشه ، حملته على ذراعى ، وجلست على أحد المقاعد الوثيرة . . وعند الفجر جاء السكرتير يوقظنى ومعه أنباء جديدة . . قال : إنه سمع الاذاعة البريطانية التى أعلنت أن رب الأسرة مايزال حيا ، وأنه هبط بالمظلة فى اسكوتلندة !!!

* * *

وفى يوم الثلاثاء زارنى كارل هاو سهوفر . . كان رأيه أن هتلر ضحى بزوجى . . وفى نفس اليوم أذيع بيان باعتقالنا . .

* * *

فى الحقيقة لم يعتقل أحد . . لم يعتقل سوى « البريخت هاو سهوفر » أين البروفيسور كارل هاو سهوفر للتحقيق معه فى مهمة محاولته الاتصال بالمندوبين الانجليز فى لشبونة للتمهيد لمحادثات زوجى معهم . .

هبطت عليه قوات « الجستابو » فى ضاحية « باد جود سبرج » بالطائرات وألقت القبض عليه ، ووصل برلين عند الفجر حيث طلبوا منه كتابة إعتراف تفصيلى بكل الاتصالات التى أجراها ، ومعلوماته عن رحلة « رودلف » . .

استمر التحقيق معه ثلاثة أشهر ثم أفرج عنه . .

أما بالنسبة لى فلم أعتقل . . بل على العكس لقد أصدر هتلر القرارات الآتية بشأنى :

١ ـ عدم المساس بممتلكاتى . .

٢ ـ منحى معاش زوجة وزير فى الأسر . .

أما إهانتى الحقيقية ، فقد جاءت من بورمان . . لقد أصدر تعليماته بنقلى إلى شقة صغيرة . . كان يستأجرها زوجى فى برلين (!!) كانت شقة متواضعة ، لأكون تحت رقابة الجستابو . . كما أمر بنزع اسم زوجى من جميع الشوارع والمستشفيات التى كانت تحمل إسمه . . بل لقد نزعوا إسم زوجى من قائمة الأعضاء فى الحزب . .

أما أصدقاء الشدة فى تلك الأيام فكانا :

إيفا براون صديقة هتلر . . زارتنى سرا ، وقالت لى :

ـــ إذا أردت شيئا . . فاتصلى بى فورا . .

وأعطتنى رقمها السرى ، وقالت لى إنها تستطيع التحدث إلى « ألفوهرر » دون أن يعلم « بورمان » !

وكان الصديق الثانى . . أحد كبار رجال البنوك ، على المعاش ، قال لى : إن هتلر يعلم أن بورمان يكره هيس . . وبالتالى لايستطيع بورمان مصادرة ممتلكاتى إلا بعلم وموافقة هتلر . .

* * *

فجأة زارني الدكتور هانسن . . تصورت للوهلة الأولى أنه جاء يصادر البيت ، ولكنه هـذه المرة جاء مبتسما والدماء تجرى فى عروق وجهه . . وقال لى :

— الآن كل شيء قد تغير . . الأوامر الآن مختلفة . . إنها صدرت من أعلى المستويات . .

قلت :

— أى أوامر ؟

— لقد أصدر « الفوهرر » تعليماته بعدم مصادرة ممتلكات « هيس » أو نقلها ، وتستطيعين الآن البقاء فى منزلك !!

خرج هانسين وبدأت أفكر فى مصير طفلى وحياتى فى هذا البيت الكبير بعد أن أصبحنا وحيدين . . ووجدت نفسى مندفعة لتحويل هذا البيت الكبير إلى مستشفى لجرحى الحرب . .

رفض « بورمان » ، على الرغم من أننى كنت أتقاضى معاشى بانتظام . . وقال : إن أوامر الفوهرر أن يبقى بيت هيس كما هو . .

كنت مصممة على أن البيت كبير جدا . . فقررت إغلاقه . . ونقلت كتب هيس وحاجاتى إلى « شاليه » كان قد استأجره زوجى منذ فترة طويلة فى « هيند لانج » ، وهو مبنى من الخشب ، ويبعد ١٠٠ ميل جنوب غربى ميونيخ . . أما أنا وابنى فقد انتقلنا إلى شقة السائق . . حزمنا أمتعتنا وانتقلنا إلى شقة السائق . .

* * *

فى هـذه الفترة كان « فولف » دائم السؤال عن أبيـه ، وفى إحدى المرات قال لى :

— أمى . . أين الدبابة التى أخذها منى بابا ؟!

اندهشت لسؤاله ، وبحثت عن الدبابة ، فوجدتها فى دولاب الملابس وبها مفتاح الخزانة السرية التى يضع بها « رودلف » أوراقه . .

أسرعت إلى الخزانة . . فتحتها ، وجدت بها خطابا موجها لى يشرح لى فيه لماذا طار إلى إنجلترا ، ومعه صورة من الخطاب الذى بعث به إلى هتلر ، والذى قال له فى نهايته . . إذا فشلت مهمتى . . فمن حقك أن تتبرأ منى .

كأن تقول ببساطة : إننى مجنون » . . وهى النصيحة التى أخذ بها هتلر على الفور .

بكيت لأننى لم أعثر على الخطاب فى الوقت المناسب . . فربما إستطعت إقناعه بالعدول عن فكرته ، أو أثناءه عن عزمه عن القيام بتلك الرحلة التى دمرت حياتنا . .

« للأسف ضاعت هذه الرسالة ، عندما قام الحلفاء بقصف بيتنا بالقنابل فى العام الأخير من الحرب » !

* * *

بعد ذلك بفترة طويلة . أدرك هتلر ، مدى التضحية التى قام بها هيس من أجله . .

كان هتلر يزور السيدة « بروكمان » ، لتعزيتها فى وفاة زوجها . .

وبروكمان ناشر فى ميونيخ ساعد هتلر كثيرا فى بداية تكوين الحزب ، ويعرف هتلر منذ أيام الجوع والفقر . . أما زوجته فكانت أميرة رومانية سابقة . .

قال لها ، هتلر وهو يعزيها :

— إننا جميعا نواجه ضربات القدر . ونقترب من الوحدة يوما بعد يوم . . ولكن ينبغى علينا أن نقاوم هذه المشاعر حتى تستمر الحياة . .

واستمر يقول :

— لقد فقدت أنا أيضا اثنين من أقرب « الآدميين » من حولى ، كانا يكنان لى إخلاصا حقيقيا . . اولهما الدكتور « تود » الذى مات ، وهيس الذى طار بعيدا عنى . .

إندهشت السيدة « بروكمان » لهذه الاعترافات وسألت ، وهى ترفع حاجبيها من فرط الدهشة :

— ماذا تقول يا « أدولف » . . إن كلامك يتناقض تماما مع ما تذيعه اجهزتك الرسمية حول هيس . .

هز هتلر رأسه فى حسرة وقال :

— ألا يكفيك ذلك . . ألا يكفيك أن أعرب لك وحدك عن مشاعرى الحقيقية ! !

مرت سنوات الحرب سوداء قاحلة . . ومع نهاية الحرب إنتقلت إلى الشاليه الصغير فى « هند لانج » ، ولكن الفرنسيين ألقوا القبض على فى مايو سنة ١٩٤٥ وكان إبنى يبلغ من العمر وقتها ثمانى سنوات . . وكنت قد تركته مع أمى . .

لم تكن هناك أية تهمة يمكن أن توجه إلى سوى أننى زوجة رودلف هيس . .

أفرجوا عنى سنة ١٩٣٧ . .

عملت خادمة فى استراحة تمتلكها سيدة ألمانية ، وتستخدمها كإستراحة للضباط الفرنسيين وزوجاتهم . .

كنت أخفف من همى بالمزيد من الاندماج فى العمل ، لدرجة أن جنود الحراسة الفرنسيين ، كانوا يعطفون على عندما يرون زوجة أحد زعماء النازى تعمل خادمة . .

أفرج عنى الفرنسيون سنة ١٩٤٧، فإعتقلنى الأمريكيون بعد الافراج عنى بشهر واحد . . أمضيت مدة السجن فى معسكر « جو جينجى » بالقرب من أوجسبورج التى غادرها زوجى بطائرته إلى إسكوتلندة . .

علمتنى فترة السجن تلك . . لماذا يرفض زوجى زيارتنا له . . كنت أشعر فى أعماقى بأن زيارتى له فى السجن هى جرح عميق فى كرامتنا ، ولن تؤدى إلا إلى مزيد من العذاب !

الآن . . حولت الشاليه إلى فندق صغير . . أصبحت مجرد صاحبة فندق متواضع . . أبدأ صباحى بإعداد طعام الافطار للرواد . . وتنضيف الحجرات ودورات المياه وغسل الصحون . . معظم الزبائن لايعرفون أننى زوجة هيس . .

حياتى جحيم . . جحيم . . فأنا الآن لا أحتمل السفر إلى شبانداو . . وفى ديسمبر القادم . . أى ديسمبر ١٩٧٧ ستكون قد مرت ٥٠ سنة على زواجى بهيس . . بعد ٥٠ سنة زواجا . . هو فى السجن . . أما أنا فصاحبة أصغر فندق فى الغابة السوداء !!

* * *

الفصل العاشر

ستالين ..
يطلب إعدامى

١٤ مايو ١٩٤١ ..

جلست فى غرفتى المتواضعة بالمستشفى العسكرى فى (بيوكانان) ، أفكر فى المصير المزعج الذى آلت إليه مهمتى . كنت أشعر أننى أحمل على رأسى مصير الدولة الألمانية بأسرها . وأبحث عن أولئك الذين يستمعون برجولة إلى صوت المنطق .. ولكن فكرى كان ينتهى دائما باليأس والاستسلام ، والرغبة فى تحمل العقاب ! !

كان جندى الحراسة على باب الغرفة يدق الأرض بقدميه ، وكأنه يدكها دكا . .ربما لأنه وضع (حدوة حصان) فى نعل حذائه .. لا أدرى ؟ ! ولكنى كنت أشعر فى كل لحظة أن هذا الجندى الملعون يدق بحدوة الحصان التى يضعها فى نعل حذائه .. على مخى مباشرة ! !

كنت فى الحقيقة أشعر بالمرارة والثورة تجاه نفسى . كنت أشعر أننى أنحدر وسط هذا العالم الضال والغريب .. وأشعر أننى فقدت كل شىء من أجل لا شىء ! !

ووسط هذا الفكر الشارد الحزين .. سمعت ضوضاء . ووقع أقدام عديدة .. ثم فتحوا الباب لأجد أمامى كيرباتريك مرة ثانية ولكنه وحده فى هذه المرة ! !

جاء وعلى وجهه إبتسامة خبيثة ، وقدم إلى البيان الذى أذاعه هتلر ، الذى إتهمنى فيه بالجنون . . وقراره بالقبض على زوجتى الزا والبروفيسور هاو سهوفر . .

كان من الواضح أن كيرباتريك جاء هذه المرة بتعليمات ، للحصول منى على معلومات محددة . .

وتعال أحك لك خلفيات الموضوع . .

كنت أعرف أنه قد بدأ العد التنازلى لعملية (باربا روسا) . . أى غزو روسيا بعملية خاطفة قبل الاجهاز نهائيا على إنجلترا . .

وفى نفس الوقت كان لدينا معلومات سرية تقول إن بريطانيا تسعى لعقد إتفاق سرى مع روسيا للحصول على مساعدات . . وكان ذلك وفقا لأصول الحرب أمرا معقولا ، فبريطانيا محاصرة منذ مدة طويلة ، وسيساعدها إتفاقها مع روسيا على الوقوف أمام الضربات الألمانية مدة أطول . .

أكثر من هذا . . كنت أعلم أن هتلر يأمل بعد احتلال روسيا الحصول على المواد الخام دون الحاجة لدفع ثمنها . .

بل كنت أعلم أنه قبل « عملية باربا روسا » ستوجه الدعوة إلى مولوتوف وزير خارجية الاتحاد السوفيتى لضرب عصفورين بحجر واحد . .

الأول : صرف نظرهم عن الهجوم الألمانى المنتظر .

الثانى : وعدهم بإطلاق يدهم فى الهند وإيران . . لتهديد المصالح البريطانية . .

كنت أعرف ذلك كله ، وجاءنى كيرباتريك بابتسامته الخبيثة يسألنى بغباء :

— هل صحيح أن هناك صعوبات فى تنفيذ الاتفاقية التجارية بين موسكو وبرلين . . وهل صحيح أن هتلر يعتبرها مجرد حبر على ورق . . وهل صحيح أن هتلر سيهاجم روسيا . . ؟ !

— إن هتلر رجل يحترم تعاهداته الدولية . . ومن ناحية أخرى فهتلر لا يفكر فى فتح جبهتى قتال فى آن واحد . . ولعلك تذكر أنه كتب ذلك فى كتابه كفاحى . . إن هتلر لايفكر فى ضرب روسيا . .

صمت كيرباتريك ، فاستطردت قائلا :

— يجب ألا تضيعوا الوقت . . فكروا فى إتفاق السلام . . وأن تضعوا فى حسابكم أن الرايخ الألمانى يؤيد ثورة رشيد على الكيلانى فى العراق . . ولابد أن يتضمن اتفاق السلام . . الجلاء عن العراق أيضا . . لمنع وصول أية إمدادات إليكم حتى لو مات آخر بريطانى من الجوع ! !

بدأت عينا كيرباتريك تحملقان فى لا شىء ، وفهمت أنه ليس لديه المزيد ليقوله وبالفعل بدأ يهم بالخروج فقلت له وأنا أودعه :

— نبه على جندى الحراسة أن يرحم الأرض ، من حدوة الحصان التى علقت بحذائه ! ! قل له أن يعاملها كما يعامل فتاته ! !

* * *

خرج كيرباتريك ليجتمع مع تشرشل وإيدن ويبلغهما بنتيجة مقابلته الثانية معى . .

كان حديثى عن موت آخر بريطانى من الجوع تدق أوتارا عميقة فى نفس تشرشل . . فهو يعلم أن ألمانيا تغرق يوميا آلاف الأطنان من الامدادات التى تحاول الوصول لبريطانيا فى البحر . . إنه فى الليلة التى هبطت فيها على بريطانيا من السماء . . ألقت الطائرات الالمانية على بريطانيا وحدها مايزيد عن ١٩٠ ألف طن من القنابل . .

كل ذلك كان يعلمه تشرشل . . بل كان يردد دائما « من يعلم أكثر يخف أكثر » . .

ومع ذلك ظل تشرشل يناور . . فربما يحصل منى على معلومات تفيده وهو يحاول التقرب من روسيا . .

وفى هذه الأثناء وصلت إلى علم المخابرات البريطانية معلومات عن خطة دبرها هتلر لاختطاف !

كان هتلر يستطيع ذلك . . بل لقد أغارت إحدى الوحدات الانتحارية على معسكر للأسرى الألمان . . وعادت ومعها عدد كبير منهم . . لم أكن أنا بينهم بالطبع . . إلا أن هذه المحاولة جعلتهم ينقلونى بعربة إسعاف من سجن إلى سجن . . ولما كانت جميع سجون بريطانيا معروفة لدى المخابرات الألمانية . . فقد قرروا بناء سجن خاص لى بالقرب من لندن . .

وكان تشرشل قد أصدر تعليماته لوزارة الخارجية البريطانية فى ١٣ مايو ١٩٤١ تقول :

أولا : يعامل (الهر) هيس معاملة أسرى الحرب ، على أن يتبع وزارة الحربية لا وزارة الداخلية . .

ثانيا : يجب أن يعزل تماما فى مكان مناسب ، لايبعد كثيرا عن لندن وبذل كل الجهود لدراسة حالته العقلية ، والحصول منه على أية معلومات تفيد الامبراطورية فى حربها ضد ألمانيا . .

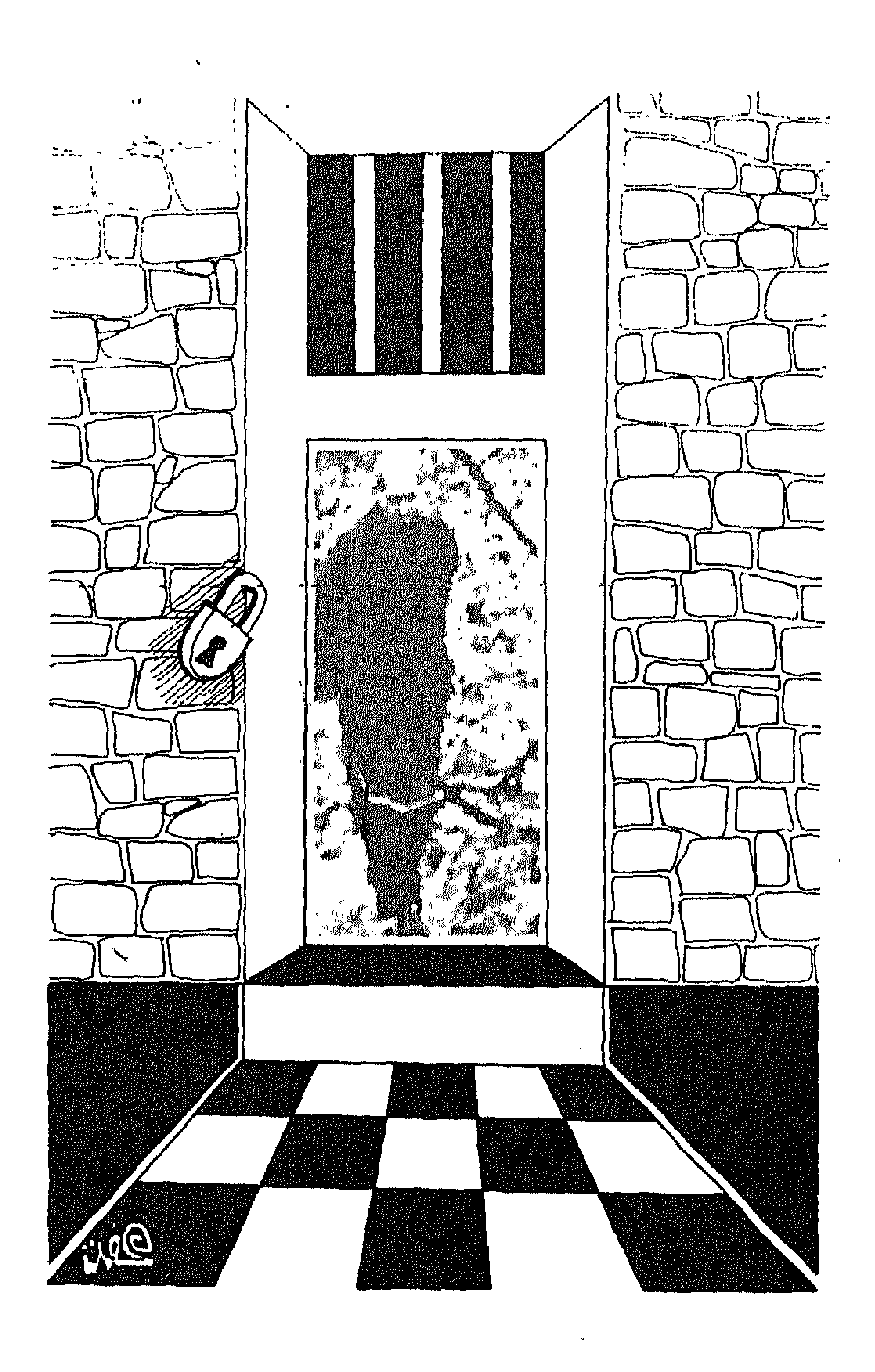
ثالثا : توفير كافة أساليب الرعاية الصحية الممكنة وتزويده بالكتب والغذاء وأدوات الكتابة ، ويحظر تماما إتصاله بالعالم الخارجى أو إستقبال الضيوف إلا بتعليمات من وزارة الخارجية . وتعيين حراسة خاصة له ، كما يمنع من قراءة الصحف أو متابعة الاذاعات ، وأن يعامل معاملة كريمة كجنرال كبير وقع فى الأسر » .

* * *

السجن مزود بعدد هائل من الأنفاق تحت الأرض ونقط الحراسة . . بل لقد ثبتوا فى عمود السرير جهاز تسجيل . . ربما أهذى ببعض الأسرار التى تفيدهم أثناء نومى !

كنت فى السجن تحت عدسة مكبرة . . وكل خطواتى محسوبة تماما . .

وفى أحد الأيام أبلغنى قائد السجن أن اثنين من الأطباء النفسانيين



. . رودلف هيس . . وحيدا فى سجن شبانداو منذ سنة ١٩٦٦ وتحرسه الدول الأربع الكبرى ، وتبلغ نفقات السجن ١,٦ مليون مارك سنويا

سيزورانني . . وقال لى إن إسمهما الدكتور ماكنيزى والدكتور جوثرى . .
بدأت الشكوك تراودنى بعنف . . لاشك أنها خطة لابتزاز المعلومات من رأسى . . ربما بالحبوب المخدرة ، أو دس بعض العقاقير فى الطعام . . وإلا ما علاقة أطباء النفس بالموضوع . .

رفضت تناول أى طعام يقدم لى ، وأعربت لمدير السجن عن مخاوفى من دس عقاقير فى طعامى . . وأخيرا إتفقنا على حل معقول . . أن يتناول معى فى حجرتى جميع الوجبات . .

كنا فى البداية نأكل من وعاء واحد . . يحصل كل منا على حاجته منه فى طبقه . . ولكنى إقترحت أن نأكل معا من نفس الطبق . . فوافق المدير . . والحقيقة أننى حققت هدفين . . الأول هو أن صحبته كانت تشجعنى على الأكل . . ثم أننى كنت أطمئن إلى أنهم لن يضعوا لى أدوية أو عقاقير تودى بى إلى الموت البطىء أو الادلاء بمعلومات تحت تأثير المخدر تضر بمصالح ألمانيا أثناء الحرب . .

* * *

فى الوقت المحدد لزيارة الطبيبين النفسيين ، جلست فى غرفتى حزينا . . ولكنى لم أفقد الأمل لحظة واحدة فى أن ألمانيا سوف تكسب الحرب .

فتحوا باب الزنزانة . . وجدت أمامى مفاجأة . . إن الرجل الذى قالوا لى إنه الطبيب النفسى هو السير جون سيمون صديق تشرشل وحامل أختام الملك . . أما زميله فكان كيرباتريك . .

قال لى السير جون سيمون إنه موفد من قبل تشرشل ، ليبحث معى بإستفاضة طبيعة المهمة التى أقوم بها . .

قلت :

— يجب أن أعترف لك ، إنه كان على إتخاذ قرار خطير . . هو أخطر قرارات حياتى . . لقد آمنت أنه من المستحيل . . ليس فقط من جانب ألمانيا وإنما أيضا من جانب بريطانيا . . أن نرى كل يوم صور الأمهات يسرن خلف كفن أطفالهن . . وصور الأطفال يسرن وراء كفن آبائهم وأمهاتهم . . إن هذه الصورة يجب أن تتوقف . . يجب أن تتوقف . .

قال

— ولكنك تقول إن الحرب ضدنا ستزداد ضراوة وعنفا . .

— نعم . . إذا لم توافقوا على الصلح . . إن حصارنا بالغواصات سيستمر . .

— إن هذا يدفع الشعب البريطانى حقا إلى الضحك . .

— ربما . . ولكن المؤكد أنه سيأتى اليوم ، الذى لن يعود فيه الشعب البريطانى بقادر على مجرد الضحك ! !

تمتم السير جون سيمون بكلمات غير مفهومة . . تبينت منها جملة (سيأتى اليوم . . سيأتى اليوم) . . قالها بضجر .

إستمرت المناقشات ثلاث ساعات شرحت لهما خلالها « أسس التفاهم » مع بريطانيا وهى إطلاق يد المانيا فى أوربا . . وإطلاق يد بريطانيا فى مستعمراتها وعقد إتفاق سلام مع إيطاليا ، وجلاء بريطانيا عن العراق . .

خرج جون سيمون وفى ركابه كيرباتريك ، ووقعت أنا مغشيا على من فرط التعب . .

مرت على لحظة شعرت فيها باليقظة والجوع والتعب الشديد . . رأيت ملابسى مبتلة من العرق وهى رطبة دافئة ملتصقة بجسدى . . ورأيت يدا تمسح العرق وأخرى تقدم لى كوبا من اللبن . .

رفضت تناول كوب اللبن ولكنهم جاءوا بحقنة كولوكوز كبيرة رفضتها هى الأخرى . . وبعد محاولات عديدة وافقت على أن يتناول الطبيب نصف كوب اللبن وأتناول أنا نصفه الآخر . . وذهبت فى سبات عميق . .

* * *

عشت شهور العذاب داخل الزنزانة . . طلبت منهم ترحيلى إلى المانيا . . قلت لهم إننى « مفاوض » ولست أسيرا . . ولكن بريطانيا وضعت أذنا من طين وأخرى من عجين . .

أنام دامع العينين . . وتعود إلى ذاكرتى سنوات الطفولة ، كنت أقضى أنصاف الليالى ، وأنا أجلس على حافة السرير فى غرفتى الصغيرة ، أتذكر مسار حياتى كلها . . لقد شربت هذه الكأس حتى النهاية ولم يعد ليمتلىء

ثانية . . والآن لقد مضى كل شيء . . هل أحزن لذلك . . لا . . لا داعى للأسف . .

كانت أيامى فى تلك الحجرة ليلا طويلا . . أياما قاحلة . . ومع ذلك لم يخب نور الأم فى نفسى لحظة واحدة . . شعاع كان يخترق الجدران ليضىء فى قلبى نور الأمل . .

فى سبتمبر ١٩٤١ . . إنتهت بريطانيا من الاعداد لزيارة اللورد بيفر بروك لروسيا ، لعقد إتفاقية مع ستالين ، لتزويد بريطانيا ببعض المواد الاستراتيجية . .

وقبل سفر اللورد بيفربروك . . إستدعاه وينستون تشرشل وقال له :

— إذهب قبل سفرك لمقابلة هيس . . ربما تستطيع الحصول منه على معلومات تفيدك ! !

ووافق اللورد . .

وفى يوم ٩ سبتمبر قال لى قائد السجن إن طبيبين نفسيين سيزورانك اليوم . .

جن جنونى من جديد ، ولكنى توقعت فى نفس الوقت أن بريطانيا قد عادت إلى عقلها وستبدأ المفاوضات .

فى الموعد المحدد . . وجدت أمامى اللورد بيفربروك . . أحد أعضاء مجلس الحرب . . وأقربهم إلى رئيس الوزراء تشرشل . .

قلت له يومها :

— تأكد يا سيدى اللورد أنه إذا إنتصرت بريطانيا فى هذه الحرب فإن ذلك سيعد انتصارا للشيوعية . . وإنتصار الشيوعية سوف يعنى إن آجلا أو عاجلا إحتلال روسيا لألمانيا . . وبالتالى أوربا بأسرها . . ولن تستطيع بريطانيا أن تقف فى وجه هذا التقدم الشيوعى . . بل ولا أى دولة أخرى فى أوربا . .

وأذكر يومها أننى قلت له أيضا :

— إن بريطانيا ستكون مخطئة إذا تصورت أنها ستظل متربعة على مستعمراتها ، إذا إنتصرت روسيا فى الحرب . . وصدقنى إذا قلت لك إن روسيا ستتحول بعد هذه الحرب إلى قوة عظمى وستصبح بريطانيا مجرد

دولة زراعية من الدرجة الثالثة . .
سيدى هيس . . لا تقل ذلك . .
— هذه هى الحقيقة التى يجب أن أصارحك بها . . إنها لعبة خطيرة جدا . . تلك التى تلعبها بريطانيا مع النظام البلشفى فى روسيا .
— إننى شخصيا لا أعرف لماذا تهاجم ألمانيا روسيا . . لماذا ؟
— لأننا نعلم أنه سيأتى اليوم الذى تهاجمنا فيه روسيا . . ولذلك فإن هزيمة روسيا ليس فقط فى مصلحة ألمانيا وإنما أوربا بأسرها . .
— على أية حال إن الحرب لم تضر ببريطانيا كثيرا . .
— كيف ؟ . .
— لقد إزداد الشعب البريطانى صلابة . .
— نعم . . نعم . . أستطيع أن أقول أنا ذلك أيضا بالنسبة للشعب الألمانى . .
كان الحديث قد وصل إلى درجة من الحدة . . أراد بيفربروك أن يلطف الجو فقال :
— لقد إعتدت زيارة ألمانيا قبل هتلر . . بل كنت فى ألمانيا عندما فاز هتلر فى الانتخابات سنة ١٩٣٣ . . وكانت صحفى تكتب عنه بإعجاب . .
ضحكت وأنا أقول له :
— فعلا . . فعلا . . وهو أيضا كان يحبك كثيرا . . ولكنى يؤسفنى حقا أن نتقابل الآن بهذه الصورة . .
— الأمور كلها دموية . .
— نعم كل شىء تسيل منه الدماء . . لقد كان من الأفضل أن توفر بريطانيا دمها لمستعمراتها وإمبراطوريتها . . ونوفر نحن دمنا للصراع ضد الشرق . . لقد كنت أتصور أننى سأجد هنا تفهما مشتركا . . ولكن يبدو أننى كنت مخطئا . . أعرف ذلك .
— إنه من الصعب . . كما تعلم . . أن تجد التفهم المشترك . . وإن الحرب تدور !
إنتهى هذا الاجتماع بنكبة . . لقد وعدنى بيفربروك بزيارتى ، لأنه على حد قوله يستمتع بمناقشاتى السياسية . . وهذا ما لم يحدث على الاطلاق . .

بل كانت هذه الزيارة هى آخر زيارة يقوم بها مسئول بريطانى لى فى السجن ! !

* * *

عاد بيفربروك إلى لندن وإلتقى مباشرة بتشرشل الذى إبتدره قائلا :

— ما رأيك . . مجنون ؟! أليس كذلك ؟

— كلا . . بلا شك . . لا . . إنه عاقل تماما . . ربما أثرت ظروف فشل مهمته على أعصابه ولكنه عاقل تماما . .

وصل بيفربروك إلى موسكو على رأس وفد بريطانى للتفاوض مع ستالين على تزويد الاتحاد السوفيتى بعتاد وأسلحة إنجليزية . .

وأثناء المفاوضات إقترب ستالين من بيفربروك وإبتدره قائلا :

— تأكد أنكم إذا عقدتم سلاما مع ألمانيا ، فإنكم ستتركوننا وحدنا . . فى مهب العاصفة النازية ؟

— لا يا سيدى . . ما الذى يجعلك تفكر بهذه الطريقة . .

— إن هيس لديكم وهو خط الاتصال بينكم وبين هتلر . .

— أوه . . كلا . .

— لماذا لم تعدموه إذن ؟

— يجب يا سيدى أن يحاكم أولا ! !

— يحاكم ! ! إذن يحاكم . . وماذا تنتظرون . . إنه مجرم حرب يجب أن يعدم فورا . . ثم لماذا جاء إلى بريطانيا ؟!

هنا أخرج بيفربروك محضر مقابلته مع هيس والتى قال فيها إن بريطانيا وألمانيا يجب أن تتعاونا ضد روسيا . . حيث يكمن الخطر !!

وخرجت صحيفة « البرافدا » بمانشيت عريض يقول :

مطلوب محاكمة هيس فورا !!

بعد مقابلة بيفربروك ، توقفت زيارات المسئولين البريطانيين لى تماما . . وبقيت فى السجن أربع سنوات كاملة . . أنتقل من زنزانة إلى زنزانة أربع سنوات وخمسة شهور . . طوال سنوات الحرب !!

كنت خلال هذه الفترة قد فقدت ذاكرتى . . كنت أصاب دوريا بفقدان

الذاكرة . . وقال أحد الأطباء إننى عندما أصاب بصدمة أخرى أستعيد الذاكرة .

المهم . .

جاءنى قائد السجن فى ٩ إكتوبر سنة ١٩٤٥ . . وقال لى ستسافر إلى المانيا غدا !

كانت مفاجأة تامة لى . . لم أصدق ما سمعت . .

فى ١٠ اكتوبر سنة ١٩٤٥ أقلتنى الطائرة من اسكوتلندة إلى نورمبرج . .

كانت الحراسة مشددة . . وصحبنى الدكتور أليس جونس داخل الطائرة الصغيرة . . الباردة . .

هبطت بنا الطائرة فى بروكسل للتزود بالوقود . . ثم أقلعت مرة أخرى نحو ألمانيا . .

نظرت من خلال النافذة لأرى ألمانيا راكعة ، جريحة ونورمبرج منكسة الرأس . . نعم . . رأيت ألمانيا وكأنها تبكى !!

ملت على الدكتور جونس وقلت له . . إننى لا أعرف ماذا سيحدث لى . . ولكنى أستطيع أن أقول لك . . وسوف تثبت الأيام من صدق قولى . . إنه فى خلال عشر سنوات من الآن . . فإن بريطانيا ستوافق على كل ما قلته ضد الشيوعية . . إنها ستكون العدو اللدود لنا جميعا !!

وفى نورمبرج . . بدأت أغرب محاكمة فى التاريخ . .



رأيت حارس جورنج . .
يسحبه كالحصان

سقطت عيناى على ثور مبرح . . فكدت أختنق من الألم !

الفصل الحادى عشر

عدت إلى ألمانيا . . وما كادت الطائرة تستقر على أرض مطار (فورتة) بالقرب من نورمبرج ، حتى صعد الكولونيل الأمريكى بورتون أندروس يضع سلاسل الحديد فى يدى . . ويصحبنى نحو سلم الطائرة حيث كانت سيارتا جيب مسلحتان فى انتظارى ، انطلقنا فى الشوارع الخالية إلى سجن نورمبرج !

فى الطريق سقطت عيناى على المدينة التى تضم أقدم آثار العصور الوسطى ، فكدت أختنق من فرط الألم ، لقد شعرت على دقات قلبى المسرعة ، بعمق المأساة . . القنابل تركت حفرا عميقة سوداء على كل جدار شامخ . . الشوارع خالية إلا من بعض البشر يرتدون الملابس الممزقة ، ويعيشون تحت الأنقاض كالفئران . . رائحة البارود ، والموت والضياع ، ممزوجة ببعضها فى مرارة منقطعة النظير . . آلاف الضحايا دفنوا تحت الصخور . . فالحرب لا تسأل أحدا عن سنه أو جنسه . .

لم أشعر بالألم من اضطرارى للحياة . . مثلما شعرت فى تلك اللحظات . . لقد وضعت قدمى على أرض ألمانيا لأول مرة منذ أربع سنوات وخمسة شهور . . وكلانا منكس الرأس !

وفجأة توقفت السيارة ، وانتزعت نفسى ، وأنا أرتعش . . لقد وصلنا مبنى السجن !

★★★

السجن بناء ضخم مكون من ثلاثة طوابق . . كان قصراً قديما ، ولكنه دمر أثناء الحرب ، وأعاد الحلفاء بناءه وترميمه ، ليتناسب مع ضخامة الحدث التاريخى الذى سيجرى داخله . أصبح اسمه الآن « المحكمة العسكرية الدولية » . والواقع أنه كان يضم مدينة كاملة . . كان يضم كافتيريا ضخمة وحانوت ترزى ، وصالون حلاقة ومكتب بريد . . بل ومتجرا لبيع الهدايا والسوفوتيرات . . كما كان يضم خمسة آلاف شخص ينتمون إلى جنسيات مختلفة من مترجمين ومختزلين وحراس ، وطهاه . .

قادونى إلى « غرفة التفتيش » وطلبوا إلى أن أخلع ملابسى تماما ، ونشط بعض الضباط ينتزعون عنى ثيابى للبحث عن أى شىء يمكن استخدامه للانتحار ، كشفرات الحلاقة ، أو أنابيب السم التى تثبت بالجسم بشريط لاصق ، أو إبر الخياطة ، أو الكفرافتات ، أو النظارة الطبية لدرجة أنهم صادروا الأغذية والأدوية التى كنت قد حملتها من زنزانتى فى بريطانيا . . بل ورباط حذائى ! !

لم أتكلم ولم أعترض . . وقادونى بعد ذلك إلى الكولونيل بروتون أندروس قائد السجن الذى ألقى على بتعليمات ونظم السجن ، وأنا أتأمله بضيق ، ثم خرجت من عنده ، وحولى مجموعة من الضباط فى الطريق إلى الزنزانة . .

فى الدهليز الطويل رأيت جورنج . . توقفت عيناى عليه لحظة . . لم أكن قد رأيته منذ قيامى برحلتى . . رفعت يدى إلى الأمام بالتحية النازية المعروفة . . فإذا بحارسى يلكزنى بشدة قائلا :

— هذه التحية ممنوعة هنا . . فاهم ؟ !

ابتسم جورنج . . وسحبه حارسه فى الإتجاه الآخر . . تماما كالحصان . . بينما سرت أنا خلف الموكب الحزين إلى الزنزانة . .

الزنزانة تطل على دهليز طويل به ٢٠ زنزانة أخرى . . بها جورنج وشلاخت ، وفوت بابيه ، ويوليوس شترايشة ، وشبير ، وروزنبرج ، وفونك وروبنتروب . . أى ٢٠ من زملائى الذين تركتهم منذ أربع سنوات وخمسة أشهر . .

على باب الزنزانة كتبوا اسم كل واحد منا . . وعند باب الزنزانة التى تحمل اسمي توقف الموكب . . أدخلوني وأغلقوا الباب !

الزنزانة أشبه بالمقبرة ، مبنية من الأسمنت ، مساحتها ٢ × ٤ أمتار بها سرير فى مواجهة الباب ، وكرسى خشبى ، وهى مضاءة ليل نهار . .

كنا أشبه بالحيوانات داخل الأقفاص . وكان الحارس يفتح طاقة فى الباب كل ٣٠ ثانية ليلقى نظرة على السجين النائم . . الذى تقضى تعليمات السجن أن ينام ووجهه للباب ويداه خارج البطانية ! !

كانت إجراءات الأمن تقضى أيضا بألا نحلق ذقوننا بأنفسنا ، كان يمر علينا أسبوعيا ، سجين ألمانى من أسرى الحرب ، ليحلق ذقوننا تحت حراسة أحد كبار ضباط السجن . . وفى كل أسبوع على الأقل تجرى عملية تفتيش دقيقة للزنزانة ، فنخلع ملابسنا تماما ونقف فى ركن منها إلى أن ينتهى التفتيش . .

كان جميع الزملاء قد وصلوا السجن قبلى بنحو شهر واحد ، ولم يكن يسمح لنا بالتحدث إلى بعضنا على الإطلاق . . كانت فترة سيرنا بالحديقة منظمة بحيث لا يتواجد بها اثنان فى وقت واحد . . وعند عودتنا يتم تفتيشنا من جديد خوفا من تسرب أية أدوات للانتحار إلينا أثناء السير فى الحديقة . .

كان الدهليز الذى يربط العشرين زنزانة يطل على فناء السجن ، ويمكننا من خلاله أن نرى السماء . . وفى أحد الأيام انطلق (سكين) من فناء السجن ، واستقر على أرض الدهليز . . ومن يومها انتهت العلاقة تماما بين الدهليز والسماء . . سدوه بحائط من الطوب الأحمر ، ووضعوا بين كل ٤ زنزانات حائطا . . به بوابة حديدية . . وزاد الطين بلة انتحار زميلنا (روبرت لاى) أحد مساعدى هتلر فى ٢٥ أكتوبر سنة ١٩٤٥ أى قبل بداية المحاكمة بشهر واحد تقريبا . . لقد انتحر داخل زنزانته بأن شنق نفسه بفوطة الوجه . . ومن يومها لم يسمحوا لنا باستخدام فوطة الوجه . . كنا نجفف وجوهنا بورق التواليت !

طبعا هذه الاجراءات لم تحل دون انتحار جورنج بعد ذلك بعام كامل . . ولذلك قصة سأحكيها لك فيما بعد . .

★★★

فى ١٩ نوفمبر سنة ١٩٤٥ سحبوا ملابسنا العسكرية للتفتيش والتنظيف . . قبل المحاكمة . . لقد سمحوا لنا بارتداء ملابسنا العسكرية بعد نزع رتبنا العسكرية والأوسمة والنياشين . .

وفى ٢٠ نوفمبر قادونا إلى قاعة المحكمة . .

قاعة فسيحة مستطيلة الشكل . . لها سقف مرتفع تنعكس منه الأضواء الكهربية . . النوافذ عليها ستائر كثيفة من القماش الأخضر لتحجب ضوء النهار تماما . . .

جلسنا فى قفص الاتهام فى مواجهة المقصورات التى أعدت للصحفيين والكبائن المخصصة للترجمة الفورية . . وسلطوا علينا كشافات من الضوء المبهر لتسهل على المصورين عملهم . .

جلست أنا بين روبنتروب وزير خارجية هتلر وجورنج . . ووضعوا لكل منهم سماعة تنقل الترجمة الفورية لما يدور فى الجلسة . .

إجراءات الأمن تفوق الوصف . . جنود الحراسة الأمريكيون بخوذاتهم وأحزمتهم البيضاء منتشرون فى أركان القاعة التى تضم ٢٥٠ صحفيا و ١٥٠ مراقبا ! !

والحقيقة أن أمريكا هى التى تحملت أغلب نفقات المحاكمة ، وكانت هى المسئولة عن الادارة والحراسة . . ومن ثم فقد وضعت جميع وثائق الرايخ الثالث بين أيدى الأمريكيين . . حيث تم فحصها ، وتصنيفها ، ثم ترجمتها إلى اللغات الانجليزية والفرنسية والروسية . . وهذه الوثائق هى التى استندت إليها المحكمة فى عملها بصفة أساسية . .

فى بداية الجلسة الأولى قرأ المدعى العام الانجليزى (دافيد ماكسويل) التهم الموجهة إلينا . .

قال وكأنه يمضغ الكلمات :

أولا : ارتكاب أعمال معادية للسلام بالتخطيط والاعداد وإشعال الحرب ضد عدد من الدول . .

ثانيا : ارتكاب جرائم حرب ضد المدنيين ، وإساءة معاملة أسرى الحرب . .

ثالثا : جرائم ضد الانسانية . . بما فيها الاضطهاد العنصرى !

كنا ٢٠ من زعماء النازى . . وغاب عنا أربعة هم : هتلر ، وجوبيلز ، وهيملر . . وروبرت لاى الذى قلت لك أنه انتحر بفوطة وجهه . .

كان هتلر وصديقته إيفا براون قد انتحرا معا فى مبنى المستشارية فى ٣٠ أبريل سنة ١٩٤٥ ثم أحرقت جثتاهما بعد ذلك . . وبعدها بيومين ذهب جوميلز إلى منزله وسمم أطفاله ثم أطلق على زوجته الرصاص ثم انتحر هو قبل سقوط برلين بلحظات . .

أما هيملر قائد الجستابو فقد انتحر بتناول السم أثناء استجوابه فى لونبرج فى ٢١ مايو سنة ١٩٤٥ . . أما مارتين بورمان ، الذى شغل وظائفى بعد قيامى برحلتى المشئومة إلى بريطانيا فيقال أنه قد هرب . .

جلست بين جورنج وروبنتروب أقرأ إحدى القصص البافارية المسلية . . كانت بعنوان « Der Loisl » وهى قصة فلاح بافارى ، يقوم ببعض المغامرات التى تتم عن طيبة القلب فى عالم ملىء بالنفاق والانحطاط .

تردد اسمى . . فرفعت رأسى عن الكتاب لأجد الدكتور فون ورورشايد المكلف بالدفاع عنى يقول :

— ياحضرات القضاة . . لقد أثيرت خلال السنوات الأربع الماضية العديد من التكهنات حول الحالة العقلية لموكلى . . ولذلك وحتى يطمئن ضمير المحكمة أرجو تكليف لجنة من الأطباء من دولة محايدة ولتكن لجنة من كلية الطب بجامعة (زيوريخ) أو (لوزان) لاعداد تقرير عما إذا كانت حالة موكلى العقلية تسمح له بالمثول أمام عدالتكم أم لا . . لاسيما وأن التهم الموجهة إليه تهم خطيرة .

حملقت فى وجوه أعضاء المحكمة فوجدت رءوسهم قد تقاربت ، وهم يتهامسون . . ثم قال كبيرهم :

— المحكمة ترفض طلب الدفاع . . لأن حالة المتهم لا تحتاج إلى مزيد من الفحص . . وسوف تطلب المحكمة من دول الحلفاء تقديم تقارير حول مدى أهلية المتهم للمثول أمام المحكمة . .

عدت إلى مغامرات الفلاح البسيط (لويل) . . إلى أن انتهت الجلسة الأولى وعدت إلى الزنزانة من جديد ، بعد أن مررت بغرفة التفتيش بالطبع . .

لقد كانت غرفة التفتيش هى جواز المرور إلى الزنزانة . .

فى اليوم الثانى من المحاكمة قدم الحلفاء تقاريرهم عن حالتى العقلية . قال تقرير بريطانى أننى مصاب باضطراب عقلى وأن الأطباء الذين أشرفوا على علاجى خلال السنوات الأربع الماضية قد لاحظوا أعراض نوع من جنون الاضطهاد تتمثل فى إحساسى بأن بريطانيا تسعى لقتلى بالسم أو تدمير مخى « بحبوب الاعتراف » التى تسهل الحصول منى لا إراديا على المعلومات !

ومضى التقرير البريطانى يقول أن هذه الحالة ازدادت سوءا بعد فشل مهمتى وأدت لاصابتى بفقدان الذاكرة تماما فى الفترة من نوفمبر سنة ١٩٤٣ حتى يونيو ١٩٤٥ . . وأننى لست مجنونا فى الوقت الحاضر . . وأن فقدان الذاكرة لا يحول دون المحاكمة ! !

أما التقرير الأمريكى فقال أننى أعانى من هيستريا ، أدت إلى فقدان الذاكرة . . وأن هذا النوع من فقدان الذاكرة لا يعرقل إجراءات المحاكمة . .

أما التقرير الروسى فقال :

« أن رودلف هيس لم يعان قبل أن يطير إلى بريطانيا من أى نوع من أنواع الجنون . . ولا بعد ذلك . . وأنه يتظاهر الآن بالجنون إلا أن ذلك لن يعفيه من العقاب كأحد مجرمى النازى » .

....

وإزاء هذه المشكلة قررت المحكمة تنشيط ذاكرتى قبل جلسة ، لكى تتأكد من أن ذاكرتى حاضرة أثناء الجلسة .

جاءوا بلفة المأكولات والأدوية التى كنت قد أحضرتها معى من انجلترا والتى صادروها عند وصولى . . وسألونى هل تعرف هذه الأشياء . .

. . هززت كتفى بالرفض . .

قالوا لى : هل رأيتها من قبل . .

قلت لهم : ربما ! !

....

فى جلسة أخرى جاءوا بسكرتيرتى هيلد جارد . . رأيتها زهرة ذابلة . ولكنها ظهرت أمامى كفقاعة الصابون الملونة . . ثم اختفت ! !

وسألونى . . قلت لهم لا أتذكر !

وعندما التقى هيس بزوجته إيلزا وابنه فولف لأول مرة سنة ١٩٦٩ سألهما . . كيف حال هيلد جارد الآن ؟ أرجوكم إبلاغها اعتذارى للطريقة التى عاملتها بها عندما جاءوا بها إلى فى السجن . .

فى جلسة ثالثة جاءوا بسكرتيرى شبير ، نظرت إليه ببرود . . بل لقد حاول (الغبى) أن يذكرنى به فقدم لى صورتى مع ابنى فولف وهو يقول لى . . حاول أن تتذكرنى . . أنظر إلى هذه الصورة ربما تساعدك . .

دفعته بيدى . . وقلت بصوت هامس لا أذكر شيئا !

كانت إجابتى على كل أسئلتهم هى « لا أتذكر شيئا » و « لا أعرف شيئا » .

بعد ذلك تطورت محاولاتهم . .

جاءوا بجورنج . . كان لقائى به لقاء الغرباء !

بل أكثر من ذلك . . جاءوا باستاذى كارل هاو سهوفر . . رأيت لأول مرة هذا الوجه الجامد الشاحب والعيون الرمادية اللامعة . . حنيت رأسى وقلت . . لا أعرفه ! !

أعادونا فى اليوم الثانى لى قاعة المحكمة وجلست فى نفس مكانى بين روبنتروب وجورنج ، وفى يدى قصة الفلاح البسيط ، وتصرفاته التلقائية التى تدعو للضحك . . كان جميع الزملاء يتابعون الجلسات بقلق ويضعون السماعات على آذانهم باهتمام . . بينما كنت أنا أعرف النتيجة . . واستعد للاعدام بل أرحب به . .

نادوا على اسم جورنج . . وسألوه . . مذنب أم غير مذنب ؟ . .

لم يجب ولكنه بدأ يدلى ببيان سياسى كان قد أعده من قبل . . قاطعه القاضى . . وقال له .

— ليس المطلوب منك الآن الادلاء بأية بيانات عليك فقط أن تجيب مذنب أن غير مذنب .

تردد قليلا . . وقال غير مذنب . . وجلس . .

عدت للقراءة ، واستغرقت تماما فى مغامرات الفلاح البسيط ، بينما كان جورنج ساخطا على هذا التصرف أبلغ السخط . . لدرجة أنه لكزنى فى كتفى قائلا . .

— كفى قراءة . . لقد ألحقت بنا العار !

نادوا على اسمي . ورفعت عيني عن الكتاب لأجد القاضي يسألني

— مذنب أم غير مذنب ؟ !

بسرعة قلت باللغة الألمانية :

— لا !

حدثت ضوضاء في القاعة ، وأصواتِ ضحك ، ولكن القاضي دق بمطرقة على المائدة قائلا :

— سنعتبر انه قال غير مذنب ؟ !

وفي اليوم المقرر للاستماع إلى مرافعة الدفاع عني وقف الدكتور رورشايد يقول :

— يا حضرات القضاة أن موكلي فاقد الذاكرة . . أنه لم يتذكر زوجته وابنه . . أنه لم يطلب رؤيتهما على الاطلاق !

رفعت عيني عن الكتاب مرة أخرى وأنا أتأمل الرجل . . يكذب . . فالحقيقة إنني لم أطلب إيلز وفولف لزيارتي في السجن حتى لا أحرج كرامتهما ، لا سيما وأن الزيارة ستتم وراء القضبان التي لا ترحم . . وقد كتبت لايلزا بعد ذلك خطابا قلت لها فيه « هل تذكرين زيارتك لي في سجن لاندربرج . . كنت لا تزالين طفلة . . وكان السجان الألماني يومها رجلا طيبا يغمض عينيه أحيانا . . أما هنا فالعيون مفتوحة » !

المهم . . استمر الدكتور (رورشايد) في دفاعه بحماس . . وقال أن محاكمتي ستكون باطلة بطلانا مطلقا . . لأنه يشوبها أحد عيوب الأهلية القانونية . .

ولكن القاضي قاطعه قائلا :

— أن جميع الخبراء أكدوا أن المتهم يستطيع متابعة ما يجرى في الجلسة وأن فقدان الذاكرة التي يعانيها تتعلق بنسيانه لما حدث قبل أن يطير إلى بريطانيا . . أما قدرته على متابعة ما يجرى الآن . . فذلك شيء آخر !

بسرعة رد الدكتور (رورشايد) :

— سيدى القاضي . . صحيح لقد ذكر الخبراء ذلك ولكنهم في نفس الوقت أكدوا أنه لا يستطيع الدفاع عن نفسه ، وأن يجيب على الأسئلة بالشكل

الذى تعتمد عدالة المحكمة بسلامتها .

وفى هذه المعمعة . . طلبت الكلمة .

وقفت أمام الميكروفون . . وأخرجت ورقة من جيبى . . وبدأت أتكلم :

— سيدى رئيس المحكمة . . أريد أن أقول . . أنه فى بداية جلسة بعد الظهر اليوم سلمت المحامى الدفاع عنى مذكرة بأنى أرى أنه اختصارا للوقت يجب أن أتحدث إليكم بنفسى وأقول الآتى . . أنه لكى نقطع الشك باليقين فى مسألة أهليتى للمثول أمام المحكمة على الرغم من أننى أريد الاشتراك فى إجراءات المحاكمة إلى جانب باقى الزملاء فإننى أود أن أقدم للمحكمة البيان التالى على الرغم من أننى كنت أنوى الادلاء به فى المراحل المتأخرة من المحاكمة وليس الآن . .

ذاكرتى الآن فى حالتها الطبيعية ، ويرجع تظاهرى بفقدان الذاكرة لأسباب تكتيكية . . والحقيقة أن قدرتى على التركيز قد قلت إلى حد ما ولكن قدرتى على متابعة المحاكمة وقدرتى على الدفاع عن نفسى وقدرتى على توجيه الأسئلة للشهود أو حتى أن أجيب على الأسئلة . . كل هذه القدرات لم تتأثر بذلك . .

سادت المحكمة لحظات من الصمت الرهيب وتابعت أنا الحديث .

— أننى أؤكد لكم أننى أتحمل المسئولية الكاملة عن كل ورقة وقعتها أو اشتركت فى توقيعها مع آخرين . . أن رأيى من حيث المبدأ بعدم اختصاص هذه المحكمة لا يؤثر فى إقرار مسئوليتى الكاملة . .

هنا صرخ الدكتور رورشايد . . وهو يقول :

— يا حضرات القضاه . . أن حديثه أمامكم الآن دليل على عدم أهليته للمحاكمة . . وعدم تقديره للمسئولية . .

قال القاضى وكأنه يفض المشكلة :

— مطلوب إعداد تقارير من الخبراء عما إذا كانت حالة المتهم رودلف هيس العقلية سوية أم لا ؟

ورفعت الجلسة . . وفى اليوم التالى جاءته كافة التقارير تؤكد أن حالتى العقلية لا تحول دون المحاكمة . . وبالتالى تقررت محاكمتى . . وفى ٧ فبراير سنة ١٩٤٦ بدأت أولى جلسات محاكمتى .

بدأ المندوب البريطانى ميرفين لاريفيت جونس يتكلم فى بداية الجلسة

فقال :

— أن أدلة إدانة المتهم هيس وهى الوثائق التى تم ضبطها تؤكد مسئوليته الفردية على الجرائم التى ارتكبت ، ويعد مسئولا عن الاعداد للعدوان على النمسا وتشيكوسلوفاكيا . . وكان المسئول عن إرسال الأسلحة للقوات النازية فى بولندة وهى القوات التى دمرت (جيتو) اليهود فى وارسو . . بل إن المستندات التى تم ضبطها تؤكد أن قررات نوربرج ضد اليهود قد وقعها هيس بنفسه .

ومضى المندوب البريطانى يقول :

— أن هيس حمل إلى بريطانيا شروط هتلر الستة . . وأضاف إليها تهديدات شرسة بأن الشعب البريطانى سيموت من الجوع إذا لم يخضع لشروط هتلر . . لقد كان هيس يعلم وهو يقدم لنا شروط هتلر . . أن التخطيط لعملية « بارباروسا » قد بدأ . .

كان من المقرر أن يترافع عنى فى اليوم التالى محامى الدكتور رورشايد . . ولكنه للأسف صدمته سيارة وكسرت ساقه وكلفت المحكمة محاميا آخر هو الدكتور الفريد سايدل بالدفاع عنى . . والطريف أن سايدل كان طوال سنوات الحرب الخمس يعمل عسكرى مراسلة (مؤهلات) فى كتيبة المشاه الأولى المرابطة فى بلغاريا وبعد الحرب التحق بمكتب واحد من ألمع المحامين هو الدكتور زاوتر . . وفى أكتوبر سنة ١٩٤٥ طلبت السلطات الأمريكية من الدكتور زاوتر الدفاع عن بعض قادة النازى إلا أنه رفض وأرسل نيابة عنه الدكتور سايدل . . الذى سيترافع عنى . .

استلم سايدل القضية ، والتهم الموجهة إلى أربعة هى :

١ — جرائم حرب .

٢ — جرائم ضد الانسانية .

٣ — التآمر .

٤ — جرائم ضد السلام . .

ولكنه استبعد الجريمتين الأولى والثانية على أساس أننى لم أكن فى ألمانيا سنى الحرب . . وبدأ يعد دفاعه على الاتهامين الثالث والرابع ويكافح من أجل الحصول على المستندات التى تخدم دفاعه . . وأحكى لك هنا قصة طريفة .

كان الدكتور سايدل يترافع أيضا عن روبنتروب وزير خارجية ألمانيا .

فى إحدى المرات قال روبنتروب لسايدل أنه سافر فى أغسطس سنة ١٩٣٩ إلى الاتحاد السوفيتى وعقد اتفاقية سرية لتحديد مصالح الدولتين حال قيام حرب . . وأن هذه الاتفاقية السرية تعطى لألمانيا وروسيا حق اقتسام بولندة إلى شطرين فى حالة قيام حرب . . على أن تضم روسيا جزءها الشرقى إليها وتضم ألمانيا الجزء الغربى .

كانت هذه المعلومات عن الاتفاقية السرية تذاع لأول مرة ، ووجد الدكتور سايدل أن حصوله على هذه الاتفاقية يخدم دفاعه عنى فيما يتعلق بتهمة التآمر لشن الحرب على بولندة .

المهم . . ظل الرجل يبحث عن هذا المستند بجلد وصبر دون جدوى . . وفى أحد الأيام تقدم إليه شخص أمريكى يرتدى ملابس ضباط الحراسة وقال له :

— هل أنت الفريد سايدل ؟

— نعم . .

— خذ هذا المظروف . . أنه ما تبحث عنه !

اختفى الرجل الأمريكى . . وفتح سايدل فإذا به يجد صورة لهذه الاتفاقية الخطيرة ! !

بعد ذلك بأيام قليلة . . رأى الدكتور سايدل مجموعة من الناس حول جثة قتيل فى الشارع . . توجه إليها . . وتأمل القتيل . . فإذا به نفس الأمريكى الذى سلمه الوثيقة . . دهمته سيارة . . ومات ! !

* * *

مرت الأيام وجاء يوم ٣١ أغسطس سنة ١٩٤٦ . . أى بعد مائتين وستة عشر يوما من بداية المحاكمة . . نادى القاضى على اسمى وقال لى :

— هل لك أقوال أخرى تريد إضافتها . .

من جديد قلت لهم رأيى فى المحاكمة . . وكانت تلك آخر كلمات أقولها على الملأ فى حياتى كلها . .

وبعدها بأيام . . صدرت الأحكام . . التى أعلنت بانتهاء أغرب وأطول محاكمة فى التاريخ . . لقد استغرقت ٢١٧ يوما ، وقدمت إليها ثلاثة ملايين وثيقة خلال ٤٠٣ جلسات . . وتم فيها عرض أفلام وثائقية طولها ٨٠ ألف قدم ، علاوة على ٨٨ ألف شهادة مكتوبة موقعة من ١٥٠ ألف شخص .

الفصل
الثانى
عشر

رجل يحاربه الاتحاد السوفيتى !

كان يوم النطق بالحكم يوما مهيبا . . قالوا لنا فى الجلسة الصباحية أن الأحكام ستعلن فى جلسة بعد الظهر . . الحركة فى السجن غير عادية . . بدأنا نرى رجال الدين ، وجوههم عابسة ، يتحركون بين رجال الحرس . غرفة الموت تم تجهيزها ، وجميع الزخارف تم إعدادها بإحكام إنتظارا للمجزرة المقبلة !

إقتادوا كلا منا إلى قاعة المحكمة ليسمع قرار مصيره . . كنا ندخل القاعة الواحد تلو الآخر ، كأننا على موعد مع مقام رفيع . . نسمع الحكم ونقاد مرة أخرى إلى الزنزانة .

دخلت القاعة مشدود القامة . . رأيت القاضى يجلس خلف المنضدة الخشبية الطويلة ، ومعه بطانته . . كان فخما أكثر من اللازم . . حرك رأسه القاسى إلى الخلف ، ثم إلى الأمام ، وتراخى فمه الوقور وبدأ يقرأ الحيثيات . قال :

« إن المتهم « رودلف هيس » . كان من المؤيدين النشطين للاستعدادات للحرب ، وهو الذى وقع قانون الخدمة العسكرية الاجبارية ، وأيد سياسة هتلر الرامية للتسلح المفزع ، وعلى الرغم من أنه أبدى رغبته ، متأخرا ، فى السلام والدعوة للتعاون الدولى ، إلا أنه كان الوحيد بين جميع المتهمين الذى كان يعلم نوايا هتلر تماما . . وهو الوحيد الذى كان يدرك مدى تعصب هتلر وعنفه » .

ومضى القاضى يتكلم ببطء ، وتظل الكلمة الواحدة فى فمه مدة طويلة بلا مبرر . . كنت لا أعرف سر هذه الديباجة الطويلة . . لماذا لا يقول « قررنا إعدام المتهم » وكفى . . ويوفر على نفسه كل هذه الاجراءات التى لا تستهدف إلا تبرير الحكم الظالم !

عندما طالت (المحاضرة) . . طلبت الجلوس . سمحوا لى . واستمر القاضى يسرد الحيثيات بطريقته الهادئة . . المثيرة للأعصاب !

قال :

— « لقد طار المتهم إلى انجلترا يحمل بعض مقترحات السلام ، زاعما أن هتلر على استعداد لقبولها . . ولكن هناك ملاحظة تنطوى على دلالة كبيرة ، وهى أنه طار إلى انجلترا قبل عشرة أيام فقط من الموعد الذى حدده هتلر للهجوم على روسيا وهو ٢٢ يونيو ١٩٤١ . أى أنه كان يعلم بالخطة » .

ومضى القاضى يلوك الكلمات قائلا :

— « أن المتهم (أنا) تصرف أثناء المحاكمة بطريقة عادية ، وزعم أنه يعانى من فقدان الذاكرة . . ربما يكون ذلك صحيحا ، ولكن لم تكن هناك أية دلائل على أنه مجنون جنونا مطلقا ، أو أنه لا يعى ما حوله ، أو إنه لا يستطيع الدفاع عن نفسه . . ولذلك فقد رأت المحكمة أن المتهم برىء من تهمتى جرائم الحرب وجرائم ضد الانسانية ، ومذنب فى تهمتى التآمر ، وارتكاب جرائم ضد السلام وأصدرت الحكم الآتى :

وبنظرة فيها الكثير من الوقار من تحت نظارته . . قال :

— السجن مدى الحياة !

إنتابتنى موجة من الضحك . شعرت أن جميع الأقنعة قد سقطت فجأة وأن الحقيقة بدت عارية ، بلا زيف ، وبلا طواف رهيب فى الفراغ والمجهول . .

قلت موجها حديثى لهيئة المحكمة :

— على أية حال هذا ما كنت أتوقعه منذ البداية ، ولقد كنت محقا عندما كنت لا أتابع هذه المسرحية السخيفة التى قمتم بها و . . . و . . .

وهنا دفعنى ضابط الحراسة نحو باب القاعة ، بينما وضع آخرون سلاسل الحديد فى يدى . . وعدت إلى الزنزانة !

× × ×

صدر الحكم على جورنج وروبنتروب ، وعشرة آخرين من الرفاق بالاعدام . . وعلى ستة أنا سابعهم بالسجن . . وأذكر الآن أن الروس وعدوا روبنتروب ، بتخفيف الحكم عنه إذا لم يذكر شيئا عن الاتفاق السرى بين ألمانيا وروسيا الموقع سنة ١٩٣٩ . . وبالفعل لم يتكلم روبنتروب عن الاتفاق ، إلا أن الروس ضحكوا عليه ، ووافقوا على إعدامه .

ولعلك تذكر أن هذه المعاهدة . هى أخطر وثيقة كشفت عنها محاكمات نورمبرج النقاب . . ولعلك تذكر أن الرجل الذى عثر على هذه الوثيقة دهمته سيارة ، ومات ، ولم يحقق أحد فى مصرع هذا الرجل حتى هذه اللحظة . . وكأن الميت لا يخص أحدا !

الطريف . . أنه بعد صدور الحكم على بالسجن المؤبد ، أعلن القاضى البيان الآتى :

— « إن العضو السوفييتى فى المحكمة العسكرية الدولية الجنرال نيكيتشنكو ، يسجل عدم موافقته على بعض الأحكام الصادرة اليوم (! !) وأنه يرى أنه كان من الأفضل أن يصدر الحكم بإعدام رودلف هيس لأنه رغم إنه لم يشترك فى تنفيذ الجرائم ضد الانسانية إلا أنه شارك فى الاعداد لها ، لا سيما وأنه كان المسئول عن تشكيلات القوات الألمانية فى مناطق الاحتلال . . ولذلك فهو ـ الجنرال السوفيتى ـ يعتبر الحكم العادل ضد هيس هو الاعدام » . .

× × ×

تقرر تنفيذ أحكام الاعدام فى ١٦ أكتوبر ١٩٤٦ وأبدى جورنج اعتراضه على طريقة الاعدام . . كان رأيه أن يعدم رميا بالرصاص كضابط كبير يستشهد فى سبيل ألمانيا . . إلا أنهم رفضوا هذا الطلب على أساس أنه ليس من حق أى متهم إختيار طريقة إعدامه !

وفى الساعة الثالثة والنصف من بعد ظهر يوم ١٥ أكتوبر إنتهى إجتماع الكولونيل بورتون أندروس بكبار مساعديه ، لوضع الخطة النهائية لتنفيذ أحكام الاعدام وخرج الرجال يعطون التعليمات إلى جنودهم لايقاظ المتهمين المحكوم عليهم بالاعدام ، فى الساعة الحادية عشرة و ٤٥ دقيقة لدعوتهم لمأدبة الجلاد .

فتحوا زنزانة هيرمان جورنج ، فوجدوه مستلقيا على ظهره ، وفى فمه شظايا زجاج ، وبقايا مادة « سيانور البوتاسيوم » تحت لسانه ، وعلى صدره خطاب موجه إلى الكولونيل بورتون أندروس ، مؤرخ بتاريخ يسبق يوم إنتحاره بخمسة أيام !

كان جورنج يرتدى زيه العسكرى ، ويبدو أنه كان يحمل أنبوبة السم معه منذ اللحظات الأولى لاعتقاله ، وأعتقد أن أنابيب السم تلك وزعت على جميع زعماء النازى قبل سقوط برلين .

قال جورنج فى خطابه أنه كان يحتفظ بثلاثة أنابيب من هذا السم ، وأنه ترك أنبوبة منها ليكتشفها الحراس ، ويصادروها . . من باب التمويه . . واحتفظ بالأنبوبتين الباقيتين ليستخدمهما وقت اللزوم . . وقال فى خطابه أنه إنتحر إحتجاجا على الطريقة التى سيتم إعدامه بها وهى الشنق وأنه كان يفضل الاعدام على طريقة « الرمى بالرصاص » !

المهم . . أن جورنج إختصر من حياته نصف ساعة . . أما باقى الزملاء فقد قادهم جنود من الجيش الأمريكى إلى غرفة الاعدام ، وكان على كل منهم أن يصعد ١٣ درجة ليصبح عند مستوى المشنقة .

إستمرت عملية القتل الجماعى ١٠٣ دقائق . . وفى نحو الثانية و ٤٥ دقيقة صباحا . . كان كل شىء قد تم ، وانتهت حياة ١٢ من أعظم عظماء الرايخ الثالث !

فى ١٨ يوليو سنة ١٩٤٧ هبطت فى مطار برلين طائرة (داكوتا) . كانت أشعة الشمس الغاربة تلقى بظلالها الكئيبة على أرض المطار .

ما كادت عجلاتها تلامس الأرض ، حتى هرعت إليها سيارة ميكروباس تابعة لسلاح الطيران الملكى البريطانى .

من الطائرة هبط سبعة رجال مقيدين بالسلاسل . .

فون شيراخ (٤٠ سنة) رئيس منظمة الشباب النازى ، أصدرت عليه المحكمة العسكرية الدولية حكما بالسجن لمدة ٢٠ سنة .

كارل دوينتز (٥٥ سنة) القائد السابق للبحرية الألمانية . . عشر سنين سجن !

كونستنيتين نيورت (٧٤ سنة) أول وزير خارجية في عهد هتلر وعليه حكم بالسجن ١٥ سنة . .

السجين رقم ٤ الأدميرال ايريك ريدار (٧١ سنة) . وعليه حكم بالسجن المؤبد .

بعده البرت شبير (٧٤ سنة) وزير الصناعات الحربية السابق و ٢٠ سنة سجن .

يليه السجين رقم ٦ فالتر فونك (٥٦ سنة) مدير البنك المركزى ، وحكم بالسجن المؤبد .

وأخيرا . . أنا (٥٣ سنة) وحكم بالسجن المؤبد . . ولقب السجين رقم سبعة ! . . وانطلقت بنا السيارة الصغيرة وبعد ربع ساعة . . فتحوا بابها وجدنا أنفسنا أمام سجن شبانداو .

السجن تحوطه أسوار عالية من الطوب الأحمر الكئيب . وكان قد بنى سنة ١٨٧٦ كقلعة عسكرية حصينة للدفاع عن برلين واستخدامه بعد ذلك كسجن للمدنيين المحكوم عليهم بالسجن لفترات طويلة . . وهو مزود بغرفة إعدام تتوسطها مقصلة لها أرضية ملساء منحدرة تسمح للدماء بالانسياب نحو البالوعة . . علاوة على ١٣٢ زنزانة للسجن الانفرادى ، وعشر زنازين كبيرة تتسع الواحدة منها لأربعين سجينا . . ومن بين التسهيلات أيضا ثماني مشانق ، لاعدام ثمانية أشخاص دفعة واحدة . . من باب الاقتصاد في الوقت .

وبمناسبة حضورنا ، نحن المساجين السبعة الجدد ، ونظرا لمكانتنا ، ومراكزنا التى شرحتها لك قاموا بإعداد إجراءات أمن أضافية ، منها إقامة سور من السلك الشائك المكهرب . . إرتفاعه عشرة أقدام فوق سور السجن قوته أربعة آلاف فولت . . وعدد من أبراج المراقبة ونقاط استراتيجية وكشافات كهربية على قاعدة تدور ٣٦٠ درجة لتكشف كل شبر على السور ، ولدى جنود الحراسة تعليمات تقضى بإطلاق النار فورا ، على كل من يقترب من السور . . داخلا أو خارجا .

ولما كان هذا السجن قد أصبح بيتنا نحن السبعة فقط ، فقد تقرر نقل المقصلة ، وتحويل غرفة الاعدام ، إلى غرفة عمليات . . وأصبحت تتولى

حراستنا قوات الحلفاء التى إنتصرت فى الحرب . . فتحرسنا بريطانيا شهور يناير ومايو وسبتمبر وتحرسنا فرنسا شهور فبراير ويونيو وأكتوبر . . ويحرسنا الروس شهور مارس ويوليو ونوفمبر . .

وعندما تتولى إحدى هذه الدول حراستنا يصبح مندوبها هو رئيس جميع مندوبى الدول الأخرى . . أوتوماتيكيا . . وتصبح له الكلمة العليا لمدة شهر !

× × ×

بمجرد وصولنا السجن سجلوا (متعلقات) كل منا . . كانت متعلقات زميلى فونك ١٥٧٥ ماركا ألمانيا وأزرار قميص من الذهب . أما متعلقاتى فكانت ملابس الطيران التى طرت بها إلى انجلترا وخوذة الرأس والحذاء ذو الرقبة الطويلة . سجلوها فى دفاترهم وسمحوا لنا بإبقاء الصور الشخصية معنا فى الزنزانة . .

قادونا بعد ذلك إلى قائد السجن الذى سلم كلا منا ورقة تتضمن تعليمات السجن . من هذه التعليمات أنه غير مسموح لأى منا بإرسال أو تلقى أكثر من خطاب واحد كل شهر ، على ألا تزيد صفحات الخطاب الواحد عن أربع صفحات . . وغير مسموح لأى منا بالتحدث إلى الآخر إلا بإذن خاص . . وأننا سنعمل يوميا عدا أيام الأحاد والعطلات الألمانية فى تنظيف السجن والعناية بالحشائش والزراعة فى الحديقة أو أى مهام ضرورية !

وقال لنا مدير السجن أنه مسموح لكل منا باستقبال ضيف واحد لمدة ربع ساعة كل شهرين . وأن الأكل سيقدم لكل منا فى الزنزانة ، على أن نستعين فى تناوله بالملعقة فقط . . لأنه ممنوع منعا باتا استخدام الشوك والسكاكين فى السجن !

وقال لنا المدير كذلك أن مكتبة السجن ستزود بالكتب التى نطلبها . . كل منا على هواه . وأن موعد الاستيقاظ من النوم هو السادسة صباحا ، وأن على كل منا إعادة ترتيب زنزانته ، والانتظار لحين حضور الضباط لاصطحابنا إلى الحمام . . وأنه مسموح لكل منا بحمام ساخن أسبوعيا . . وغسل الجزء العلوى من أجسامنا يوميا .

ومضت ورقة الأوامر تقول : أن مخالفة هذه التعليمات ستواجه بالعقاب الحاسم الذى سيجرى داخل السجن . . وهى تتضمن حرمان السجين من (الامتيازات) ! ! . . نعم هكذا قال المدير . . وضرب أمثلة للعقوبات فقال أن من بينها قطع الاضاءة عن الزنزانة لمدة أربع أسابيع فما فوق . . وتقليل كميات الطعام تدريجيا . . لتصل إلى الخبز والمياه فقط . . وفى حالات أخرى ربط الذى يخالف التعليمات بسلسلة داخل زنزانته . .

عندما انتهى المدير من بيان العقوبات . . شعرت فجأة أننا نتمتع حقا بامتيازات . . وأن هذه الكلمة التى صدمتنى للوهلة الأولى . . وجدتها مناسبة جدا . . ومطابقة للنعيم الذى ينتظرنا فى هذا السجن .

ثم أعطوا لكل منا « رقما » . . وقالوا أن إسم كل منكم ابتداء من اليوم هو هذا الرقم . .

أصبح إسمى . . رقم سبعة ! ! . . ونقلونى إلى مسكنى الجديد الزنزانة رقم ٢٣ .

x x x

كانت فترة الحراسة الروسية هى « عذاب شبانداو » . فبينما كان جنود أمريكا وبريطانيا وفرنسا يرتدون أثناء الحراسة الليلية أحذية من الكاوتشوك لعدم إزعاج المساجين . . كان الجنود الروس يرتدون أحذية برقبة ولها نعل من الصلب . . يحدث دويا مروعا على الأسمنت أثناء سيرهم أو حتى وقوفهم . . علاوة على أنهم كانوا يتحدثون لبعضهم البعض بأصوات مرتفعة ليل نهار . . بل أكثر من هذا لم يكتفوا بفتح الزنزانة أثناء الليل للاطمئنان على وجودنا . . بل كانوا يوقدون البطاريات فى وجوهنا أثناء نومنا . .

ليس هذا فحسب . . وإنما ابتكر الروس طريقة انفردوا بها دون عباد الله ، وهى أنهم كانوا يسجلون فى دفاترهم كل كلمة ننطق بها ، أو أى ملاحظة تعنى لهم ، ويحولونها إلى قضية .

مثلا . . وجدوا فى إحدى المرات كرسيا على باب زنزانتى من الخارج . . على الفور طلب القائد الروسى عقد اجتماع عاجل لزملائه الأمريكيين والفرنسيين والبريطانيين . . وتم استدعاء عدد من المترجمين الفوريين والمختزلين لبحث هذه المشكلة . . ومثل هذه الاجتماعات كانت من الناحية القانونية لقاءات دبلوماسية على مستوى عال بين الشرق والغرب . . كانت جزءا من الحرب الباردة بينهم . . وكانت تستمر منذ الصباح حتى الغروب وأحيانا إلى ما بعد ذلك . .

كانوا يجتمعون فى غرفة . . ليست كأى غرفة فى العالم . . ولا أعتقد أن هناك غرفة فى العالم تتمتع بمثل الحراسة التى تتمتع بها هذه الغرفة . . التى تحرسها الدول الأربع الكبرى . .

ماذا فى هذه الغرفة ؟

أن بها مائدة من الخشب وعددا من الكراسى وخريطة أوروبا على الحائط . . وخزانة بها مفاتيح جميع زنازين السجن !

× × ×

كنت أرفض العمل فى الحديقة أثناء الحراسة الروسية . . لم أكن متحمسا لزراعة الطماطم والجزر والقرنبيط . . وضبطونى فى إحدى المرات نائما فى الحديقة تحت الشمس . . وقرروا عقابى بالبقاء فى الزنزانة . . فسعدت جدا لهذا القرار . . ولم أبد أى ضيق . . مما سبب الضيق للروس أنفسهم ، وأرسلوا لى طبيب السجن يقول لى :

— أنهم مستعدون لاطالة فترة وجودك فى الحديقة . . ولكن يجب أن تعمل أى شىء . .

قلت . . لا . .

قال المدير الروسى :

— عندما ترش بعض النباتات بالماء ، أو تجمع بعض أوراق الأشجار من على الأرض . . سنعتبر ذلك . . عملا

بإصرار قلت أيضا . . لا . .

قال المدير بغضب :

— على فكرة . . أن أحكام نورمبرج تنص على السجن مدى الحياة ،

انفراديا والأشغال الشاقة . . ولم تنص على هذا (الدلع) !

ونقل لى المترجم هذه الكلمات فهزرت كتفى . . وكأننى أقول له إفعل ما تشاء . .

واسمح لى أن أحكى لك قصة أخرى لمشاغبات الروس . .

إن فترة الحراسة الروسية تستمر طوال شهر مارس . . بداية الربيع ، وهو فصل نحرص جميعا على الخروج خلاله إلى الحديقة . . فترة العمل . . وبحث أطباء الحلفاء السعرات الحرارية اللازمة لنا ، وأنه يجب أن تزيد عند قيامنا بأعمال شاقة بعد فترة الشتاء التى كنا نظل خلالها داخل الزنزانة لفترات أطول . وقال أطباء الحلفاء أن هذه السعرات الحرارية ضرورية لكى نبقى على قيد الحياة وإلا أصبنا بسوء التغذية . إلا أن السوفييت رفضوا زيادة الوجبة الغذائية وقال المدير السوفيتى أنه قام بنفسه بوزن إحدى الوجبات الغذائية فوجدها تزيد ٥٠٠ جرام على الحد المسموح به . . وأنه تقرر معاقبة رئيس المطبخ . . وكانت معركة بين الحلفاء وبعضهم . .

إن جميع المساجين فى برلين يتلقون أغذية من الخارج . . أما نحن فهذا ممنوع تماما . . لدرجة أن زميلنا كونستنتين تلقى طردا من السكر والسردين بمناسبة شم النسيم . . ولكنه أعيد لأهله مرة أخرى .

المهم . . أن المندوب الأمريكى الكولونيل ماكسويل ميللر أثار ضجة ، وعين اثنين من جنوده لحراسة المطبخ وثالثا بملابس مدنية داخل المطبخ لاعداد الطعام بالسعرات الحرارية المطلوبة . .

غضب الروس واعتبروا ذلك تدخلا من جانب واحد فى شئون المساجين وإنه تعديل فى قوانين وإجراءات السجن . . و . . و . .

وعندما يأتى شهر حراستهم يأتى معهم العذاب . . لدرجة أن وزننا ينقص خلال فترة الحراسة الروسية بشكل ملحوظ . . ليس فقط بسبب الشوربة الروسية المفزعة التى يقدمونها لنا . . بل وأصواتهم أيضا . . والبطاريات التى كانوا يبحلقون بها فى وجوهنا أثناء النوم . . لدرجة أننى كنت أسمع صراخ زميلى فونك عندما يفتحون عليه باب الزنزانة ويضيئون نور البطارية كان يصرخ .

— أنا مريض أيها الخنازير . . إن أصواتكم توقظنى طوال الليل . .

عليكم اللعنة !

كانت تعليمات القائد الروسى مثلا . . إنه ممنوع علينا الاقتراب من أشجار الفراولة فى الحديقة . . كانت الحديقة مليئة بأشجار الفراولة ، وكنا نقتطف منها أثناء السير إلى أن صدرت الأوامر . . « الفراولة ممنوعة » !! . . إعتبروها نوعا من الرفاهية !

ومن طرائفهم أيضا . . أنهم أعلنوا أنه ممنوع زراعة الزهور بالحديقة ! وأن الحديقة للخضراوات فقط . . وبالفعل نزعوا الزهور . . وزرعوا بدلا منها جزرا وقرنبيطا وبصلا . وبدأت أفواج الأرانب البرية تخترق جدار السور السفلى . . وتفحته بأسنانها إلى أن وصلت إلى الجزر الذى يزرعه الروس .

قامت الدنيا وإجتمع قادة السجن فى روسيا وأمريكا وبريطانيا وفرنسا لبحث (التخريب الأرنبى) الذى يقع فى الحديقة . . وبعد مناقشات عديدة إتفقوا على نصب كمائن للأرانب لاصطيادها . .

وهنا قال المندوب الروسى إن كل أرنب يتم إعتقاله يوضع فى قفص إنفرادى !!

× × ×

فى مارس سنة ١٩٥٢ . . أصاب المرض زميلنا البارون كونستنتين فون نيورث . . أول وزير خارجية فى عصر هتلر . . ومحكوم عليه بالسجن معنا لمدة ١٥ سنة . .

كان الرجل قد بلغ من العمر ٨٠ سنة . لم يعد يستطيع العمل بالحديقة . وقال الأطباء إنه يجب عليه تفادى الحركة السريعة ، وجاءوا إليه بكرسى متحرك . . كان يدفعه زميلانا شبير وفون شيراخ .

ومن باب الاحتياط جاء قادة السجن بكفن وصندوق لنقل الموتى ، وأعدوا البرقيات التى ستنقل خبر الوفاة إلى العالم الخارجى . . بل أعدوا خطة لمواجهة المظاهرات التى قد تتجمع خارج السجن بعد إعلان الوفاة . وأعدوا كذلك السيارة التى ستنقل الجثمان إلى (فيلمرز دورف) وتعود بالرماد . . بعد إحراق الجثة . قال الروس إنه يجب نقل الجثمان ليلا ، والاحتفاظ بالرماد فى الخزانة السرية مع مفاتيح السجن . . لبحث الوضع القانونى للرماد . .

وهل يسلم لعائلته أم يبقى فوهل يسلم لعائلته أم يبقى فى الخزانة ؟!

وقال الروس أنه ممنوع تلقى أية زهور من الخارج عند وفاة كونستنتين . . لأن هذه الزهور قد تخفى بعض القنابل أو المتفجرات .

وإختلف قادة السجن فى نوع الموسيقى الجنائزية التى ستعزف . . وأخيرا إستقر الرأى على ترك هذه المسألة للقس .

لم يمت البارون كونستنتين . إلى أن جاء ٢ سبتمبر سنة ١٩٥٤ وتم إستدعاء عائلته . وإعداد إجراءات الجنازة من جديد . أعدوا كل شىء يخطر على بالك . . إلا أن الرجل لم يمت أيضا فى التاريخ الذى حدده الحلفاء .

وفى ٥ نوفمبر ١٩٥٤ إستدعوا عائلته من جديد . . وجاءت العائلة إلى السجن مذعورة ، لكى يسلمها القائد السوفيتى للسجن الرسالة الآتية :

« بناء على الاتفاق الذى تم التوصل إليه بين محافظى الدول الأربع الكبرى حول الافراج قبل إنتهاء مدة العقوبة عن المتهم كونستنتين فون نيورت المحكوم عليه فى أول اكتوبر سنة ١٩٤٦ بالسجن لمدة ١٥ سنة فإن محافظى سجن الحلفاء يقررون الآتى :

أولا . . الافراج عن المتهم كونستنتين فون نيورت إبتداء من ٦ نوفمبر ١٩٥٤ وتسليمه لأهله حيا . . وتسليم متعلقاته لهم أيضا بعد الحصول منهم على إيصال بذلك » .

المهم . . أن زميلنا نيورت أفرج عنه ومات بعد ذلك بعامين فى بيته .

وأصبحنا ستة . . ثم ثلاثة . . إلى أن أصبحت وحدى الآن فى شبانداو أستيقظ فى السادسة صباحا ، وأعيد ترتيب فراشى . . وأقاد إلى الحمام . . وأعود إلى زنزانتى لاتناول طعام الافطار . .

وحدة قاتلة . . طلبت من إدارة السجن راديو ومنبها وجرسا داخل الزنزانة . .

سألوا المندوب الروسى . . قال يجب العودة فى ذلك إلى موسكو . . وبعد عدة أيام جاء يقول « إن الحياة فى شبانداو الآن أصبحت رخوة ونحن نرى أنه ليست هناك أية أسباب تدعونا لكى نضفى عليها المزيد من النعومة » .

كان مطبخ السجن قد توقف فى هذه الفترة عن إعداد (وجبة المساجين) وبالتالى بدأت أتناول نفس الوجبة التى تقدم لمديرى السجن . . ويقوم

بطهيها طباخ صينى وآخر أسبانى .

مرت الأيام . . قاسية . . قاحلة ، وكانوا قد سمحوا لى براديو ترانزستور صغير . . أصبح صديقى الوحيد فى هذا العالم . كنت أستمع إلى موسيقى موتسارت بعد أن حرمنى الزمان لسنوات طويلة من متعتى الوحيدة وهى الاستماع إلى الموسيقى الكلاسيك . لقد ذكرتنى أصوات الموسيقى القديمة بعظمتها المطلقة ، وقدسيتها وذكرتنى بكل تطلعات شبابى . كنت أجلس غارقا فى حزنى عندما أستمع إلى موسيقى هايدن وتفيض من عينى الدموع .

كنت أفكر كثيرا فى علاقتى الفريدة بالموسيقى . بل كنت أشعر فى كل مرة بالعلاقة المصيرية بين الموسيقى والفكر الألمانى بكامله . . كنت أشعر أن ألمانيا تتولى زعامة الموسيقى ، التى لا يعرفها أى شعب آخر . وهى زعامة لا تستطيع مدافع الحلفاء تدميرها . . ولا أن تضعها فى الزنزانة !

كنت أنام على سريرى السفرى ، الذى تراخت (ملته) المعدنية ، وأنا ملىء بالأفكار وأصداء الموسيقى ، وقلبى متثاقل من الحزن والشوق والثورة والمرارة واليأس .

كنت فى هذه الأيام أرفض زيارة زوجتى ايلزا وإبنى فولت لى فى السجن . . كنت أشعر أن زيارتهما لى ستجرح كرامتنا نحن الثلاثة . . ستثير الجروح . . ولن تداويها . . إننى أكره الدموع .

فى سنة ١٩٦٩ بدأت أمراض وعلل الشيخوخة تلاحقنى . نقلونى إلى المستشفى وهناك سمحوا ، بناء على موافقتى ، بزيارة زوجتى وإبنى . . وتمت هذه الزيارة فى ٢٤ ديسمبر ١٩٦٩ أى بعد ٢٨ سنة وستة أشهر و ٢٥ يوما منذ آخر مرة رأيتهما فيها قبل رحلتى إلى اسكوتلندة . .

ايلزا أصبحت سيدة وقور . . وإبنى فولف الذى تركته وعمره ثلاث سنوات ونصف أصبح رجلا يافعا .

تطلعت إلى ايلزا وأنا أقول لها :

— مرحبا . . تعالى أقبل يديك !

أسرع إبنى فولف يجذب أمه وهو يهمس

— أمى . . لا تدعيه يقبل يديك !

وهنا اندفعت ايلزا نحوى وهى تقول :

— إننى أنا سأقبل يديك . .

مرة أخرى جذبها فولف وهو يقول :

— يا أبى . . أن التعليمات تقضى بألا نلمسك . . فقط نحييك من بعيد . .

قلت موجها حديثى إلى ايلزا

— كيف كانت رحلتكما إلى هنا . . أرجو أن تكون مريحة ؟

قالت ايلزا :

— المهم . . صحتك أنت . . كيف حالك ؟

قلت :

— بخير أننى أتلقى هنا عناية طبية ممتازة وصحتى فى تحسن . .

سألنى إبنى فولف . .

— ماذا حدث لك بالضبط . .

قلت :

— كنت أشعر بصعوبة بالغة عند البلع . . وقاموا بعمليات نقل دم لى تبرعوا بها من جنود الحراسة البريطانيين . . ولذلك فإن لغتى الانجليزية قد تحسنت !

إبتسمت ايلزا وأرادت أن تغير الموضوع فقالت لى :

— أن رحلتنا كانت طيبة . . لقد كانت آخر رحلة بالطائرة هى التى قمت بها بصحبتك . .

قلت :

— نعم . . ولكن الزمن تغير . . وأنت أيضا تغيرت . .

قالت مبتسمة :

— وأنت أيضا تغيرت . . وصوتك اختلف كثيرا الآن . . عما كان من قبل . .

قلت :

— ماذا تقصدين ؟

قالت :

— أصبح أكثر عمقا مما قبل . .

قلت مازحا :

— آه . . تعنين أكثر رجولة . .

ضحكنا . . ونظر مندوب السجن فى ساعته معلنا أن وقت الزيارة قد انتهى وأن « نصف الساعة » المقررة للزيارة قد انقضت . .

تلك كانت الزيارة الأولى . . أما الزيارة الثانية فكانت فى السجن . . فى شبانداو . . وكانت بمناسبة عيد ميلاد السادس والسبعين .

الزمان ٢٤ أبريل سنة ١٩٧٠ . .

سيارة أوبل ريكورد تقف أمام البوابة الرئيسية لسجن شبانداو . . بداخلها شاب فى الثلاثينات من العمر وسيدة عجوز . . يقدم الشاب تصريحا موقعا عليه من مندوبى الدول الأربع الكبرى فتفتح له الأبواب ، ويصحبه جنود الحراسة إلى غرفة قائد السجن . .

كانت السيدة العجوز تحمل باقة من الورد الفاخر . . وسألت المندوب السوفيتى بأدب :

— هل أستطيع تقديم هذه الباقة من الورد لزوجى . .

هز القائد السوفيتى رأسه بالرفض قائلا :

— لا . . لا تستطيعين . . أن ذلك مخالف للتعليمات . .

قالت السيدة وفى نبراتها الكثير من الاستعطاف . .

— سيدى أن عيد ميلاد زوجى بعد يومين . . أرجوك إسمح لى بتقديم الزهور إليه . .

مرة أخرى أجاب الضابط السوفيتى :

— لا . .

وضعت السيدة العجوز باقة الورد على مكتب الضابط السوفيتى الكبير . . وسارت خلف أحد الضباط إلى غرفة الزيارة . . وهى الغرفة المخصصة للقاء المساجين مع ذويهم . .

الغرفة صغيرة ولكنها نظيفة ، رائحة الورنيش ، تعبق المكان برائحة نفاذة لم تستطع السيدة العجوز الجلوس . . وقفت تنتظر زوجها السجين . .

بعد لحظات فتح الباب . . ودخل هيس قائلا :

— أهلا ايلزا . .

وكالعادة مرت النصف ساعة . . كالبرق وهمت ايلزا بالانصراف إلا أن هيس طلب منها شراء بعض الكتب وإرسالها إليه فى السجن . .

قالت ايلزا :

— رودلف . . إن هذه الكتب ممنوع دخولها السجن . . إنها عن الحرب العالمية .

إبتسم هيس قائلا :

— حسنا . . إشتريها على أية حال واحتفظى بها فى المنزل . . ربما أستطيع قراءتها يوما ما !

x x x

إنتهت الزيارة . . وعدت إلى الزنزانة من جديد . .

ربما تسألنى الآن . . ألم تجر أى محاولات للافراج عنى . . أقول لك أن فرنسا وبريطانيا وأمريكا موافقون على الافراج إلا أن روسيا معترضة . . ومن ناحيتى فإننى أرفض تقديم أى إلتماس إلى الروس للافراج . . هذا مبدأ أتمسك به . . وأعتبر أن كرامتى لا تسمح لى على آخر الزمن لمد يدى أستجدى الحرية من السوفيت .

x x x

لقد قدم الدكتور سايدل كامى هيس أثناء محاكمات نورمبرج . . قدم إلتماسا إلى لجنة الرقابة المشتركة للحلفاء سنة ١٩٤٧ . وفى سنة ١٩٥٦ قدم الالتماس الثانى إلى الأمم المتحدة . . وفى سنة ١٩٥٧ قدم الالتماس الثالث إلى اللجنة الأوربية للحقوق الانسان التى كانت مجتمعة فى ستراسبورج . . وقد رفض السوفيت هذه الطلبات على الرغم من أنهم وافقوا على الافراج عن ريدار وفونك وكلاهما كان محكوما عليهما بالسجن مدى الحياة . . ثم تتابعت طلبات الافراج عن هيس سنة ١٩٦٦ وهو عام الافراج عن شبير وشيراخ . . وهو العام الذى أصبح فيه هيس السجين الوحيد فى شبانداو .

وفى ٢٩ أكتوبر ١٩٦٨ بعث سايدل بالرسالة التالية إلى كوسيجين رئيس وزراء الاتحاد السوفيتى . .

السيد كوسيجين . .

أكتب لك نيابة عن رودلف هيس السجين الأخير والوحيد فى شبانداو .

أن حكومات الولايات المتحدة وفرنسا وبريطانيا طلبت أكثر من مرة الافراج عنه . . إلا أن حكومة الاتحاد السوفيتى كانت العقبة الوحيدة ضد هذا الاجراء الانسانى . . لماذا ؟ !

إن حكومة الاتحاد السوفيتى لم تعلن على الاطلاق أسباب إصرارها على ضرورة بقاء رودلف هيس فى السجن حتى الموت .

وكما تعلمون فإن الحكومة العسكرية الدولية فى نورمبرج قد أصدرت حكمها ببراءة رودلف هيس من تهمتى جرائم الحرب وجرائم ضد الانسانية . . وإن هذه المحكمة أصدرت عليه حكما بالسجن المؤبد لأنها اعتبرته مذنبا فى جرائم الاعداد وشن الحرب العدوانية .

إن رودلف هيس يبلغ من العمر الآن ٧٤ سنة . . وهو مسجون منذ ٢٨ سنة . . هناك العديد من الشخصيات السياسية البارزة فى العالم تطلب الافراج عنه على أساس إنسانى من بينهم وينستون تشرشل رئيس وزراء بريطانيا الأسبق . والسير هارتلى شوكردس المدعى العام البريطانى فى محكمة نورمبرج .

إن الامم المتحدة أعلنت عام ١٩٦٨ هو عام حقوق الانسان فهل تسمح لى يا سيادة رئيس الوزراء أن أقترح عليكم إعادة النظر فى موقفكم تجاه هيس على أساس إنسانى بحت .

وفى ١٧ فبراير ١٩٦٩ جاء الرد . . بالرفض . . وموقع باسم الكسندر ايفستيف المستشار الصحفى بمكتب كوسيجين . .

جاء فى الرد . .

السيد الدكتور سايدل . .

بالاشارة إلى خطابكم المؤرخ فى ٢٩ أكتوبر ١٩٦٨ والذى طرحتم فيه مسألة الأحكام على مجرمى الحرب النازيين فقد كلفنى رئيس الوزراء بإبلاغكم بأن الموقف السوفيتى يعتمد على أحكام القانون الدولى المستمدة من ميثاق المحكمة العسكرية فى نورمبرج ، والمحاكمة ذاتها . . والأحكام التى أقرتها الجمعية

العامة للأمم المتحدة فى جلساتها فى الفترة من ١١ إلى ١٣ ديسمبر ١٩٤٦ . . . وبناء عليه فهو يرفض هذا الطلب .

الآن . . أنا السجين الوحيد فى شبانداو . . مسجون منذ ٣٦ سنة . . الزنزانة عالى منذ ٣٦ سنة . . وإلى متى سأبقى هنا . . هذا علمه عند السماء . .

المكان : سجن شبانداو

الزمان : سنة ١٩٧١ . .

الرجل العجوز رودلف هيس . . فى زنزانته ، يجلس على سريره . . يرتدى قميصا أبيض وبنطلونا رماديا . . عيناه غائرتان ، ورموشه تتحرك بصعوبة . . وطبيب السجن الدكتور (بيرد) يجلس أمامه . .

— هيس . . هل لو عادت الأمور مرة أخرى . . هل تسلك نفس الطريق ؟

— ويرد الرجل العجوز :

— ماذا تعنى ؟

— هل ستدرس الجغرافيا السياسية والفلك ، وعلاقة الفلك بمستقبل الدول . . أعنى هل ستتورط فى خدمة رجل مثل هتلر ؟

وبصدق عنيد يرد السجين بسرعة :

— نعم . . بلا شك . . أننى أعتقد أننى سأسلك نفس الطريق وأنتهى هنا فى سجن شبانداو . . كنت بلا شك سأطير إلى إسكتلندة . . إننى مؤمن تماما ، كما تعرف بأنه لم يكن هناك سوى طريق واحد . . فعندما أيقنت أننا سنخسر الحرب . . وما يعنيه ذلك بالنسبة لألمانيا . . أدركت أن هناك طريقا واحدا . . أننا يجب أن نعقد السلام مع بريطانيا . . وهذا ما كان يراه هتلر أيضا . .

ويعود طبيب السجن للسؤال من جديد . .

— هل تعتقد أن هتلر حى ؟

— آه . . أن هناك العديد من الروايات التى تقول أنه هرب إلى أمريكا الجنوبية . . ولكنها ليست صحيحة . . أن هتلر لا يهرب . . بل أننى واثق أنه إنتحر ، ولا يعترينى أى شك فى ذلك . . لأن الهروب لا يتفق مع شخصية

6. Januar 1977

Wolf Deinen Brief
wochenl, merkt
zum Weihnachts-
gehobenen Gewohnheiten Berlin-

آخر خطاب لهيس قبل محاولة الانتحار .. في ٦ يناير ١٩٧٧

هتلر وطبيعته . . لا يتمشى مع طبيعته أن يهرب من ألمانيا ، ويعيش فى أى مكان فى العالم . . لقد وهب هتلر نفسه لألمانيا ، وكانت له مثالياته . . وأعتقد أنه عندما تأكد أنه خسر الحرب ، وأن الحرب اقتربت من نهايتها . . رأى أن ينهى حياته . . لأن الموت بالنسبة له كان أفضل من تسليم نفسه للروس . . أنه كأى إنسان منا يخشى الموت ، ولكن الموت بالنسبة له كان أهون من الوقوع فى قبضة الروس . .

لقد كانت فى حياة هتلر عدة محاولات لاغتياله . . وكانت هذه المحاولات مبعث قلقه ، ولكن خسارة الحرب والموت فى ذلك الوقت كانا شيئين مختلفين تماما . . وأننى أعتقد أن الروس لديهم الوثيقة الدامغة على موت هتلر ، فقد أعلنوا أنهم عثروا على أشلائه . . وصوروها . . وأعتقد أنهم صادقون فى ذلك . .

صحيح أننى لم أكن معهم خلال المراحل النهائية للحرب ، ولكنى أعتقد أنه تم تزويد عدد من القادة بوسائل الانتحار الضرورية . . جوبيلز مثلا وعائلته . . هيملر . . وبالطبع جورنج الذى انتحر داخل زنزانته فى السجن بعد الحكم عليه بالاعدام . .

ويصمت الرجل العجوز قليلا وهو يقول :

— ولكنى أعتقد فى نفس الوقت أن مارتين بورمان سكرتير هتلر قد هرب فى الساعات الأخيرة . . وربما طار إلى أمريكا الجنوبية . . إننى أعتقد ذلك لأن هذا التصرف يتمشى مع شخصيته التى أعرفها . .

— أنت أول من أطلق على هتلر لقب « الزعيم » أليس كذلك ؟ !

— ربما . . أننى لا أتذكر الآن . . لقد كان ذلك أثناء المراحل الأولى للحزب .



هل يحاول الغرب خطف هيس ؟

الفصل الثالث عشر

لأول مرة فى التاريخ يقع مثل هذا الحادث فى سجن شبانداو !

لأول مرة يحاول أحد المساجين الانتحار بتمزيق شرايين معصميه وساقيه !

إن هيس السجين الوحيد فى شبانداو ، الذى تتولى حراسته بريطانيا وفرنسا وأمريكا والاتحاد السوفيتى منذ ٣١ سنة حاول الانتحار . . ووضع الحلفاء الذين تكاتفوا ضد ألمانيا فى الحرب العالمية الثانية أمام مواجهة خطيرة .

إن روسيا التى أصرت سنة ١٩٦٩ على نقل هيس من زنزانته إلى المستشفى للمحافظة على حياته هى التى ترفض الآن . . وبإصرار نقله للمستشفى بعد محاولة الانتحار ويصرخ جنودها فى شبانداو . . أن الغرب يريد خطف هيس . . وإليكم القصة بالتفصيل !

الزمان ١٨ فبراير ١٩٧٧ . . الساعة تقترب من العاشرة مساء . . والمكان : هو الزنزانة رقم ٢٣ التى يقيم بها رودلف هيس بالدور الأرضى فى سجن شبانداو . .

جنود الحراسة يفتحون باب الزنزانة كعادتهم منذ ٣١ سنة . . لسحب نظارة السجين الطبية ، المصنوعة من البلاستيك ، وإطفاء النور ليجدوا السجين الوحيد البالغ من العمر ٨٣ سنة مستلقيا على الأرض والدماء تسيل من معصميه . . وقدميه ! !

بعد دقائق كان أطباء الحلفاء قد وصلوا . . اقترح بعضهم نقله إلى المستشفى لاجراء عملية نقل دم للرجل العجوز . . إلا أن الطبيب السوفيتى قال : إن الحالة لا تستدعى نقله خارج الزنزانة . .

ولما كانت القرارات تتخذ فى سجن شبانداو بالاجماع . . فقد تقرر بقاء السجين فى الزنزانة . .

وفى نفس اليوم عقد مديرو السجن إجتماعا ساخنا . . لبحث مشكلة هيس . . وهذه الاجتماعات بدأت تتخذ طابع العنف ، بعد أن تولى الرئيس الأمريكى كارتر السلطة . . وما صاحبه من غيوم فى سماء العلاقات السوفيتية الأمريكية . .

المهم . . إتخذ مديرو السجن قراراتهم . . وفى اليوم التالى كانت زنزانة هيس خالية . .

الكتب أعيدت إلى الأرفف . .

العوامة التى يستخدمها الأطفال لتعلم السباحة ، والتى يستخدمها هيس للجلوس على الكرسى الخشبى ، ملقية على السرير . .

الزنزانة هادئة تماما . .

أين هيس ؟ !

لقد قرروا نقله إلى زنزانة « التأديب » . . الزنزانة رقم (٧) بالبدروم عقابا له لأنه حاول الانتحار . .

والزنزانة رقم (٧) لها شباك لا يطل على السماء ، ومن خلاله لا يستطيع هيس رؤية قمم الأشجار . . فهم يعلمون أن متعة هيس فى السجن هى رؤية قمم الأشجار . . والسماء . .

فأرادوا حرمانه من متعته الوحيدة فى الحياة . . أما العقوبات الأخرى فهى حرمانه من القراءة أو الاستماع للراديو ، وإضاءة الزنزانة ليل نهار ! !

ولكن . . .

كيف تسرب نبأ إنتحار هيس ؟ !

أحكى لك :

قبل محاولة هيس الانتحار بأسبوع واحد كانت إدارة السجن قد بعثت إلى إبن هيس « فولف روديجار هيس » فى ميونيخ بتصريح الزيارة الشهرية يوم

الجمعة ٢٥ فبراير ١٩٧٧ ، لمدة نصف ساعة . . وفى موعد الزيارة وقفت سيارة « فولف » أمام باب السجن وقدم الشاب تصريح الزيارة فصحبه أحد ضباط الحراسة إلى غرفة الانتظار وبعد نصف ساعة جاءوا بالسجين العجوز يسنده بعض الجنود ، وهو يرتدى بلوفر رمادى يغطى معصميه ، وشراب أزرق يغطى قدميه . . « الاعياء الشديد يبدو عليه ، وذقنه على غير العادة ، غير حليقة . . وعيونه غائرة ، وحواجبه الكثيفة تكاد تغطيها تماما . .

إبتسم قائد الحراسة ، وهو يضع جهاز التسجيل بين الأب والابن قائلا :

— إنه مضرب على الحلاقة ؟ !

لم يعلق « فولف » على كلمات الضابط وجلس يتأمل الأب سائلا عن صحته . . وفجأة يقع ما لم يكن فى الحسبان ! !

لقد انفجر هيس يجهش بالبكاء وهو يتمتم بصوت متهدج ، يعتصره الألم :

— كفى . . كفى . . أريد أن أموت . . لقد تعبت . . تعبت . . لقد سئمت الحياة ! !

إن هيس لا يبكى . . ليست تلك عادته ، وصرخ الابن كطفل صغير ملسوع الأصابع . .

— ماذا حدث . . ماذا جرى لك يا أبى . . قل لى . . ماذا فعلوا بك ؟

وتكهرب الموقف . . وكأن جدران السجن كلها قد تداعت ، من فرط الأحاسيس الأليمة التى تفوق مقدرة البشر . .

وجاء صوت الطبيب الفرنسى قائلا للابن :

— دعه يركن للراحة . . هيا بنا ! !

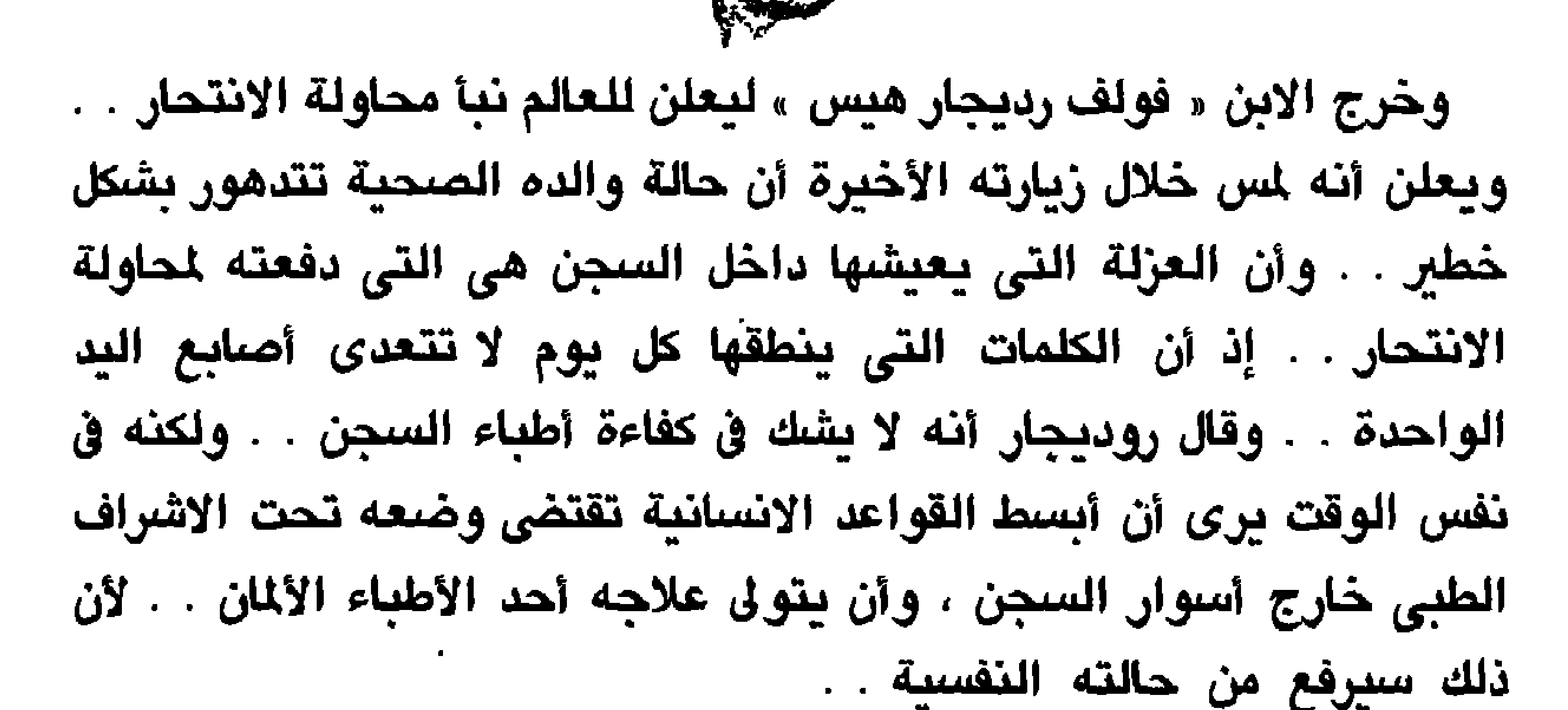
وعاد الابن يسأل فى إلحاح :

— أريد أن أفهم ، ماذا جرى ؟ !

وهنا غادر قائد السجن الحجرة مشيرا إلى الجنود بإعادة هيس إلى الزنزانة . . وخرج فولف ! !

فى غرفة مدير السجن . . عرف فولف بمحاولة الانتحار . . وقالوا له أن الدماء التى سالت كانت قليلة للغاية . . وأن الأمر لا يحتاج إلى نقله

للمستشفى ، وأن هيس استطاع بعد إسعافه أن يسير على قدميه عائدا إلى زنزانته مرة أخرى ، وأنه لا داعى لابلاغ الصحافة بنبأ محاولة الانتحار . . وقالوا له أنه فى اليوم التالى أجرى فحص طبى شامل على السجين واتفق الأطباء على أن حالته الصحية لا تستدعى نقله إلى المستشفى .



هيس لوحة زيتية رسمها له
الفنان كارل هورن سنة ١٩٣٣

وخرج الابن « فولف رديجار هيس » ليعلن للعالم نبأ محاولة الانتحار . . ويعلن أنه لمس خلال زيارته الأخيرة أن حالة والده الصحية تتدهور بشكل خطير . . وأن العزلة التى يعيشها داخل السجن هى التى دفعته لمحاولة الانتحار . . إذ أن الكلمات التى ينطقها كل يوم لا تتعدى أصابع اليد الواحدة . . وقال روديجار أنه لا يشك فى كفاءة أطباء السجن . . ولكنه فى نفس الوقت يرى أن أبسط القواعد الانسانية تقتضى وضعه تحت الاشراف الطبى خارج أسوار السجن ، وأن يتولى علاجه أحد الأطباء الألمان . . لأن ذلك سيرفع من حالته النفسية . .

وانضم إلى فولف محاميان : ايفالد بوشا وكان وزيرا سابقا للعدل فى الحكومة الألمانية كما انضم إليه الدكتور بيرد وهو الطبيب الأمريكى الذى كان يتولى رئاسة القسم الطبى للسجن وتربطه بهيس صداقة وطيدة . .

لقد أعلن الدكتور بيرد أن سجن شبانداو أصبح يرمز للكراهية وشهوة الانتقام .

وفى نفس الوقت أرسل المحامى إيفالد بوشا بأربع برقيات إلى زعماء الدول الأربع الكبرى يحثهم على الافراج عن هيس . . أو على الأقل نقله لاحدى المستشفيات .

إن الرجل أمضى داخل الزنازين ٣٦ سنة . . منها ٣١ سنة داخل زنزانته الحالية . . والمحاولات تجرى لنقله إلى المستشفى ، وروسيا مصممة

على الرفض . . وتقول أن الغرب يدبر خطة لخطف هيس . . لانهاء الوجود السوفيتى فى برلين الغربية تماما . .

' إن وجود هيس فى برلين الغربية هو « مسمار جحا » للسوفيت وإذا نزع المسمار . . فإن جحا الروسى لن يدخل برلين الغربية .

إن قرارات محكمة نورمبرج أعطت للروس والأمريكان والفرنسيين والانجليز حق الحراسة فى شبانداو . . وبالتالى فإن القوات الروسية تخترق المدينة بمنتهى الحرية متجهة إلى شبانداو لحراسة هيس . . وهيس هو السجين الوحيد الآن . . فإذا مات أو خطف انتهى مبرر وجود هذه القوات . .

والسؤال . . هل حاول هيس قبل ذلك الهرب ؟ . . وما هى آخر مرة خرج فيها من الزنزانة إلى المستشفى ؟ !

كان ذلك فى ظهر يوم من أيام نوفمبر١٩٦٩ . . كان هيس قد أضرب عن الطعام وبدأ وزنه يهبط بشكل مذهل . . رفض أن يقترب منه الحلاق لحلاقة ذقنه . . بل رفض مغادرة فراشه تماما . . وفى نفس الوقت ظل يعوى ويصرخ طول الليل بصوت يسمعه الجنود وهم فى كبائن الحراسة خارج السور المكهرب . . كانت أصوات صراخه مخيفة ومرعبة لدرجة أن كلاب الحراسة كانت تجرى مفزوعة داخل الحديقة الكبيرة عند سماع هذا الصوت . . وتحاول الابتعاد عن مصدره ! !

وفى يوم الأربعاء ١٩ نوفمبر سنة ١٩٦٩ . . وشهر نوفمبر هو شهر الحراسة السوفيتية . . إستدعى الجراح السوفيتى زميله البريطانى العميد طبيب أوبرين لفحص هيس . . فوجد أن حالته خطيرة . . وبعد اجتماع لمديرى السجن الأربعة وافقوا على نقله إلى المستشفى العسكرى البريطانى الذى يقع على بعد كيلومترات من السجن . .

وفتحوا زنزانة هيس ومعهم نقالة . . إلا أن الرجل ظل يعوى ، ويقول صارخا :

— إننى أرفض الانتقال إلى المستشفى . . عالجونى هنا ! !

وإزاء إصرار هيس على البقاء فى الزنزانة أصر الطبيب السوفيتى على أن حالة السجين خطيرة . . وأنه لا بد من نقله إلى المستشفى ، مهما كان الثمن . . من باب العناد !

يومها تم حقن هيس ببعض المهدئات ، وفى اليوم التالى أرسلوا إليه عددا من الأطباء النفسيين لاقناعه بمغادرة الزنزانة . . إلا أنه كان يردد بالألمانية كلمة « لا » (Nein) .

وعندما فشلت كل وسائل الاقناع اتصل الأطباء بالكولونيل بيرد وهو مدير القسم الطبى بالسجن وتربطه بهيس علاقة ثقة متبادلة . . وطلبوا إليه الحضور فورا . . وقالوا له أن السجين رقم ٧ فى خطر !

× × ×

وصل بيرد ليجد هيس جالسا على سريره يرتدى بيجامة رمادية اللون واضعا ركبتيه بين ذقنه ويداه ملتفتان حولهما وأصابعه متشابكة . . وما كاد هيس يرى بيرد حتى بدأ يبكى . .

قال بيرد للأطباء الموجودين فى الغرفة :

— دعونى وحدى معه !

خرج الأطباء ، ووسط البكاء قال هيس :

— لا أريد الذهاب . . يا كولونيل . . إننى خائف !

قال بيرد مهدئا خاطر هيس :

— إذا وافقتنى . . فأننى أذكر لك أنك ستلقى أحسن معاملة . . يجب أن تذهب . . إن عملية عاجلة يجب أن تجرى لك فورا ، وفى أقرب وقت . .

نظر هيس إلى بيرد ، وهو يقبض على يديه ، مستعطفا إياه :

— هل ستذهب معى ؟ هل ستزورنى كل يوم فى المستشفى ؟

أومأ بيرد برأسه موافقا ، وأخرج شهادة مكتوبة باللغة الألمانية ، وقدم إلى هيس قلما وطلب إليه التوقيع . .

كانت كلمات الشهادة تقول : أشهد أننى وافقت على نقلى إلى المستشفى العسكرى البريطانى لاجراء بعض الفحوص الطبية .

بأصابع مرتعشة ، وقع هيس . . وخرج بيرد يبلغ الأطباء بإحضار النقالة . .

عاد « بترد » إلى الزنزانة ووقف إلى جانب هيس الذى جذبه بشدة جعلت بيرد يميل بقامته الطويلة لكى يستمع إلى هيس يهمس قائلا :

— أننى خائف . . وأشعر أنه لم تعد فى حياتى سوى أيام قليلة . . أننى سأموت . . أنا الآن على وشك النهاية !

لم يعلق بيرد . . وعاد هيس يتكلم . .

— لماذا لا يفرجون عنى . . لماذا ينبغى على أن أعانى كل ذلك . . إننى الوحيد الذى حاول أن يعيد السلام إلى العالم ، وجزائى الآن أن أبقى هنا طوال حياتى . . هذا خطأ . . هذا ظلم . .

كان هيس يهذى بهذه الكلمات والدموع تنساب بغزارة على خديه وفجأة قال :

— كولونيل . . إسمعنى جيدا . . أريد منك أن تقوم بعمل من أجلى . . أريد أن تخطفنى . . إنك تستطيع ذلك . . أن الروس سيحتجون بالطبع ، ولكن بمجرد وجودى خارج برلين ، وانتقالى إلى الغرب ، لا يمكن أن يحدث أى شىء . .

وصمت هيس قليلا ثم عاد يقول :

— إن مثل هذا القرار لا يجب أن يتخذ فى البيت الأبيض الأمريكى ، ولكنك أنت تستطيع أن تفعل ذلك . . وأنت تعلم بلا شك رأى البيت الأبيض فى الافراج عنى . . أرجوك . . طاوعنى . . إن بعض المتاعب ستنجم بلا شك عن إختطافى ولكنها متاعب مؤقتة . . لن تستمر طويلا ، وسوف ينساها العالم ! !

وفى هذه الأثناء ، دخل أحد الأطباء ، ومعه مجموعة من مساعديه يحملون النقالة ، وأسرعوا يحملون هيس ، ويهبطون به ٢٢ درجة حيث كانت سيارة الاسعاف تقف فى الفناء الكبير ، وحولها عدد هائل من العربات المصفحة ، وعربات اللاسلكى ، وفوق السجن حلقت طائرة هليكوبتر ، لترقب الموقف عن كثب ! !

وضع الجنود النقالة داخل عربة الاسعاف . . وإنطلق الموكب يخترق الشوارع إلى حيث يقع المستشفى العسكرى البريطانى على بعد كيلو مترين من السجن . .

× × ×

حول المستشفى دوريات مستمرة من الجنود بالمدافع الرشاشة . . لأن تلك كانت المرة الأولى التى يخرج فيها هيس من الزنزانة منذ سنة ١٩٤٧ . .

احتلت قوات الحراسة جميع الغرف المحيطة بغرفة هيس بالمستشفى أى الغرفتان المجاورتان . . وكذلك الغرفتان اللتان تعلوان غرفته واللتان تقعان أسفلهما خوفا من قيام محاولة لاختراق الجدران وإختطاف السجين النادر المثال . .

وفى ٢٩ نوفمبر . . أى بعد ثمانية أيام من وجوده فى المستشفى . . إستدعى هيس طبيبه وقال له : إنه سيموت الآن ، وطلب إستدعاء مديرى السجن الأربعة لابلاغهم بوصيته . .

هرول الطبيب البريطانى يستدعى المديرين الأربعة . . وعاد ليجد أن قلب هيس قد توقف ! !

أعلنت حالة الطوارىء فى المستشفى ، وقاموا بعمليات سريعة لتدليك القلب . . وبعد محاولات مضنية عادت دقات القلب من جديد . . ونطق هيس . .

قال :

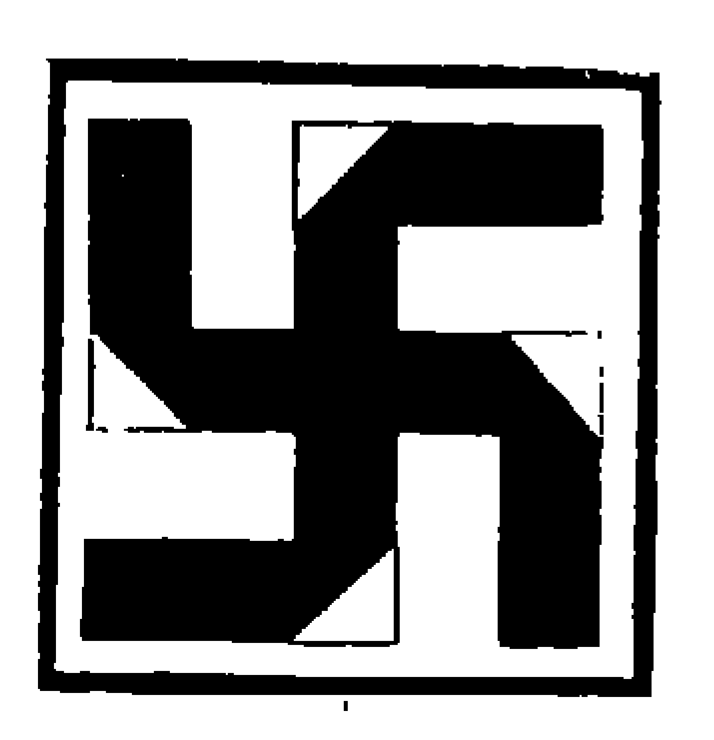
— أرجو أن يحضر كذلك محامى الدكتور سايدل وأحد الموثقين الألمان واخطار إبنى وزوجتى فور الوفاة مباشرة .

وبعدها توقف قلب هيس مرة أخرى . .

وتجددت المحاولات . .

ووصل المديرون الأربعة ليجدوا أن الحياة قد عادت إلى هيس من جديد . .

كان رأى الأطباء عدم إرهاق هيس بإملاء وصيته . . إلا أن الطبيب الروسى أصر على قيام هيس بإملاء الوصية فورا وقال : أن هذه الوصية ستعبر عن أفكاره ، التى نستطيع عن طريقها اختيار أسلوب علاجه . .



الطريف أن الحراسة كانت مستمرة فى شبانداو . .

السجن ليس به أى سجين . . ومع ذلك فالحراسة عادية ، والدوريات نشطة . . كأنها تسير بالاندفاع الذاتي . .

وفى نفس الوقت كان الروس يفكرون فى إجراءات الجنازة ومصير الجثمان ، وبعد مشاورات تنازلوا عن فكرة دفن هيس فى حديقة السجن ، وتحويله إلى نصب تذكارى تشرف عليه الدول الأربع التى انتصرت فى الحرب . . أى أن يستمر مسمار جحا . . حتى بعد وفاة هيس . .

كان هيس قد أعرب عن رغبته فى أن يدفن فى حى الابراهيمية بالاسكندرية . . ووافق الحلفاء على ذلك . . أما فولف هيس فله رأى آخر . . إنه يقول :

— إن الحلفاء تحكموا فى أبى حيا . . ولا يجب أن يتحكموا فيه ميتا . . إن من حقنا إستلام جثمانه . . ونحن ندفنه حيث نشاء .

× × ×

هيس الآن فى الزنزانة رقم ٢٣ . . ومحاولات الافراج عنه تجرى على قدم وساق . . وفى إحدى نقاط الحراسة داخل أسوار السجن وقف جنديان سوفيتيان يقطعان الوقت بنبأ محاولة إنتحار رودلف هيس . .

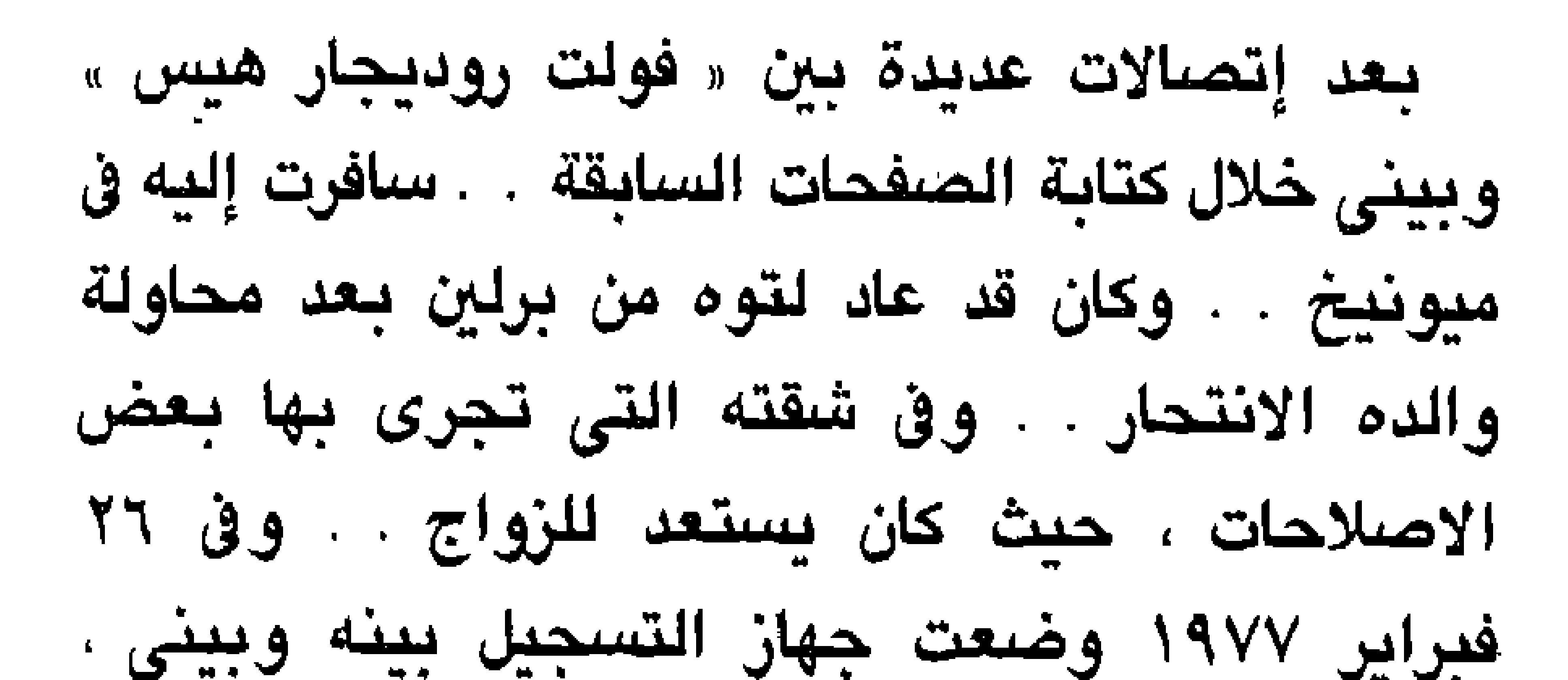
قال أحدهما :

— من المؤسف حقا أن يظل هذا الرجل العاجز داخل السجن . . خصوصا الآن بعد أن أصبح عاجزا تماما عن القيام بأى شىء . وبدهشة يرد زميله الذى لم يكن قد ولد بعد . . وقت أن دخل هيس السجن . . يرد باستنكار . .

— تقول عاجز . . يالك من ساذج حقا . . إن هيس ليس عاجزا . . فأنت لا تعرفه . . إنه خطير . . خطير جدا ! !



أبى ليس معتوهــا !



الفصل الرابع عشر

بعد إتصالات عديدة بين « فولت روديجار هيس » وبينى خلال كتابة الصفحات السابقة . . سافرت إليه فى ميونيخ . . وكان قد عاد لتوه من برلين بعد محاولة والده الانتحار . . وفى شقته التى تجرى بها بعض الاصلاحات ، حيث كان يستعد للزواج . . وفى ٢٦ فبراير ١٩٧٧ وضعت جهاز التسجيل بينه وبينى ، وجرى الحديث الآتى :

قلت : كيف كانت صحة والدك فى السنوات الأخيرة ؟

قال : من خلال إنطباعاتى أثناء الزيارات التى قمت بها له فى السجن ، فإن على أن أقول إنها ليست سيئة . . إنه كان دائما فى حالة جيدة من الناحية العضوية . . وكان كالعادة نشيطا . . أما التغيير الذى لاحظته أثناء زيارتى الأخيرة له بعد محاولة الانتحار فهو تغيير نفسى بالدرجة الأولى ، وهذا التحول فى حالته النفسية هو الذى دفعه بالطبع لمحاولة التخلص من حياته !

* هل لهذه الحالة النفسية علاقة بما يشاع عن حالة الخلل العقلى التى يعانى منها ؟

● لا أعتقد ذلك . . ورأيى أن أى قول عن جنون أبى غير صحيح بالمرة . . ففكرة « العته » ترجع أساسا إلى الخطاب الذى تركه والدى قبل أن يطير إلى إنجلترا ، وقال فيه لهتلر . . إنه إذا فشلت مهمتى فلك أن تتبرأ منى أو تتهمنى بالجنون . . هذا من ناحية . . ومن ناحية أخرى فإنه على الرغم من كل ما قيل أثناء محاكمة نورمبرج عن حالة والدى العقلية . . فقد حوكم

وصدر ضده حكم . . وبديهي أن المحاكم لا تصدر أحكامها ضد المجانين . لقد عرضوا على أبى أثناء المحاكمة العديد من أصدقائه الذين تربطهم به علاقة قوية مثل « كارل هاو سهوفر » وسكرتيرته الخاصة قال يومها إنه لايعرفهما لدرجة أن سكرتيرته الخاصة أصيبت بصدمة نفسية قاسية عندما قال إنه لايعرفها ، وإنه لم يرها من قبل . . ولكن حدث بعد ذلك أثناء زيارة أمي وأنا له سنة ١٩٦٩ . . أى بعد ٢٤ سنة . . كانت أول ملاحظة قالها أبى . . أرجوكم أن تبلغوا إعتذارى إلى سكرتيرتي الخاصة السابقة لسوء مقابلتي لها أثناء محاكمتي في نورمبرج . . لقد تذكر هذه الواقعة كما قلت لك بعد ٢٤ سنة بمنتهى الوضوح .

* هل تستطيع أن تصف لى حالته الصحية . . فربما يعانى من نفس المرض الذى أصابه سنة ١٩٦٩ ؟

● إننى لست طبيبا . ولذلك فأنا لا أستطيع أن أحكم على هذه الناحية . . قد يكون نفس المرض أو أشياء أخرى جديدة ، كلها تتكاتف وتلقى بأثقالها على صحته . . بسبب الظروف التى يعيش فى ظلها فيوجد بلا شك قليل جدا من البشر الذى يستطيعون تحمل ما تحمله هو . . ربما عاوده مرض القرحة الذى أصابه سنة ١٩٦٩ . . ولكنى لا أستطيع أن أجزم بشيء . . فأنا لست طبيبا . . فضلا على أنه لم يجر لأبى أى فحص طبى يمكننى الاعتماد عليه للرد على سؤالك .

* هل تستطيع أن تصف لى حالته ، خلال السنوات العشر الأخيرة التى أمضاها وحده تماما فى شبانداو . . أعنى أى إنطباع وجدته أنت عن حالته فى ظل هذه العزلة الكاملة ؟

● لابد أن أذكر لك هنا أن أبى تحمل ولايزال يتحمل حالة العزلة التى لاتزال مستمرة حتى الآن . إن لديه قوة إرادة غير عادية . . ويشعر بأنه غير مذنب . . وبالرغم من كل هذه الظروف فإنه لم ييأس أو ينحنى أو يلجأ إلى الطرق الملتوية أو الندم .

* لقد إنتقد بعض زعماء النازى مثل البيرت شبير فترة ما قبل الحرب . . بينما لم يقم والدى بذكر أى شيء عن ذلك . . فهل تعتقد أنه لايزال يؤيد هذا النظام ؟

● ليس مسموحا له أن يتكلم عن ذلك . . أى حديث معه عن الفترة من

سنة ١٩٣٣ حتى سنة ١٩٤٥ ممنوع .

* أفهم من ذلك أنه لم يتكلم معك أبدا عن هذه الفترة ؟

● لا . . ويجب أن أقول لك بهذه المناسبة . . إنه على الرغم من كل الاتهامات فإنه لم يبد على الاطلاق ندمه كما لم يعرب عن أسفه عن أى فعل قام به عن إيمان وإقتناع .

* ما هو السر الذى تعتقد أنه وراء رفض السوفيت المستمر للافراج عن والدك ؟

● هناك فقط حجج . . مجرد حجج ينصب الجزء الأكبر منها أنه لم يظهر حتى الآن ندمه وانه نازى قديم ، ولايزال يتمسك بنازيته . . وهذه مسألة لايستطيع آحد أن يعرفها أو كيف يفكر فيها حقيقة . كما أنه ليس من المتوقع فى ظل الظروف التى يعيشها أن يدلى هو بأى إيضاح حتى إذا أراد . . ولذلك فإن تلك مزاعم دعائية بحتة . فالسوفيت لهم أسباب أخرى . . وهو أن يبقى سجن شبانداو قائما . . وأبى سجينا به . . أسباب لها طابعها السياسى . . أن يكون بين أيديهم رهينة يساومون بها للحصول على ثمن سياسى فى لحظة ما . .وأذكر الآن أنه منذ شهرين نشرت بعض الصحف نقلا عن حديث لمسئول فى ألمانيا الديمقراطية . . قال فيه إنه يمكن الافراج عن رودلف هيس فى حالة واحدة عندما يعلن الحلفاء موافقتهم على أن مشكلة برلين قد إنتهت وأن مسألة الرقابة على برلين قد إنتهى عهدها . . وأن برلين ليست مدينة واحدة ، وإنها مدينتان وأن تعترف بأن برلين الشرقية هى عاصمة المانيا الديمقراطية . .

* يعنى يصبح والدك موضوع مساومة نظير تنازلات سياسية ؟

● بالضبط ودون مراعاة لأى إعتبارات إنسانية .

* هل تعتقد حقيقة أن هذا هو السبب أم للكراهية الشديدة المتبادلة بين والدك والسوفيت ؟

● هذه نقطة أخرى . . وهى التى تتناولها أجهزة الدعاية السوفيتية دائما . . فالشعب السوفيتى شعب يفكر بطريقة عملية ، والحديث اليوم عن الكراهية لم يعد تعنيه ولكنها مجرد دعاية لتبرير إستمرار إعتقال أبى أمام الرأى العام السوفيتى .

* فى أبريل القادم (سنة ١٩٧٧) سيبلغ والدك من العمر ٧٣ سنة . .

وفى ١٠ مايو القادم ستكون قد مضت على وجوده بين الزنازين ٣٦ سنة وفى ٢٠ ديسمبر القادم ستكون قد مرت ٥٠ سنة على زواجه وفى نوفمبر ستبلغ أنت من العمر ٤٠ سنة . . هل أعرب والدك عن أمله فى أن يفرج عنه ، لكى يموت على الأقل خارج أسوار السجن . . هل قال فى خطاباته لوالدتك أو لك أنه يتمنى أن يعيش حرا طليقا . . هل لايزال عنده الأمل فى ذلك ؟ هل لايزال عنده الأمل لكى يحال إلى المعاش ؟! أم أنه إستسلم للواقع ؟

● أبى لم يستسلم . . وعلى أساس التطورات الأخيرة فإننى لا أعرف شيئا ولا أستطيع الحكم على هذه الرغبة . . فقبل محاولة الانتحار الأخيرة لم يظهر هو أى نوع من الاستسلام .

* هل لا تزال تعتقد أنه من الممكن الافراج عنه حيا ؟

● أريد أن أقول لك شيئا . . ما دام هو شخصيا لم يفقد الأمل فإنه ليس من حقنا ، ونحن خارج السجن أن نفقد الأمل . . لايزال لدى بعض الأمل ولا سيما فى دول الحلفاء لوضع نهاية لهذه الفضيحة .

* وماذا تستطيع أنت أن تفعل ؟

● أستطيع فقط أن أذكرهم بإلتزامهم الأدبى ، وهذا الاجرام فى حق الانسانية . . أستطيع المحاولة من خلال الصحف وأجهزة الاعلام أن أبين لهم الفرق بين أحاديثهم عن حقوق الانسان وما يتبع عمليا مع والدى فى شبانداو .

* هل تعتقد أن محاولة والدك الانتحار فى « شبانداو » قد أحيت الأمل فى مسألة الافراج ؟

● لاشك أن هذا التطور الأخير قد قوى الأمل . . لأنه لايستطيع أحد أن يوافق على إستمرار والدى فى الحياة تحت هذه الظروف اللا إنسانية .

* هل تستطيع الدول الغربية الافراج عن والدك دون موافقة السوفيت ؟

● إنهم يستطيعون ذلك فى كل وقت . . ولا أعنى أن ذلك يتم عن طريق فتح باب السجن فى فترة الحراسة البريطانية أو الفرنسية أو الامريكية ويقولون « الآن نتركه يذهب » ولكن هناك وسائل دبلوماسية ، وإتصالات ولقاءات بين دول الحلفاء يستطيعون من خلالها إتخاذ الموقف المناسب . . وبالنسبة لى فلا أستطيع أن أدخل فى رأس وزير الخارجية البريطانى ، وأرى الأساليب الممكنة . . ولكن على أية حال وبكل تأكيد فإن الطريق موجود .

* هل تعتقد أن الحلفاء مستعدون لتعقيد علاقتهم مع السوفيت من أجل والدك ؟

● مثل هذه التعقيدات تثار دائما وهذا غير صحيح لأن الافراج عن رجل مسن فى الثالثة والثمانين من العمر . . وبعد هذا الوقت الطويل داخل الزنازين والسجون لا يمكن أن يحدث أى تعقيدات إذا أعطت الدول الغربية هذا الموضوع نوعا من الأهمية وأعلنت موقفها إزاء هذه القضية بوضوح . . وفى الوقت الحاضر يعانى السوفيت من مشكلة المنشقين ولا أعتقد أن السوفيت سيثيرون مشكلة أو تعقيدات سياسية بسبب الافراج عن أبى .

* هذا يعنى أن الغرب لن يبذل جهدا هائلا لوضع مشكلة هيس على مائدة البحث ؟

● أستطيع أن أقول لك بكل وضوح أن مفتاح سجن شبانداو موجود فى لندن وليس فى موسكو . وقد يبدو لك هذا الكلام غريبا وعكس ما يعتقده الكثيرون ولكنه الحقيقة !

* يعنى أنت لاتعرف ماذا يفعل هناك وحده ؟!

● عندما أصدر الدكتور « بيرد » طبيب السجن كتابه عن حياة أبى داخل السجن ، حاولت فى إحدى المرات مناقشة أبى فى بعض محتوياته . . رفض المدير السوفيتى للسجن ذلك . . لأن قانون السجن يقضى بتناول الحديث فى موضوعين فقط . . الأول الموضوعات الشخصية وتلك لايمكن مناقشتها فى حضور مندوبى السجن . . لأنها موضوعات شخصية . . الثانى الموضوعات العامة وتلك أتكلم من خلالها مع أبى عن رحلاتى فى الخارج وعملى ، ورحلات الفضاء والهندسة ، والصعود للقمر . . أما تفاصيل حياته فى السجن فلا يجوز الحديث عنها . . ولم يحدث عكس ذلك إلا فى زيارتى التى علمت فيها أنه حاول الانتحار . . هذه هى المرة الأولى التى لم يحاول فيها المديرون الأربعة قطع الحديث عندما روى لى أبى ما حدث له وهو يبكى !

* ما هو أسوأ شىء يعانيه والدك فى السجن . . ما الشىء الذى ينغص عليه حياته بصفة خاصة ؟

● الوحدة التامة . . إنه لا يتكلم مع أحد . . إنه يتكلم فقط مع القس الفرنسى الذى يزوره مرة كل إسبوع ، ومع أهله الذين يزورونه نصف ساعة كل شهر . . عدا ذلك فهو فى وحدة تامة . . لايتكلم مع أحد .

* ولكن ماذا يضايقه أكثر . . عدم السماح له بالحديث عن حياته الحالية فى شبانداو . . أم عن ماضيه فى سنة ١٩٣٣ حتى سنة ١٩٤٥ أم عن محاكمة نورنبرج ، أم عن رحلته لبريطانيا سنة ١٩٤١ . . ماذا يضايقه أكثر ؟

● لم يقل لى شيئا عن ذلك .

* لماذا هل لأنه ممنوع من الكلام فى هذه الموضوعات . . أم لأنه ليس لديه ما يقوله ؟

● لم يقل لى شيئا عن ذلك .

* يعنى رودلف هيس يعيش الآن فى شبانداو كإنسان إنقطع ماضيه تماما ولايعيش إلا لحظاته اليومية . . وإن بابا أغلق أمام تاريخه كله . .

● تمام . .

* هل لاتزال قواعد السجن صارمة كما كانت فى بداية مراحل السجن . . والسلام باليد ممنوع ؟ ● نعم . .

* ألا تخشى بعد نشر حديثى معك أن تتهم بإفشاء تعليمات الزيارة ؟

● أخشى نعم . . ولكن أخاف لا . . وحتى الخشية لم تعد تهمنى كثيرا لأن الظروف الحالية فى « شبانداو » وصلت إلى الدرجة التى لم يعد من الممكن بعدها فقد شىء . . فلا يوجد أسوأ وألعن مما يواجهه والدى الآن لأن محاولة الانتحار إرتبطت بالكشف عن مرض يعانى منه والدى . . ولا أعتقد أن هناك أسوأ من ذلك الموت ، ولذلك فإننى لا أرى مبررا للتستر على ما يجرى فى شبانداو .

* إذن احك لى . . ● ماذا ؟

* ما هى الممنوعات التى تضمنتها لائحة الزيارة ؟

● منها مثلا . . خلع ملابسنا للتفتيش . وتفتيشنا ذاتيا حتى لانسلمه مواد أو أشياء ينتحر بها ! * حتى الآن ؟!

● نعم . . صحيح أنها لاتطبق بدقة كل مرة ولكنها موجودة . .

* وماذا أيضا ؟

● ممنوع إبداء أى إشارة أو حركة يفهم أن لها معنى أثناء الحديث . ممنوع السلام باليد أو بالذراع أو حتى اللمس وتلك تطبق بدقة كاملة وكل ضيف يخالف هذه التعليمات يقبض عليه فورا .

* إذن من الممكن أن يحدث لك ذلك . . وتجد نفسك أنت الآن فى زنزانة

إذا سلمت على والدك باليد . . ● ممكن طبعا . .

* كان والدك طوال فترة سجنه يرفض العمل فى الحديقة . . هل لايزال على نفس الحال ؟

● إنه لايزال يرفض ذلك من حيث المبدأ ، وذلك يتمشى مع شخصيته فهو يرفض ويتمسك بالرفض .

* ألا يزال يطعم الطيور ؟ ● أعتقد ذلك . .

* إلى أى حد تصل درجة مراقبتهم له ؟

● بنفس الدقة التى كانت عليها سنة ١٩٤٦ . .

* ما هى الأشياء الممنوع عليه قراءتها ؟

● بصفة عامة أى شىء عن الفترة من سنة ١٩٣٣ حتى سنة ١٩٤٥ بل بعض الكتب التى تتناول الوقت الحاضر ؟ * ماذا يقرأ إذن ؟

● لقد كان يهتم فى السنوات الأخيرة ليس ببرنامج أبوللو ورحلات الفضاء وإنما بجغرافية القمر . . وله نظريته حول علاقة تركيب فوهات البراكين بتركيب صخور القمر ذاتها و . .

* ألا يقرأ عما يجرى فى العالم . . أعنى ما يجرى على الأرض .

● إطلاقا . .

* هل يسمح له بالاستماع للراديو ؟

● ليس لديه راديو أو تليفزيون .

على فكرة : تم إدخال التليفزيون الملون فى زنزانته بتاريخ ١ يوليو ١٩٧٧ . . أى بعد إجراء هذا الحوار بأربعة أشهر تقريبا . .

* حتى البرامج الموسيقية مثلا ؟

● لايوجد فى سجن « شبانداو » أى جهاز يستطيع إستخدامه . .

* هل تقدمت أنت بطلبات لتركيب راديو فى زنزانته ؟

* طبعا . . ولكن لم يحدث أبدا أن تلقيت أى رد على أى من هذه الطلبات . تماما مثل الطلبات التى تقدمت بها لتطويل مدة الزيارة . إن مديرى السجن الأربعة يحجمون عن الرد . . أما الذى يسمحون له به فهو الاستمرار فى تنظيف زنزانته بنفسه ومسح دورات المياه ، والاستحمام مرة واحدة فى الأسبوع ، وليس كلما إحتاج هو إلى ذلك .

* عندما طار والدك إلى بريطانيا . . كنت أنت تبلغ من العمر ثلاثة أعوام ونصف . . أنت الآن تبلغ ٤٠ عاما . . هل لاتزال تذكر أى شىء عن علاقتك به أثناء الطفولة ؟

● نعم هناك بعض المواقف لا أزال أذكرها بصفة خاصة . أذكر الأماكن التى لعب معى فيها . . أذكر الأماكن التى صحبنى فيها للنزهة . . أذكر يوم صحبنى إلى حمام السباحة ، وأذكر يومها أننى تزحلقت على الأرض وسقطت فى الماء ، أذكر كيف أخرجنى و . .

* أنت رأيت والدك لأول مرة سنة ١٩٦٩ فى المستشفى العسكرى فى برلين وكنت تبلغ وقتها من العمر ٣٢ سنة . . أى أنك لم تره خلال فترة طفولتك ولا شبابك . . متى تبينت أنك إبن واحد ممن يطلقون عليهم مجرمى الحرب . . كم كان عمرك ؟

● لقد أدركت ذلك بنفسى ولم أحتاج لكى يقول لى أحد ذلك . . وعلى كل حال كان عمرى ثمان سنوات .

* كنت تدرك . . ولكن هل كنت تستطيع أن تفهم معنى ذلك ؟

● بعض الشىء . .

* هل واجهتك بعض العقبات بسبب كونك إبن رودلف هيس ؟ .

● باستثناء بعض المواقف . . أستطيع أن أقول لا . . فقد كنت أرى فى عيون الشعب تقديرهم لأبى ، وتلك مسألة لم تغب عن بالى أبدا . . ومن ناحية أخرى فإنى كتلميذ فى المدرسة أو طالب بالجامعة وبكلية الهندسة لم تلعب تلك المسألة أى دور . . لم تكن صفتى كإبن هيس جريمة . . وبالتالى لم تكن هناك عقبات . . أما العقبة فهى بعد توظفى . . بمعنى أننى أبذل كل ما أستطيع من جهد ووقت للافراج عن أبى وذلك بالطبع على حساب العمل .

* ولكنى سمعت بنفسى بعض الألمان يقولون . . ما هذه الضجة المثارة حول هذا النازى العجوز . . لماذا لا يتركونه يموت فى السجن . . ألم تسمع أنت ذلك . . وما هو ردك على هؤلاء الناس ؟

● يجب أن يفرق المرء فى هذه الحالة بين شخص لديه رأى ويمكنك إجراء حوار معه ، وبين إنسان يرسل إليك خطابا من مجهول . . وفى الفترة الأخيرة استمعت إلى نموذجين من النوع الأول . . النموذج الأول هو « باومان » سيناتور العدل فى برلين والآخر هو سيناتور العدل السابق « كلوج »

Sehr geehrter Herr Fahmy,

Vielen Dank für die Übersendung des ersten Exemplars der Zeitung "Akher Saa". Ich habe hier in München Bekannte, die sehr gut arabisch sprechen und mir Ihren Aufsatz übersetzen werden.

Ich warte immer noch auf Ihren Vorschlag für einen Gesprächstermin. Es ist mir leider nicht möglich, nach Bonn zu kommen, da ich beruflich zur Zeit in München sehr stark angespannt bin. Ich bitte hierfür um Ihr Verständnis.

Mit freundlichen Grüssen
Ihr

1. Dezember 1976
Hs/il

●● صورة الخطاب المرسل من فولف روديجار هيس . الابن الوحيد لسجين شباندآو إلى محمد فهمى . قبل اجراء الحديث الصحفى معه فى ميونيخ ، لقد رحب روديجار فى خطابه بإجراء الحوار واعتذر عن عدم الحضور إلى بون بسبب مشغولياته فسافر إليه المؤلف فى ميونيخ . .!!

الذى يعيش الآن فى هامبورج . فبين الرجلين إختلاف واضح فى الرأى على الرغم من أن كليهما ضد إثارة الضجة ، كما تقول ، هناك نوع من الناس ينبع إعتراضه عن أسباب يمكن مناقشتها وبالتالى تدعو للاحترام ونوع آخر يدفعك للاحساس تجاههم بعكس ذلك .

* بالاحتقار ؟! ● نعم .

* هل تتلقى خطابات من مجهولين ؟ ● أتلقى كل يوم نحو ٥٠ خطابا نسبة الخطابات السلبية منها ١٪ ، ولك أن تفهم أنت دلالة ذلك .

* هل تثير فترة سجن والدك الطويلة بعض الكراهية فى نفسك ضد شخص معين أو أشخاص معينين . ؟ ● لا . . على الاطلاق .

* هل تشعر بالمرارة ؟ ● لا . .

* هل ضايقتك بأسئلتى ؟ ● لا . .

* رفض والدك بعد صدور الحكم عليه فى نورمبرج . . أن يتقدم بإلتماس للعفو عنه هل تعتقد أن ذلك هو موقفه حتى الآن ؟ ● بلا شك . .

* وأنت ؟! ● وأنا أيضا إننى أرفض بأى حال أن يتم الافراج عن طريق إلتماس . . لقد رفض أبى ذلك . . وأنا أعطيه الحق لأن تقديم الالتماس معناه الاعتراف بالذنب . .

* لقد أعلن السوفيت منذ عدة سنوات إستعدادهم للافراج عن والدك ، إذا قدم اعترافا بالذنب من خلال إلتماس يتقدم به . . !

● إنه لن يفعل ذلك أبدا . .

* هكذا ببساطة . . بلا أى إعتراض من السوفيت أو حتى إستخدامهم القوة ؟

● استخدام القوة ! ! هذه مسألة لايجب عليك أن تفكر فيها . . فالرئيس الأمريكى كارتر أعلن بعد تنصيبه مباشرة أنه يقف بحزم مع حقوق الانسان ويطبق المبادىء التى تقوم على أسس إنسانية . . فإنه عندما يقول الآن أنه يرى أن ثمة حالة فى برلين ضد الانسانية وضد بيان هلسنكى وضد ميثاق الأمم المتحدة وضد إتفاق حقوق الانسان . . فكيف يعترض السوفيت عندما يقال لهم كل ذلك ؟! هل يقفون ضد كل هذه المبادىء ويستخدمون القوة ؟! . . هذا ما لا يمكن حتى مجرد التفكير فيه .

* إذن أنت تتهم الدول الغربية بأنها تطلب الافراج عن والدك بلا حماس .

● إننى أذهب إلى أبعد من ذلك إننى أتهمهم بالنفاق !

* هل تعرف شيئا عن حياة والدك اليومية فى السجن ؟

● معلوماتى عن ذلك محدودة ، وكل ما لدى من معلومات قالها لى ألبيرت شبير وزير التسليح بعد خروجه من السجن .

سكرتير تحرير تنفيذى
والرسوم الداخلية ● محمد عفت

رقم الايداع بدار الكتب والوثائق القومية ٨٣/٤٢٠٩

الترقيم الدولى ٧ - ٠٤٤ - ١٢٤ - ٩٧٧ - ISBN



أسسه

مصطفى أمين وعلى أمين

ثقافة اليوم وكل يوم

رئيس مجلس الإدارة :

موسى صبري

رئيس التحرير :

أمين محمد عدلى

نائب رئيس التحرير :

عبد العزيز عبد العليم

مدير التحرير :

حسين فريد

العـدد ٢١٩ — ذو القعدة ١٤٠٣ — سبتمبر ١٩٨٣ — ايلول

الإدارة : أخبار اليوم ٦ شارع الصحافة ت ٧٥٨٨٨٨ عشرة خطوط

تلكس دولى ٩٢٢١٥ - محلى ٩٢٢٨٢

الاشتراكات

جمهورية مصر العربية :
قيمة الاشتراك السنوى ٦ جنيه مصرى

دول اتحاد البريد العربى والافريقى } ٧,٥٠٠ جنيه مصرى — ١٣ دولارا امريكيا او ما يعادله

باقى دول العالم (أوربا والامريكتين وآسيا واستراليا) } ١٥ جنيه مصرى — ١٨ دولارا امريكيا او ما يعادله

- ويمكن قبول نصف القيمة عن ستة شهور
- ترسل القيمة الى الاشتراكات ٣ م ش الصحافة القاهرة ت ٧٤٨٨٤٤ (٥ خطوط)

أسعار كتاب اليوم

المغرب	١٢٥٠ فرنك
لبنان	٦٠٠ ق.ل
الأردن	٦٠٠ فلس
العراق	٦٠٠ فلس
الكويت	٧٠٠ فلس
السعودية	٧ ريالات
السودان	١٠٠٠ مليم
تونس	١٢٥٠ مليما
الجزائر	١٢٥٠ سنتيما
سوريا	٥٠٠ ق س
الحبشة	٦٠٠ سنت
الخليج	٨٠٠ فلس
غزة	٢٥٠ ليرة
اليمن	٨٠ بنى
الصومال/نيجيريا	٨٠ بنى

فى الخارج

إيطاليا	٢٠٠٠ ليرة
باكستان	٣٥ روبيه
سويسرا	٤ فرنك
اليونان	١٠٠ دراخمة
النمسا	٤٠ شلن
الدنمارك	١٥ كرونات
السويد	١٥ كرون
الهند	٣٥٠ ستا
كندا/أمريكا	٣٠٠ سنت
البرازيل	٤٠٠ كروزيرو
نيويورك/واشنطن	٣٥٠ ستا
لوس انجلوس	٤٠٠ سنت
استراليا	٤٠٠ سنت
السنغال	٦٠٠ فرنك
هولندا	٥ فلورين
انجلترا	١٠٠ بنى
فرنسا	١٠ فرنك
ألمانيا	٥ مارك



كتاب اليوم
عدد أول أكتوبر
القاتل و المقتول
للأديب الروائى
إسماعيل ولى الدين
مجموعة قصصية مثيرة

٥٠ قرشا